كلمة الوزارة

وقفة الذات مع الضمير

الدكتورة
نجوة قصاب حسن
وزيرة الثقافة

التاريخ لا تصنعه الصدفة بل رجال عظماء يؤمنون بقضايا عظيمة، رجال اكتسبوا سمات العظمة من خلال أهداف نبيلة نذروا أنفسهم لتحقيقها، ومآثر تاريخية من خلال قيم إنسانية وقومية يغرسونها. العظماء هم الضرورة التي تحقق وجودها في زمن نضوج الظروف الموضوعية خلال سيرورة الحياة والبناء الاجتماعي، ومجريات الأحداث والتطور.

هكذا كان رجل الأمة ورجل التاريخ. القائد الخالد الذي تجاوز عمله وفكره ونهجه زمن حاضره إلى سرمدية المقبل من الأيام.

القائد الخالد حافظ الأسد رجل الشعب الذي جاءت قيادته في اللحظة التاريخية الحاسمة لإعادة ثقة الشعب بنفسه، وإعادة بناء الدولة على أسس ثوابت العدل ومبادئ الحفاظ على الكرامة والأمن والاستقرار. قائد متميز بحضوره وأدواره في تحقيق إنجازات حضارية وإنسانية قبل إحداث الصروح، وفي ربط القول بالفعل والممارسة ليأخذ التاريخ مساره بوجه مشرق يهتدي بوضوح الرؤية، وسمو الرسالة والأهداف.

هي ليست رسالة ذكرى رحيل بل وقفة الذات مع الضمير، وقد كان ضمير الأمة الحي، واستنارة بشعلة الإيمان والتفاؤل التي ما تزال أنوارها تشع أمام أجيال المستقبل، وتطالب باستمرار العمل وبناء العزة الوطنية. وفي هذا نستمع إليه وهو يقول:

/ فلنتابع الطريق أيها الإخوة والأبناء بعزم وإباء وشرف وأمانة فمسؤوليتكم هي الاستمرار في كتابة التاريخ المجيد لشعبكم وأمتكم ولا بد أن تكونوا في مستوى المسؤولية./

نحن لا نستعيد ذكرى لأننا ما نزال نعيش في ظل الرؤية الوطنية والإنسانية التي استشفها وبذل نفسه من أجلها. رؤية تبدأ من العمل للدفاع عن القضايا الوطنية ومبادئ الحرية والعدل وتحقيق السلام العادل والشامل والدفاع عن الحقوق. وتمتد إلى تفاصيل بناء الإنسان خلقاً ومبادرة وإحساساً متنامياً بالمسؤولية، رؤية شهدت الحاضر بعين المستقبل، واستندت إلى الماضي، تستمد منه ركائز الأخلاق نحو الأفضل فكان الإيمان بالله هو منبع القيم والإخاء والتسامح، لذلك كانت الثقة بالإنسان المؤمن والصادق مع نفسه ووطنه تعتبر في رأيه الثروة الأولى والأقوى.

اهتم بالإنسان طفلاً وشاباً وهرماً فأمّن له الظروف الموضوعية، وأسس لبنى تحتية تمكنه من العيش بكرامة، واهتم بالإنسان كحامل دور ووظيفة في البناء الاجتماعي، فسعى لتأمين ما يكفل له المشاركة الفاعلة في الحياة، فكان التوجه إلى إقامة مؤسسات ومنظمات شعبية وجماهيرية، يتم من خلالها تكافل الجهود وخدمة الوطن. ومن خلال هذا البعد الإنساني والوطني

كانت رؤية القائد الخالد لقضايا تحرير المرأة وزيادة مشاركتها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولأنه رأى في ذلك التحرير ضرورة وطنية قومية وإنسانية، فبدأ بإزالة الغبن الذي وقع عليها من عهود سابقة، وأرسى لها القواعد التي تؤمن تحقيق العدالة لها كمواطنة وكإنسانة، من خلال تشريعات وكفالات دستورية وبنى تنظيمية ودعم معنوي وسياسي، فأضحت قضايا تحرر المرأة من بين أهم أولوياته في العمل، وناضل معها ومن أجلها فكان منارةً ومثلاً أعلى بين القادة العرب في نفاذ بصيرته واستشفافه للأبعاد الإنسانية والاقتصادية المتمثلة في هذا الموقف الحضاري المستنير.

ولا شك أن تلك المواقف النبيلة قد انعكست ولاءً ووفاءً لدى أبناء الشعب، ولدى المرأة السورية التي اغتنت بالطموح والثقة بالنفس والرغبة في العمل والعطاء للوطن، لسورية الأسد، التي ما تزال تتلاقى فيها إرادة القائد والشعب في اتجاه واحد، وما يزال التوجه الإنساني هو الرائد، دفاعاً عن الحق والعدل والحرية ذلك التوجه الذي يرفع اسم سورية عالياً بين الأمم، ويهيئ لمستقبل راسخ الثوابت والقيم النضالية والوطنية..

والذي مـا يـزال في ظل رايـة السَّيـد الرئيس بشـار الأسـد رئيس الجمهورية العربيـة السُّورية، رمزًا للكرامة العربية ومرتكزًا لنهوض عـربي مـوحـد ومنارة تشع للدفـاع عن الحق العـربي. ووضـوح الرؤى والمفـاهيم، في زمن اختلطت فيـه القيم وتشـابكت الأحـداث وتبـاينت المواقف. وتبـقى سوريـة في ظل القيـادة المستنيـرة وعـروبة الانتـمـاء، نبـراسًـا وقـدوة تُحـتـذى في بناء الإنسـان والوطن والعمل لتـأسـيس الحاضر، وأمل الغد، ومجد كل الأيام الآتية.

❖ ❖ ❖

كلمة المعرفة

سورية الأسد للكرامة عنوان

د. إنصاف حمد
رئيسة التحرير

تتالى الدعوات منذ مدة لا بأس بها للتخلي عن الأسلوب العاطفي والإنشائي واعتماد أسلوب الدراسات العلمية الرصينة عند الحديث عن القائد الخالد حافظ الأسد.. ورغم اعترافنا بضرورة ذلك وأهميته وحاجتنا للإقلاع به عبر مركز أبحاث متخصص مثلاً.. ورغم أن العديد من الباحثين نهضوا بأعبائه فأجادوا.. إلا أننا نتقدم باعتذارنا للمشتغلين والمطالبين، بهذا النوع من الأبحاث، التي تكتسي إهاب الحياد (البارد) وتتلفع بالموضوعية، لأننا قد لا نستطيع تلبية هذه المتطلبات الصارمة في القول المتصل بهذا المقام.. فالحرارة تأبى إلا أن تتسلل عبر الكلمات، والانحياز الواضح يطل برأسه عبر السطور، رغم أنفنا، وقد تكون لنا مسوغاتنا.. ربما لا يكون أولها صعوبة تقييد المشاعر الفياضة لضوابط البحث الجامدة، وليس آخرها قربنا من المرحلة الزمنية المتناولة، وكأننا لا نزال نعيش فيها.. بكل تقديرنا واعجابنا وانبهارنا بشخصية القائد الخالد .

وتزداد حدة هذا الأمر، وتصبح له تجلياته المشخصة والواضحة، عندما يتصل بموضوع الكرامة، التي أصحبت عنوانًا لسورية وسورية عنوان لها.. إنهما صنوان، ولعلّ هذا التواشج هو أحد أسرار التميز التي وسم بها القائد الخالد فترة حكمه، وهي لم تك أبدًا سمة غريبة عنا، بل هي نابعة من أعماق التاريخ، تشهد وقائعه وأيامه أن الكرامة شأن عربي وسوري بامتياز إذ «ليس في تاريخ أمتنا إلا ما يؤكد رفضها الرضوخ للمصاعب، وتمردها على النكسات» لقد تميز شعبنا «بروح التمرد على واقع يتنافى مع عزته وكرامته، ويتعارض مع مطامح أبنائه المشروعة».

لم يك غريبًا إذن، أن يولي القائد كل هذا الاهتمام لموضوع الكرامة، وأن تصبح هذه المفردة لازمة، لا يكاد يخلو منها خطاب له أو حديث، في المناسبات كلها.. فهو الطالع من أعماق أرض مجبول بالعزة ترابها، ومنحوتة بالكرامة ملامح أبنائها.. ويصبح من الطبيعي أن تكتسب أهمية محورية في أقواله، وتتجسد أفعالاً متعينة في سلوكه وتصرفاته وقراراته. وعندما تتطابق الأقوال مع الأفعال يحدث التماهي، النادر الحدوث، بين قائد الكرامة هاجسه وشعب الكرامة مطلبه وغايته.. وينتج عن ذلك كله سياسة سورية متفردة، واضحة، صادقة، نابعة من التمسك بالحقوق، والثبات على المبادئ، ورفض الذل والهوان ونبذ الازدواجية بين ما هو مصرح به «رسميًا» وماهو مسكوت عنه في «الكواليس» والغرف المغلقة. وتمزج ما بين الأخلاق والسياسة، في عملية قل نظيرها، تبتعد عن الميكافيلية والمصلحية كلما اقترب الأمر من حق الكرامة وكرامة الحق..

وإذا كانت الكرامة الإنسانية تمثل قيمة الإنسان من حيث هو إنسان. حيث تغدو الإنسانية في ذاته غاية وليست وسيلة، وتمسي كرامته كإنسان مقدمة على كل شيء، وإذا ما كان الحق هو الأمر الثابت اليقيني الذي لا يمكن إنكاره.. فإن الكرامة الوطنية هي حق الإنسان في التمتع بكرامته على أرضه،

سواء بحقوقه الطبيعية: وهي مجموع الحقوق اللازمة عن طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان، أو حقوقه الوضعية: وهي مجموع الحقوق المنصوصة في القوانين والتشريعات.

الكرامة إذن، ذروة من ذرى القيم الإنسانية التي تتطلع إليها الحضارات المتطورة إن لم تكن ذروة تلك الذرى، وقد تطورت بوصفها مطلبًا قيميًا تطورًا عميقًا واكب تطور القيم التي استخلصها الإنسان بتجاربه الواعية وغير الواعية، وجعل منها قيمة مثلى في شخصية الفرد والأمة والدولة، حتى غدت موئل الشرف وجماع مناحي الفعاليات البشرية، وما يرنو إليه الإنسان: ذلك الشعور العارم بالنبل والشرف، وهي بذلك قيمة اجتماعية وثقافية وأخلاقية تلازم الإنسان، وتشكل قوة معنوية محفزة للسلوك الخلاّق. مطلوب احترامها، بوصفها تسم الإنسان بأنه أهل للتقدير وخليق بالجدارة. وتجعل من واجبه المطالبة بكل ما يتيح له أن يكون ذاته في المجالات كافة..

ومن هنا.. من هذا الموقع الفذ للكرامة بالنسبة للإنسان. تحدثت المادة الأولى في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عن تساوي الناس جميعًا في الكرامة والحقوق، وتضمنت ديباجة الإعلان المذكور.. إشارات عديدة ومتكررة للكرامة بوصفها قيمة إنسانية مثلى. وبوصفها حقًا لا يقبل التنازل.

هذا الفهم للكرامة- الإنسانية والوطنية- وهذه الأهمية القصوى لها.. لم تغب يومًا عن تصورات القائد الخالد، وجرى التعبير عنها بصيغ مختلفة.. فـ «الحياة في جوهرها كرامة»، وهي «جوهر الوجود. والدفاع عنها دفاع عن الوجود» وإذا كان ما من فرد يرضى بهدر كرامته فمن البديهي أنه «ما من شعب يرضى بهدر كرامته». إذ «لا معنى للحياة بدون كرامة» و«لا يمكن أن نفصل بين الحق وبين الشرف والكرامة». وإذا كان الحق لا ينفصل عن الكرامة فقد كان واثقًا أن الشعب يدرك أهمية ذلك ويعي مسؤوليته «عندما يكون الخيار أن نحيا أحرارًا كرماء أو نعيش مهانين أذلاء، يكون الاختيار واضحًا وقاطعًا، فلا يمكن أن نقبل المذلة مهما كلفنا اختيار الحرية والكرامة من تضحيات ومهما تطلب

من نضال شاق» وهذا يعني بالضرورة بالنسبة له. وللشعب المعبر عن تطلعاته أنه «لا خيار أمامنا سوى الدفاع عن أرضنا وكرامتنا».

وليس الأمر مقتصرًا – في هذا السياق، على إطلاق مصطلحات مجردة لا تجد تعيناتها في الواقع المشخص، فالحرية والكرامة هما في الأساس «مواطن حر كريم في وطن حر كريم»، وهما بهذا كل لا يتجزأ.. ويتطلب الدفاع عنه «كل ما نملك» لأن «كرامة المواطن من كرامة الوطن» ولن يكون ذلك إلا بالنضال المستمر لا سترداد الأرض واستعادة الحقوق وبـ «خدمة الوطن بصدق وتعميق الغيرية – والروح الوطنية»...

والكرامة حاجة أساسية كما الخبز «إن الإنسان يحتاج إلى الخبز ليحيا، لكنه لا يحيا به وحده، إنه في حاجة إلى الكرامة» فـ «الحياة بدون رسالة أو كرامة لا تستحق أن تعاش» و «ما ذل شعب واستكان إلا وفقد جدارة الحياة».. لذا «سنكون الشعب الذي يعمق جذور الكرامة في أرضه ونفوس أبنائه من أجل أن تنمو سنابل العدل والكبرياء وتنتشر خيراتها في كل مكان، تغذي الإنسان والحياة» إذ «لا شيء بالنسبة إلى شعبنا يساوي الأرض والكرامة اللتين يجب أن نحفظهما وندافع عنهما».

وبوعي عقلاني لصعوبة الوصول إلى الحق، وإدراك لمتطلبات وعورة الطريق ينبه إلى أن طريق الحصول على الحقوق « متعب وشاق، لكنه طريق الشرف والكرامة ولن نحيد عنه» حتى نحصل على حقنا في أرضنا وحرية شعبه.. وذلك يتطلب أن نسخر «كل ما نملك من إمكانات» وأن نبذل في سبيل مبادئنا «كل ما نملك من عرق ودم» وهذا وحده السبيل إلى تحقيق «أمل الشعوب بتوفير الكرامة، بكل ما تعنيه وتقتضيه هذه الكرامة» والوصول إلى تحقيق هذا المطلب إنما يكون إذا «وفرنا لشعبنا، بحدود ظروفنا، وطاقاتنا أسباب الحرية والكرامة» عندها سيتحول الوطن إلى «صخرة منيعة، وقلعة صامدة» تتحطم إزاءها كل محاولات «النيل من كرامة هذا الشعب وهذا الوطن».

إذن، في مجال الدفاع عن الحقوق وتوفير الكرامة «لا يمكن إطلاقًا أن نكون مترددين أو متخاذلين أو جبناء، ولن يكون مطلب الحياة الهادئة على حساب كرامتنا أو مصالحنا أو على حساب كرامة أو مصالح الأجيال القادمة..» وهذا يعني بالضرورة الاستعداد لتسديد الفاتورة المطلوبة «إن للحرية والكرامة ثمنًا غاليًا.. ولكننا مستعدون لدفعه في سبيل تحقيقهما». «نحن أصحاب قضية، وأعداؤنا يريدون أن يسلبوا حقنا في قضيتنا العادلة» لكن هذا لن يكون متاحًا لهم فالتصميم على استرداد الحقوق قضية مبدئية، إننا «لن نستجديها من أحد، لأن الاستجداء ذل، والذل سينسحب على شعبنا وأجياله القادمة، ولن نورث أجيالنا القادمة ذلاً ومهانة، بل سنورثهم عزة، وشرفًا وكرامة» فهذا الميراث أمانة حملتها الأجيال وصانتها، والتفريط فيها خيانة لكل إرثنا الحضاري.. فالأرض «هي الأغلى - هي الكرامة - هي الوطن».

وقضية الثبات على المبادئ والتمسك بها سمة واسمة للسياسة السورية، في حدها الحد لمطالب المرونة والواقعية، و«إذا كان التمسك بكرامة الأمة يعني تصلبًا، وإذا كان النضال من أجل تحرير الأرض ورفض الاحتلال يعني تصلبًا، وإذا كان الموقف الكريم في الدفاع عن الوطن يعني تصلبًا، إذا كان العمل لرفض الهزيمة يعني تصلبًا.. فنحن مع هذا التصلب». هكذا أعلنها الأسد قوية مدوية: خطوطًا حمر لا مجال للّعب، حتى بالكلمات فيها.. لقد حاربت سورية وصمدت، لم تتخاذل ولا رضخت للضغوط.. «لم يستطع أحد جرها إلى ما لا تريد.. فالعمل السياسي «يجب أن لا يؤدي إلى أي تفريط بالحقوق والكرامة» ولا مكان في سورية «للانهزام والتخاذل، وكما لم تستطع المخططات جرها إلى «مواقع التهور والمغامرة، فلم تستطع أيضًا جرها إلى «مواقع الخوف والاستسلام».

إن الكرامة.. كصناعة سورية، تستوجب عند الأسد «أن نرفض رفضًا كاملاً كل المخططات التي تريد أن تفرض علينا ما لا نرضاه وما لايتلاءم مع حقوقنا العادلة والمشروعة، ومع كرامة وكبرياء جماهيرنا» إننا «قانعون إنه

بالعرق والدم، وليس استجداء، تسترجع الحقوق، وبالعرق والدم وليس استجداء تصان حرية الناس وكرامة الوطن». وهذا ما أثبتته السنون والأيام، وما أكدته الأفعال بعد الأقوال، سورية «لا تنام على ذل، ولا تخشى خطرًا مهما كان عظيمًا عندما يتصل الأمر بكرامتها وكرامة أمتها» فهي سليلة أجداد «ما ناموا على ضيم ولا هانوا أمام معتد آثم، بل كانوا دائمًا أعزّة أبطالاً.. حفظوا الكرامة وصانوا الكبرياء» والحفاظ على هذا الإرث يتطلب «عدم الاستسلام للمصاعب، والتصدي لها وعدم قبول «التضحية بكرامة وطننا وحريته من أجل بعض المصالح الجزئية».

ولذلك لا بد من إيجاد مناخ ملائم «لخلق جبهة شعبية قوية قادرة على الدفاع عن نفسها.. وقاعدة يستند إليها كل العرب دفاعًا عن كرامة الإنسان العربي وعزته» وهذا لا يكون إلا بالعمل على تحقيق الوحدة لأنها «طريق الحفاظ على الكرامة والحقوق» وهي وحدها القادرة على «صيانة كرامة المواطن العربي، والقادرة على الدفاع عن حرية المواطنين العرب «وحفظ المصالح القومية» إنها «أمل كل مواطن وهدفه» وفيها «تحقق الكرامة» وبدونها «لا حياة ، ولا كرامة، ولا تقدم، ولا تحرير».

وإذا كنا بالوحدة نحقق الكرامة،فبالشهادة تتجلى اسمى معانيها. لأن دماء الشهداء الذكية تكتب «الحياة مع الكرامة للشعب والوطن» وهي التعين الأصدق لشعب «شجاع لا يعرف الجبن ولا التخاذل ولا يعرف سبيلاً للهزيمة، يرفض الخنوع ويأبى العار، ويتطلع أبدًا إلى تحقيق عزته وكرامته» وبالشهادة تصان الحقوق، وتتحقق المنعه وبقدر ما نشعر أن فعل الشهادة «جزء لا ينفصل من كياننا» بقدر ما سنشعر «بالكرامة ونسعد بهذا الشعور» لأننا عبرها يمكن أن نسترد «كرامة شعبنا المجروحه وحرية أمتنا المهدورة».

وانطلاقًا من هذه الرؤية، كانت حرب تشرين، وكان الأداء العظيم فيها ملحمة بطولية حقيقية صانت كرامة أمتنا إنها الواقعة التي «وضعتنا بأسلوب المواجهة، في مسار الكرامة» وتوجب علينا مذاك «المحافظة عليه وبذل كل جهد

لتلاتضيع منا معالم هذا المسار». لأن ضياعه سيكون «خطأ تاريخيًا» لا بل «إثمًا كبيرًا». صحيح «إن الحرب ما كانت في ذاتها هدفًا لنا في أي وقت» لكنها، كانت دائمًا مرتبطة بالأمن والحقوق والكرامة والكبرياء» وكان شهداؤها «مشاعل نور تضيء لنا طريق الشرف والكرامة» وللحفاظ على هذه الشعلة متقدة يجب أن نعبئ الأجيال القادمة بحب الوطن، وبقيمنا وتراثنا، وبالتصميم على القتال، والتمسك بالكرامه، وتقديس الشهادة».

ومن المنظور ذاته كان السعي إلى السلام لأن «من يحسن الدفاع عن وطنه في ميدان القتال، يحسن الدفاع عنه في ميدان السلام» والسلام المنشود هو السلام «الذي يقوم على الانسحاب الكامل وعودة الحقوق إلى أصحابها» إنه سلام «ينتفي معه الاحتلال» «سداه الحق ولحمته الكرامة» لذلك فإن الطريق إليه يجب أن يكون «طريق الكرامة والكبرياء» كما كانت الحرب «دفاعًا عن الحق والكرامة» وبغير ذلك لن يكون سلام إذ « لو أعطينا الجنة مضرجة وملفوفة بالذل لرفضنا هذه الجنة».

ولأننا نفهم السلام «عدل وكرامة» وأعداؤنا يفهمونه «استسلامًا» هنا وقع التناقض، لأنه لا يمكن أن يبنى «على التفريط بحق الشعب» فهو عندها سيشكل «طعنه لكرامة الأمة العربية» «فاسترداد الحقوق كاملة غير منقوصة هو مطلب الأمة» وهو «نابع من تقاليدها وتاريخها» ويجب أن يحقق لها «حالة من الأمن والطمأنينة يتوفر فيها الشرف والكرامة والعدل والكبرياء».

إن صورة السلام التي انتقلت إلينا عبر أجيال من أبناء أمتنا و«المعمدة بالتضحيات والدم. أساسها العدل، لا احتلال ولا تشريد ولا ظلم ولا ذل بل حرية وسيادة وكرامة وكبرياء، إنه سلام يحفظ الحقوق والكرامة. ومن هنا كان رفض سورية لأي خطوة تتضمن تنازلاً أو تفريطًا بالحقوق، ولكل سلام يعطي «سيادة منقوصة وضمن شروط لا توفر الكرامة» ولأنها «تريد سلامًا يستطيع أن يصمد ويستمر» عبر تأييد شعب «كريم يرفض الاستسلام ويقف جبهة واحدة للحفاظ على كرامته». وهذا السلام لا يتحقق عبر الاستجداء،

الذي امتهنته بعض الأنظمة العربية، لأن «الاستجداء يحقق استسلامًا برداء السلام»

فالخطوات المؤيدة بقبول الشعب، هي الخطوات السديدة والمستمرة. وهذا نابع من القناعة بأن الجماهير هي «الضمانة الأكيدة للبقاء موفوري الكرامة شامخي الرؤوس» وهي «كنز الوطن الثمين.. والدرع الذي نتمترس وراءه» و«السيف الذي يحمي صدر الوطن» ومصدر الشعور بالقوة.

هذه الثقة العالية بكفاءة ووعي أبناء الشعب دفعت إلى القول بأن «وطنًا أبناؤه لهم مثل هذه الخصائص يصبح قلعة قادرة على الصمود، وإنجاز الأعمال العظيمة -والمشاركة الفعالة في بناء الحضارة الإنسانية» وهذا نابع من القناعة الأكيدة بأن «طاقات الأمة العربية ضخمة وكبيرة، وعلينا أن نبذل جهودًا مثمرة دائمة لإيجاد الصيغ التي تضمن وضع هذه الطاقات الضخمة في خدمة هذه الأمة، وحريتها، وكرامتها». ومن أنه على جدران «كبرياء هذا الشعب ستتهاوى المخططات التي تهدف النيل من حقيقته».

ومن هنا منبع القوة «بالإرادة والتصميم والتفاف الجماهير حولنا» أقوياء و« بتأييد وتضامن قوى التحرر والسلام في العالم» ولكي يزداد منبع القوة «الجماهير» قوه لابد من «العلم والمعرفه لنصعد إمكانات الفرد والأمة، ونستكشف الأبعاد الحقيقية للقيم النضالية الحياتية كالوطنية والكرامة والغيرية والشهادة، ونعرف كيف نجسدها ونضعها في مكانها الصحيح».

وهذه القوة تترسخ يومًا بعد يوم، لأن القائد «الذي يهتدي بمواقف شعبه وعواطفه وأمانيه ورغباته، ويتمثل تصوره للكبرياء والكرامة» مثل هذا القائد «لا يخشى أبدًا أن يضل الطريق» لأنه «يؤمن إيمانًا راسخًا» بأن شعبه هو «المصدر الأول لكل السلطات، ومن الطبيعي أن يمارس سلطاته كاملة عبر المؤسسات الدستورية التي يشكلها الشعب، وأن يعبر عن ذاته ويؤكدها من خلال هذه الممارسة» وبذا «يرتفع بناء الوطن شامخًا وتتعزز كرامة الوطن وأبنائه» لأن

«الأصل هو الإنسان المؤمن بوطنه وأمته وقضيته، والذي ينظر إلى نفسه من خلال نظرته إلى كرامة أمته».

من هنا بالذات نبعت الثقة «بالقدرة على المضي في الطريق المرسوم رغم كل التحديات والصعوبات» فهو يبني على «قاعدة شعبية متينة ونرفع البناء بسواعد الجماهير المصممة على أن تبلغ غاياتها.» «نفعل ذلك في البناء الداخلي سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ونفعله في البناء القومي عملاً جادًا لتحقيق التضامن العربي، وتحقيقًا لكل خطوة وحدوية ممكنة، ونفعله في المجال الدولي تعزيزًا لمكانة قطرنا ووطننا، ودفاعًا عن الأرض والحقوق العربية رافعين راية شرف أمتنا وكرامتها، مقاومين كل ما من شأنه أن ينال أو ينتقص من الكرامة العربية، مضحين في سبيل ذلك مهما كان حجم التضحية» ومن يفعل ذلك من حقه أن «يتفاءل بالمستقبل» الذي ستستعاد فيه «كرامة العرب كاملة» لأنه سلك «طريق الصدق مهما كانت صعوباته»، وحرص «في كل خطوة على الاسترشاد بمشاعر الشعب ورغباته لأنها المشعر الصادق الحق» والنتيجة الطبيعية لذلك «الثقة المتبادلة بين القيادة والجماهير» وفي الوقت نفسه هي الأساس.. لأن «السلاح الأمضى والأهم في معركة الكرامة هو إرادة الإنسان» التي لا يستطيع شيء أن يقهرها.

من هنا فإن «اختيار طريق الحق والعدل طريق الشرف والكرامة» كان اختيارًا وطنيًا وقوميًا» صحيح أنه «الطريق الشائك والأصعب لكنه الطريق الأكرم والأضمن» رغم أنه يتطلب دائمًا الاستعداد لدفع الضريبة المطلوبة و«تقديم التضحيات بقلوب مؤمنة «وصدور مشروحه ونفوس راضية» لأنه بكل الثقة هو الطريق الصحيح الذي لا مكان فيه للمتخاذلين أو المراهنين على الأوهام، ولا للمستعجلين لأي حلول استسلامية» إنه «طريق العزة والكرامة، يوفر المناعة ضد استسلام المستسلمين ويورث الأجيال القادمة الاعتزاز بما أنجزناه» وقد تجسد ذلك في «المحاولات الدائبة لتحقيق تجاوب مستمر بين آمال الشعب ورغباته وطموحاته وبين إجراءات القيادة، وتجسد في توجه لايعرف التراجع ولا التوقف نحو التنمية والتقدم في جميع المجالات».

ورغم كل المحاولات المستميتة لدفعها «للتراجع قيد شعرة عما أرادته وخططت له» فقد استمر العمل «المستند إلى وعي الجماهير التي تعرف ما تريده لنفسها: بلدًا قويًا كريمًا يسوده العدل والحرية. ومناخ أفضل للخلق والإبداع».

لا غرابة في أن يكون ذلك كله محصلة طبيعية لفهم عميق الغور بعيد الدلالة للمسؤولية والواجب اللذين يرتبهما المنصب والذي لم يكن في نظرالقائد الخالد«ولا يمكن أن يكون غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق هدف، وهذا الهدف هو هدف الشعب ومايصبو إليه».

ولم يكن التأييد الشعبي الحاصل في استفتاءات الرئاسة بنظره «إلا تأييدًا لنهج وسياسة ومبادئ، تأييدًا لحرية المواطن وكرامة الإنسان، تأييدًا لسيادة القانون.. تأييدًا لمصارحة المواطنين فيما يتعلق بأمور الوطن.. تأييداً للمشاركة الشعبية الواسعة في المسؤولية».

هذا التجاوب الشعبي الكبير الذي لم تعرف البلاد له مثيلاً، كان يسعده بقدر ما يشعره «بثقل المسؤولية وضخامة الواجب» وبكل ما يتطلبه من «صدق في التعامل مع المواطن» و «عملاً صادقًا وجاداً لبناء الوطن بناء متينًا على جميع الأصعدة». وفي «توفير الحياة الملائمة والكرامة لكل المواطنين».

هذا كان ديدنه.. على مدى سنوات عمره، رافعًا شعار «استرخاص كل جهد وكل تضحية في سبيل الوطن وكرامة الوطن ومجد الوطن وعز الوطن» حيث كان يرى نفسه «مسؤولاً عن كرامة ورعاية كل مواطن شريف» جاعلاً من كرامة المواطن وكرامته كل لا يتجزأ، عبر العمل من أجل «المصالح العليا للوطن والأمة»

وانطلاقًا من حقيقة أن الوطن للجميع، فقد فرضت هذه الحقيقة «على كل منا أن يحافظ على حرية الآخرين لأنها من حرية الوطن وأن يحافظ على كرامة الآخرين لأنها من كرامة الوطن» ففي حياة الفرد كما في حياة الأمة الحرية والكرامةصنوان».. لقد كان المستقبل الذي ينشده لأبناء أمته ويعمل لفتح

آفاق جديدة نحوه «هو مستقبل العزة والكرامة، مستقبل الوحدة والحرية» المعبر تعبيرًا صادقًا عن مشاعر وأماني المواطنين في مجتمع «الكرامة والعدل» المجتمع الذي تتحقق فيه «زيادة الإنتاج» و«زيادة العطاء» و «توفير الحياة الهانئة لكل مواطن» وبما يصون كرامة الإنسان ويجعله قادرًا على الخلق والإبداع وتحمل المسؤولية بوعي وإدراك» إن «صيانة كرامة المواطن والحفاظ على أمنه واستقراره وتأمين ظروف العيش الكريم» كانت الهاجس الدائم لكل خطط العمل وآليات التنفيذ والرؤى الاستراتيجية..لأن «الحق والعدل والكرامة» مطلب ليس فقط «للشعب العربي» بل «لجميع شعوب الأرض».

كل ما سبق الحديث عنه، مترافقًا «بتحديد الموقع والهدف، والسير إليه بعزيمة لا تفتر وتصميم لا يضعف» جعلا سورية «في المقدمة والطليعة.. دفاعًا عن الشرف العربي والكرامة العربية»

ولم يحدث هذا من فراغ فقد كانت سورية «عبر التاريخ رمزًا للنضال العربي، ومعبرة عن كرامة العرب، وطليعة للصمود» وهذه الرؤية إنما تنبع «من أصالة قومية لا من نزعة قطرية، إنها قدر هذا القطر» وسورية «التي تواجه قدرها بشجاعة وإيمان، لن تتخلى عن واجبها ولن تخذل الأمة التي وضعت فيها ثقتها وأملها، وستبقى وفية لهذا الدور وللمبادئ التي تؤمن بها» وستبقى كما كانت دائمًا «تبذل دون حساب وتضحي دون تردد في سبيل الأمة «لا تبغي من ذلك إلا وحدة الأمة وكرامة الأمة».

لقد استمرت تنهض بأعباء هذا الدور: تضع قضية فلسطين محورًا لقضاياها، وتدعم نضال شعبها، وتنافح بكل قوة في سبيل تحرير أرضه واسترداد حقوقه، تقدم التضحيات لصون وحدة لبنان وحمايته، وتدعم المقاومة اللبنانية حتى حققت الانتصار المؤزر ودحرت الاحتلال».. استمرت سورية في مقاومتها لمحاولات النظام العراقي افتعال حروب جانبية وحرف الأنظار عن القضية الجوهرية بمعارك استنزفت طاقاته ودماء أبنائه.. استمرت صامدة في وجه كل الضغوط لاجبارها على الاستسلام وكل ذلك إنما كان «للحفاظ على

كرامة أمتنا وكبريائها» وفي سبيل تحرير الأرض العربية واسترداد الحقوق العربية بشرف ورجولة» استمرت «صخرة صامدة في وجه كل المؤامرات».

«إن لسورية دورًا قوميًا تاريخيًا لا تستطيع التخلي عنه ولا ترغب في ذلك، وستبقى تجاهد وتضحي لتجسيد هذا الدور» لأنه لا شيء بالنسبة لها يساوي «الأرض والكرامة اللتين يجب أن نحفظهما وندافع عنهما».

بمثل هذه الرؤى ، وتلك التصورات، جعل الأسد الخالد من سورية «قبلة للأحرار وموئلاً للمناضلين في سبيل الحرية والكرامة» وجعل منها «دولة عصرية قوية، منيعة، صامدة».. لم تعرف دورًا ونفوذًا واستقرارًا كما عرفته في عهده باعتراف المحللين والمراقبين، الأصدقاء والأعداء، وذلك عبر ترسيخ مبادئ وقيم محط إيمان واعتقاد، وعبر تعزيز مكانة الوطن والمواطن بمواقف وطنية وقومية أصيلة بنيت على أساس من العزة والكرامة..

ومع انتقال الراية إلى يد الرئيس بشار الأسد نحن على ثقة بأن سورية ستبقى كما كانت دائمًا، «منارة ساطعة يهتدي في ضوئها كل المناضلين العرب» و «سنبقى في هذا البلد أعزة كرماء ننطلق من قيمنا ومثلنا العليا، لا نجامل ولا نساوم على أهدافنا ومبادئنا. نجسد كبرياء وكرامة أمتنا العربية ورسالتها».

سنبقى، لا شك، محافظين على سر الكرامة السوري، محاربين كل من يحاول «النيل من كرامة هذا الشعب وكبريائه» مؤمنين بأن «الاستسلام موت» وأننا «نموت ونحن أحياء عندما نعيش الذل ونستسلم» عندها «سنكون أمواتًا بدون كرامة وبدون شرف» وسيبقى خيارنا أن نموت ونحن رافعي الرؤوس» وأن نعيش ونحن رافعي الرؤوس.

* * *

ملف العدد

القائد الخالد: توهج الحضور في الغياب

التصحيح الثورة

فائز إسماعيل
الأمين العام لحزب الوحدويين الاشتراكيين،
عضو القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية.

عالم كبير رحب عسير سبر أغواره، والدخول إليه أمر كبير، لذلك يأخذ الحديث عنه مهابة وجلالا.

ولذلك أيضا يجب أن يقف الباحث الحصيف أمام بعض ما يستطيع استجلاءه من ظاهرة أو ظاهرتين من مواقفه لكي تكون هي محور البحث، وكل حديث في كامل شخصيته هو تيه في الخضم..

معروف عن هذا الرجل الكبير أنه ما قلّد أحدا ولا قلّد تجربة، وإنما كان ما أعطاه إلهاما في الإبداع، والإبداع دائما من صفات العظماء.

لقد حاولت قبل عام الدخول إلى عالمه المتميز من خلال دراسة عبقريته، وكتبت أربع مقالات في صحيفتنا (الوحدوي): ١ - معنى العبقرية، ٢ - عبقريته في شعبيته، ٣ - عبقريته في قوميته، ٤ - عبقريته في الحرب العراقية على إيران، إلا أن بحث العبقرية هذا لما يكتمل بعد.

-٢-

هل أقف أمام إدارته للبلاد وعلاقته بالشعب!.. وهذا يطالبني بأن أجري مقارنة بين الحاكم والقائد.

فالحكم ظاهرة طبيعية يمكن الوصول إليها في مواقف شتى تأخذ فيها الطبقية دورها، أو يلعب فيها المال، أو تلعب فيها التحالفات، ويبقى الشعب فيها على الهامش.

أما القيادة فهي الظاهرة الاستثناء، لأنها تأتي إرادة شعبية وفي الظروف الصعبة من أجل موقف كبير.

لا يدرس الرئيس الخالد كما يدرس الحكام الذين مروا في تاريخ قطرنا، وإنما يدرس كمناضل غدا قائدا للنضال، وتفاعل الشعب معه وتبادلا الثقة والمحبة.

جاء إلى السلطة من خلال إجماع القواعد الشعبية عليه.

وجاء من خلال المسؤولية التي حملها قبل السلطة وعرف مؤيدوه أنهم مع قضيته..

وسار في ملحمة النضال خطوة خطوة وسجل ما سجل من مواقف كبرى إلى أن وصل إلى القمة.

القواعد الشعبية والقوى السياسية في القطر وخارجه، كانوا يتتبعون حركاته وسكناته، ومواقفه وخطواته، طيلة سبعة أعوام سبقت الحركة التصحيحية، وكانوا يقولون: إنه رجل القضية ورجل المستقبل.

-٣-

أكدنا أنه لا قيادة في الوطن العربي إلا لمن يحمل هموم الأمة، ويلتزم بقضاياها العادلة، ويعمل معها في كل مجال لرفع الحيف عنها أو لدرئه قبل وقوعه، وهذا ما عرفته شعوب العالم كافة مع قادتهم.

أما الحكام فهم الذين يقفون أمام متطلبات القطر، مهمتهم تصريف أمور الدولة.

والقائد بالمقابل يطور الحاضر ويبني المستقبل وتتحرك معه الجماهير العربية.

والحاكم يأتي دستوريا وحسب وفق القوانين المرعية، أما القائد فيأتي شعبيا وقوميا.. يسير الدستور معه حيث يسير تماما، كما تسير معه الجماهير حيث يسير.

والقائد يرفض أن يعطي القطر كامل اهتمامه، أو أن يدع شعبه الصغير منغلقا

على الوطن الصغير، إنه يرى مصلحة القطر متمثلة بالوطن الكبير والأمة الكبيرة.

-٤-

يصاب الحكام بالغرور ويتعالون على الشعب في مواقفهم، أما القائد فيبقى دائماً مع التواضع لأنه لا ينسى أنه فرد من هذا الشعب.

قد يخضع الحكام لأمزجتهم وقراباتهم وعلاقاتهم الشخصية، وبالمقابل أسرة القائد شعبه وأمته.

قد يتشبث الحاكم برأيه ولو خطأً، أما القائد فإنه يعيش مع حاشيته وشعبه بكل الصدق والوضوح، يسمع كل رأي ويناقشه (وإذا عزمت فتوكل).

لو أخذ المناضلون من قادتهم القدوة بعض ما يملكون لقلّ الخطأ من بعدهم، لأن الاقتداء بهم ولو في حدود هو من الضمانات للأمة والمسيرة.

-٥-

وإذا لقي القائد وجه ربّه، يكون الجيل الذي بناه هو البديل، ويكون فكره ومواقفه هي الدليل، ولا يقف أثره على بلاده وإنما يغدو قدوة للأحرار العرب في كل مكان.

وحين يموت الحكام يأخذون صفحات في كتاب، أو ذكريات لدى الشباب، أما القائد فهو كتاب حي تقرأه الأجيال وتعيشه وتتخذه القدوة لها.

إن عاماً يعيشه القائد مع شعبه يترك آثاراً لا تنتهي، لأن منجزات القائد ليست مؤسسات تقام وحسب وإنما حركة أجيال وفعل أجيال.

يموت القائد ويبقى فكره الواضح ومواقفه الصحيحة تنير الطريق أمام الأجيال لتأخذ صفة المدرسة، وميزته أن خطه بيد الشعب أخذه منه، والكل يعرفون ماذا يريدون، وممن يريدون، وكيف يريدون، لذلك يمكن اعتباره ممثلاً بوحدة الجيل العضوية التي تقوم حول القائد ودعوناها بالوحدة الوطنية، وهي في الطريق إلى وحدة المناضلين في الوطن الكبير.

-٦-

في القرن الواحد تلتقي الشعوب بعديد من الحكام الذين يتزاحمون ويتصارعون مع بعضهم من أجل السلطة والنفوذ، وهي لدى الحكام هدف يسعون إليه... وهي لدى القائد وسيلة إلى المجتمع الشعبي المتقدم، هذا القائد الذي لا يأتي في حياة الشعوب إلا مرة في عديد القرون، هذا الذي تسعى إليه الزعامة والنفوذ والسلطة دون أن يسعى إليها وإنما من خلال الجماهير يرتقي موقعه الطبيعي.

لقد انتبهت العبقرية العربية التي تجلت

في لغتنا العربية - كما أشار الأستاذ الأرسوزي مؤكدا عبقرية لغتنا، ونلجأ نحن إلى هذه العبقرية لنجد أجدادنا العلماء فرّقوا بين قاد يقود في المواقف الجزئية من الحياة في العلم والفن والفلسفة والحروب ومرجعهم جذر (قاد)، قائد الجيش، قائد الفكر، قائد الفن... الخ...

أما القيادة القدوة للشعوب فقد جاءت من جذر (قدو)، أي أنه القدوة والأنموذج..

-٧-

القائد الخالد حافظ الأسد أعطى فكرا يمكن القول عنه أنه نسيج وحده، صحيح أن هذا الفكر من البعث ومع البعث العربي الاشتراكي، ولكنه كان فكر التطوير لهذا البعث.

كانت له أفكار متميزة تنسب إليه حصرا: بالوطن بالمواطن، بالانتماء والمسؤولية، بالنضال والمناضلين، بالبطولة والأبطال، بالشهادة والشهداء، بالعمل والعمال، بالأرض والفلاح، بالثقافة والمثقفين، بالتراث والحداثة، بالتقليد والإبداع، بالرجعية والتقدمية، بالعروبة وعلاقتها العضوية بالإسلام، بالإسلام والمسيحية، بالمرأة والرجل، بالعروبة والقومية، بحقوق الإنسان والديمقراطية، بالتحرير والحرية، بالطلاب والمعلمين، بالنقابات والاتحادات والمؤسسات، بالإرهاب والدفاع عن الوطن، بالإنسان والإنسانية..

وما لا حصر له من المواضيع، وأضاف مؤكدا على الكرامة والعزة والاستقامة والنزاهة والأخلاق والقيم، وهو الذي عاش هذه القيم وتميز بها.

-٨-

منذا الذي ينكر أن الرئيس الخالد كان النبع الثر، ذا الموقف الحر، وذا الإرادة الشماء، الذي عاش الثقة المطلقة مع الشعب والأمة، وكان نضالا لا هوادة فيه!!..

هكذا بدأ مذ كان يافعا واستمر في هذا الطريق.. كافح، ناضل، تصدى، تحدى، اعتقل، سجن، طرد، وفي مرحلة المسؤولية عاد ثانية يتصدى، يتحدى، يعطي ويبدع إلى أن لقي وجه ربه.

-٩-

السؤال الكبير: هل نحن مؤهلون لأن نعيش فكره ولو بالحدود الممكنة!..

هل نحن مؤهلون لأن نعيش نضاله ولو بالحدود الممكنة!..

هل إذا أشدنا به عبّرنا عن حبّنا له!..

مطلوب منّا أن نترجم هذا الحب إلى مواقف..

مطلوب منا أن نحمل مسؤولياتنا اليوم كما حملها بالأمس، وأن نقتدي به، ونسير

على خطّه، سلوكاً، أخلاقاً، نضالاً، وشجاعة، لكي نكون جميعاً صورة هذا الرجل الكبير!..

لقد تعززت مسيرتنا بالقائد الملهم بشار الأسد الذي دخل أوار معركة الحرية والكرامة بكل الكفاءة والاقتدار، وحمل مسؤولياته الوطنية والقومية بشجاعة فوق كل حدّ، ووعي فوق كل حدّ، وكان بحق صورة القائد الخالد، بل إنه أضاف إلى سفره الثمين الكثير من الفكر الجديد والأساليب الجديدة والمواقف الموضوعية الجديدة، فهل نرتفع إلى مستوى ما يعطي ويبدع هذا القائد الكبير لنحمل مسؤولياتنا بجواره، لأن كل موقف إيجابي ملتزم نقفه إلى جواره هو الوفاء للقضية والمسيرة.

لا يقـــوّم الأبطال إلا المناضلون أو المثقفون الملتزمون، أما الذين ينقدون في المقاهي والنوادي فهم بعيدون كل البعد عن الوطن والمواطن، ولو سألتهم ماذا أعطيتم وماذا تعطون لفُضِحُوا.

المواطنة الحقة اليوم مسؤولية كاملة، لأن قطرنا موجود في معركة الحرية والكرامة، ومن خلال خطه القومي الرائد الواضح، ولا مكان في تقويمه لسفسطة السفسطائيين، وفي مثل هذه الحالات يفرز المناضلون من الأدعياء، حيث ينصرف الأدعياء إلى قضايا جانبية لكي يشغلوا الناس عن المعركة الحقيقية.

حاول الطغاة أن يفرضوا علينا رغباتهم كما تعودوا، وبقي هذا الوطن كما عرفتموه أبياً حراً ملتزماً يرفض بقناعة ويقبل بقناعة، ومن حق الأحرار العرب في هذا القطر وخارجه أن يرفعوا رؤوسهم عالياً بسياسة القطر ومواقفه من خلال قائده الملهم بشار الأسد!..

ثورة التصحيح

حين تعثرت المسيرة في مرحلة النصف الثاني من الستينات وجد القائد الخالد نفسه ملزماً بالتصحيح وهو الذي وهب نفسه للدفاع عن الوطن والأمة، وفي السادس عشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٠ قام بحركته التصحيحية، مع أن كل الحركات التي قامت في سورية ومصر والعراق وليبيا والجزائر واليمن وغيرها أطلقت على حركتها صفة (الثورة).

إلا أن القائد الخالد آثر البعد عن العناوين الكبيرة، واعتبر حركته تصحيحاً للماضي، وقدم برنامجه الجديد المسؤول داخلياً وعربياً ودولياً إلى الجماهير ونفذه حرفياً، وسارت في القطر ورشة عمل هنا وهناك وهنالك منها في ميادين الزراعة وأخرى في الصناعة وأخرى في السدود والجامعات وتعبيد الأوتوسترادات، وإقامة النقابات والتنظيمات الشعبية والبعثات

العلمية والدورات الثقافية، وكان يعطي الجديد الهام في كل عام جديد، ولو كان ثمة مؤرخون متابعون لأعطوا لكل عام أهم منجزاته: هذا عام قيام الجبهة الوطنية التقدمية، هذا عام سد الفرات، هذا عام قيام اتحاد الجمهوريات العربية، وهذا عام تشرين التحرير.. الخ..

حين ندرس هذه الحركة بموضوعية نجد أنها سارت إلى أمام خطوات واسعة في كل عام، وأعطت الجديد المتقدم دائما، وكل حركة تستمر في العطاء تدخل رحاب الثورة، لأنها عملية تجديد وتغيير وتقدم في كل مستوى.

لقد كان تواضعا من الرئيس حين لم يدّع الثورة، وإنما استمر باعتبارها حركة، والثورة في منطق العلم هي حركة شعبية واضحة، متقدمة، مبدعة، مستمرة، تعطي للحاضر والمستقبل، وأن تملك قائدها الذي يرعاها ويحميها ويطورها لأنه لا ثورة دون ثائر.

وهذا ما كانت تملكه حركة تشرين، ولانجانب الحقيقة وإنما نضع الأمور في نصابها حين نقول: (ثورة تشرين)، لا لأنها فاقت كل الحركات التي سبقتها ورافقتها، وعمرت أكثر منها، ما تراجعت، ما نضبت عن العطاء، ما وهنت أمام الأحداث، مما يؤكد أنها كانت تملك مقومات الثورة، وكانت تملك الثائر أيضا، هذا الثائر الذي كان يرعاها ويطورها بنفسه مع الجماهير.

لقد أخذت هذه الثورة شأوها ألقا وازدهارا ونماء وعطاء من خلال القائد الكبير بشار الأسد الذي رعاها وحماها وطورها، وكان الشعب ظهيرا له في معاركه ومواقفه يتتبع أقواله ويحفظها ويعيشها.. إن وطنا يكون فيه القائد مع شعبه صفا واحدا لا يمكن اختراقه.

❖ ❖ ❖

تعرضت هذه الحركة - الثورة - للنقد عربيا لأنها كانت تحرج أغلب الأنظمة العربية بمواقفها السياسية والشعبية، لا سيما وأن البعض كان مرتبطا، ولأن البعض الآخر كان يخشى على موقعه من وصول حزمة الضوء الثوري إلى شعبه..

وتعرضت النقد لها والصراع معها من الخارج، لأنها تصدت للمشاريع المشبوهة، وأعطت رأيها فيها بوضوح واتخذت مواقفها الشجاعة منها، وتعززت الفجوة بينها وبين المتآمرين الذين ناصبوها العداء وأقاموا الفتن في البلاد حيث أحبطت في حينه.

وتعرضت للنقد من أناس ينسبون إلى القطر داخل البلاد وخارجها معترضين على بعض السياسات والمواقف، وقلّ أن تجد مناضلا من بلادنا يغادر وطنه وله إرادة حرة وإنما سوف يحمل حقد سيده ويلتزم بسياسته..

مــا أتعس المواطنين الذين يســتــغلون مـعــارك بلادهم مع الأجنبي ويكونون ضـد بـلادهم، وهـم في هـذه المواقف شــاؤوا أم أبوا مـع الأجنبي وضـد الوطن، لأن المبـدأ الذي درجت عليـه الشـعـوب أنهـا تتناسى خـلافـات أبنائها وتقف صـفـا واحـدا حين يكون ثمـة خطر علـى الوطن، وحين يسـتـغل هؤلاء معارك الوطن وينحازون إلى خصومه يسمون عملاء.

مـا أروعك أيهـا الفـقـيـد الكبـيـر وهيب الغانم حين قلت في إحدى قصائدك:

في عراك الأبطال ما يفعل النذل
سوى أن يضيع قدس العراك!..

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد

عالم فسيح بغير حدود

صفوان قدسي
الأمين العام لحزب الاتحاد الاشتراكي العربي

(١)

في ذكرى غيابه الثالثة، مالذي نستطيع أن نستعيده ونسترجعه ونتذكره؟

نستطيع أن نستعيد وقائع تلك اللحظة الفاعلة في التاريخ حين نهض قائد عظيم إلى حمل مسؤولياته الوطنية والقومية، فكان نهوضه فتحاً مبيناً في حياة البلاد السياسية، واستهلالاً طيبًا لبناء هذا الصرح الشاهد من الإنجازات المادية والمعنوية الكبرى، وافتتاحية مناسبة لبناء سورية- القدوة، وسورية- النموذج، وسورية- المثل الأعلى للكثرة الكاثرة من خيرة المناضلين العرب في سبيل الأهداف القومية العظمى. إلهاما في الإبداع، والإبداع دائما من صفات العظماء.

ونسترجع حقائق تلك اللحظة الفاعلة في التاريخ حين وقع ذلك التطابق بين الموضوعي والذاتي، أي بين دور تاريخي يبحث عن بطل، وهو دور اقتضته ضرورات سياسية، وأملته إرادة شعبية وجماهيرية، وبين بطل كان مهيأً بحكم النشأة والتكوين، وبفعل الثقافة والخبرة، لأن يقوم بهذا الدور، فكان ذلك اللقاء النادر والفريد بين البطل والتاريخ، أي بين الشرط الذاتي والظرف الموضوعي، أي وباختزال شديد، بين إرادة الإنسان وحركة التاريخ.

ونتذكر كيف أن تلك اللحظة الفاعلة في التاريخ لم تكن حصيلة تطور عفوي وتلقائي، وإنما كانت محصلة إرادة بشرية حرة وطليقة، أحسنت التعامل مع تلك اللحظة التاريخية المناسبة، وأجادت التفاعل معها، فكان من شأن ذلك الإمساك بهذه اللحظة، وإحكام القبضة عليها، وتوجيهها صوب الأهداف التي ارتضتها تلك الإرادة الحرة والطليقة، لنفسها ولجماهير شعبها وأمتها.

(٢)

ثم نتقدم خطوة إلى الأمام فنستعيد كيف كانت العودة بسورية إلى ممارسة مسؤولياتها القومية، لكنها هذه المرة من موقع الدولة القادرة والمقتدرة، الفاعلة والمؤثرة، وكيف كانت إعادة الاعتبار إلى مجموعة من قيمنا الشريفة، ومن أهدافنا النبيلة، ومن غاياتنا الأصيلة، وهي قيم وأهداف وغايات كان هناك من يحاول حذفها من دماغنا، وشطبها من قاموسنا، وإزالتها من وجداننا، وفي المقدمة منها قضية الوحدة العربية.

ونسترجع كيف كان الحشد والإعداد، وكيف كان التفكير والتدبير، وكيف كان التخطيط والتنفيذ، لاستعادة الأرض، ولو كانت بعض الأرض، لاسترداد الكرامة، ولإسقاط الأساطير، وتبديد الأوهام، وتقويض الخرافات.

ونتذكر كيف أن الهوية القومية كانت الهوية الأكثر وضوحًا، وكيف أن الالتزام القومي كان الالتزام الأشد نصوعًا، ونتذكر كيف كانت التضحيات الجسام في سبيل تثبيت هذه الهوية القومية، وفي سبيل ترسيخها وتكريسها، وكيف كان النضال من أجل تأكيد هذا الالتزام القومي وتجسيده والتعبير عنه بجميع الوسائل الممكنة، والأساليب المتاحة.

(٣)

ثم نتقدم خطوة أخرى إلى الأمام نستعيد من خلالها كيف كان الصمود في وجه العدوان، وكيف كان التصدي للمكائد والمؤامرات، وكيف كانت المجابهة مع الذين حاولوا العبث بوحدتنا الوطنية، وكيف كانت المواجهة مع الذين عملوا على تهديم ما بنيناه، وتخريب ما شيدناه.

ونسترجع كيف كان تثبيت دعائم الوحدة الوطنية وأركانها، وكيف كانت الجبهة الوطنية التقدمية، وكيف كان السبق في

الاكتشاف، وكيف كان التبكير في الاستكشاف، وكيف كانت الرؤية المستقبلية، وكيف كان ارتياد الآفاق البعيدة والشاسعة، وكيف كانت النظرة الثاقبة، والبصيرة النافذة، وكيف كانت النبوءة.

ونتذكر كيف كانت التعددية الحزبية، وكيف كانت التعددية السياسية، وكيف كانت التعددية الاقتصادية، ونتذكر كيف كانت الحرية حريتين: حرية الوطن وحرية المواطن، وكيف كانت الديمقراطية السليمة التي لا تصنع فوضى سياسية، ولا تجعل المجتمع الواحد مجتمعات، ولا الشعب الموحد شعوبًا، والتي لا تعيدنا إلى مرحلة الضياع والشتات وفقدان الطمأنينة والاستقرار.

(٤)

ثم نتقدم خطوة ثالثة إلى الأمام فنستعيد ما قاله لنا الرجل الذي قلّ مثيله وعزّ نظيره، وهو أنه يجب ألا نخضع استراتيجيتنا وأهدافنا لظروف عابرة، أو عوامل آنية، بل علينا أن نطور هذه الظروف العابرة والعوامل الآنية، وأن نطوعها ونعمل على صياغتها بما يلائم استراتيجيتنا وأهدافنا.

ونسترجع ما قاله لنا البطل الذي نرى فيه تجسيدًا للأمة في رجل، واختزالاً لها في بطل، وتعبيرًا عنها في قائد تاريخي، وهو أننا أقوياء بتمسكنا المكين بأهدافنا الاستراتيجية، برؤيتنا الواضحة لعالم اليوم والصراعات الدائرة فيه، بوعينا للقوانين التي تحكم الصراع الدائر بين الشعوب وأعدائها على امتداد الكرة الأرضية.

ونتذكر ما قاله لنا القائد الذي نرى في مدرسته الفكرية والسياسية مدرسة الشعب والأمة، وهو أننا لا نستهين بأعدائنا، ولا نستخف بالتحديات الموجهة إلينا، ولا نستسهل الصعاب المحيطة بنا، ولكننا نعرف مصدر قوتنا، وموارد طاقتنا، وينابيع العطاء التي لا تنضب في شعبنا، ونتذكر كيف اختزل القائد الموقف كله في نص ناصع في وضوحه، وفي عمقه، وفي صدقه، وفي قدرته التعبيرية، وهو أن ثورتنا مستمرة، قوية، أمينة لأهدافها الاستراتيجية، ثابتة على المبدأ، قادرة على قبول التحدي، قوية على الصعاب، مستحيلة الأخذ على الأعداء، عزيزة بوحدتنا الوطنية، بجماهير شعبنا وأمتنا الأمينة على أهدافنا المصيرية.

(٥)

ثم نخطو خطوة أخيرة فنستعيد كيف أن الرجل والبطل والقائد الذي نقف جميعًا تحت أعلامه وراياته، لأنها أعلام الأمة وراياتها، يرى الحياة في رحابتها، والعالم في اتساعه، والحقيقة في تنوعها. يبتكر ولا يستعير. يجتهد ولا يحفظ عن ظهر قلب. يراجع ولا يتراجع. يقرأ في كتاب الحياة أكثر مما يقرأ في أي كتاب آخر. يجدد ولا يقلد. يتعامل مع الواقع المحسوس

والملموس. لا يصد نفسه عن تجارب الآخرين بالتعصب. يفتح عقله على العالم من حوله، يأخذ منه ما يفيد، ويدع ما لايفيد. لا يجمد الحياة والأفكار في قوالب مسبقة الصنع، ولا يقع تحت تأثير فكرة خاطئة وقع تحت تأثيرها البعض منا، وهو أن العالم محكوم بنموذج واحد ووحيد للتطور. عقله مصنوع من تراث الأمة وثقافتها وحضارتها وتجاربها وخبراتها، وفكر يمتلك ديناميية خاصة تجعله قادرًا على الاستقبال الذي يفيد ويضيف، بقدر قوته على الإرسال الذي يفعل ويؤثر.

ونسترجع كيف أن البطل يتعامل مع الحقائق بواقعية سياسية مدهشة، ولكنها الواقعية المقرونة بالمبدئية. وحين تقترن الواقعية بالمبدئية، فإنها تغدو واقعية المناضلين لا واقعية المستسلمين، إنها الواقعية التي لا تفرط في حق، ولا تتهاون في مبدأ، ولا تستهين بمصلحة وطنية أو قومية، ولا تساوم على قضايا المستقبل والمصير. إنها الواقعية التي تتعامل مع الواقع تعاملاً يفضي إلى تصحيحه وتنقيحه، إن لم نقل إلى تغييره وتبديله.

ونتذكر كيف أن البطل يضبط حركته على إيقاع التاريخ، ويسقط ما يجزئ لصالح ما يوحد، ويعدم ما يبعثر ويشتت لصالح ما يجمع ويكتل، ويهمل ما يشكك لصالح ما يؤكد، ويزيل ما يعيق لصالح ما يشق الطريق، ويتخلى عما هو عارض ومؤقت لصالح ماهو دائم وثابت ومستمر.

يحيط بالمشكلة في أبعادها، فهمًا وتحليلاً واستيعابًا، ويقرن ذلك بقدرة غير عادية على إعادة تركيب ما يمكن أن يكون قد تبعثر من صورة المشكلة وتشتت، تركيبًا يكون من شأنه جعل المشكلة قابلة للحل، لكنه الحل الذي يتمسك بالمبادئ، ويتشبث بالثوابت.

(٦)

ثم إن هناك المزيد مما يمكن أن نستعيد ونسترجع ونتذكر. نستطيع أن نستعيد شجاعة حافظ الأسد العاقلة، وحكمته الجسورة، ونستطيع أن نسترجع رؤيته الصافية، وبصيرته الثاقبة، وقراره الصائب، ونستطيع أن نتذكر خصاله القيادية، وسجاياه النضالية.

(٧)

نستعيد حسه السياسي السليم، ونظرته الاستراتيجية الشاملة، ونسترجع قدراته غير العادية، ومواهبه الاستثنائية، ونتذكر قدرته غير المحدودة على استيعاب المتغيرات، وقدرته الماثلة على الاستشفاف والاستكشاف.

(٨)

نستعيد إحلاله لسورية موقعها الريادي من أمتها العربية، بحيث غدت الحاضنة الطبيعية للقيم العربية والمثل القومية، والرافعة الأكثر فاعلية والأعمق تأثيرًا لكل ما من شأنه أن يصون الحق القومي، وأن يحصّن الإرادة العربية، ونسترجع كيف أن

سورية في ذهابها إلى مدريد، كانت منسجمة مع موقعها، وفية لتاريخها، متفاعلة مع دورها. لم تغفل عن حقيقة إسرائيل التي يقوم وجودها على هرم شاهق من الأكاذيب التاريخية، والأضاليل العقائدية، وعلى هرم مماثل من الأساطير الدينية الملفقة، والخرافات التوراتية المتهافتة. ولم تغب عنها حقيقة أن فلسفة إسرائيل هي فلسفة القوة الضريرة، وفلسفة الشعب المختار، وفلسفة الاغتصاب والقضم والتوسع والاحتلال.

ونتذكر كيف أن سورية في موقعها الصلب، لا المتصلب، وفي شدتها لا في تشددها، وفي تمسكها بالحق العربي، وفي دفاعها عن المصالح القومية، لا تتعامل مع الأوهام، وإنما تتعامل مع حقائق التاريخ ووقائع الجغرافيا، منطلقة من فهم عميق لطبيعة إسرائيل كيانًا ووجودًا وفلسفة وأوهامًا تاريخية وخرافات توارتية.

(٩)

هل هذا هو ما يمكن أن نستعيده ونسترجعه ونتذكره فقط، أم أن هناك مايزيد وما يضيف وما يفيض؟

هناك الكثير من المخزون الذي تستطيع الذاكرة أن تستعيده، لكن هذا الكثير الكثير لا تتسع له الكتب والمجلدات. فكيف لكلمات معدودات أن تنجز مالا تملك إنجازه الكتب والمجلدات؟. وكيف للجغرافيا الضيقة أن تتسع للزمان الرحيب؟. وكيف للمكان المحدود أن يستوعب الآفاق التي هي بغير حدود؟.

ومع ذلك، فإن محاولة من هذا القبيل، يكفيها أن تنجز القليل، لأن في هذا القليل، عند التمحيص والتدقيق، الكثير الكثير مما يمكن أن يروى ويذكر ويقال.

(١٠)

يكفينا أن نتذكر كيف كانت النشأة المبكرة، والبدايات الجنينية، لهذا المولود الجميل والنبيل الذي سرعان ما صلب عوده، واشتد ساعده، وبلغ سن الرشد.

(١١)

ويكفينا أن نتذكر كيف كان نهوض البطل إلى تحمل مسؤولياته الوطنية والقومية، وإلى التعبير عن لحظة تاريخية في مفصل رئيسي من مفاصل التاريخ الكبرى، وإلى تجسيد حقبة زمنية وقعت فيها تحولات كبرى، وسقطت دول عظمى، وانهارت حدود، وتوارت أيديولوجيات. ووقعت زلازل، وهبت أعاصير، وتدفقت مياه غزيرة تحت الجسر.

(١٢)

ويكفينا أن نتذكر كيف كان النشوء والارتقاء، وكيف كان الفعل والتأثير، وكيف كانت المواجهات والمجابهات، وكيف كان الانعتاق والانطلاق، وكيف كانت المجازفة المحسوبة، والإقدام المدروس، والقرار الموزون.

(١٣)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت الشجاعة العاقلة والحكمة الجسورة، وكيف كانت الرؤية الشاملة والنظرة النافذة والبصيرة الثاقبة، وكيف كانت الخصال القيادية والسجايا النضالية، وكيف كانت المواهب الاستثنائية والقدرات غير العادية، وكيف كانت القدرة الفريدة على التحليق في أجواء المستقبل، وكيف كانت المقدرة النادرة على اختراق الحجب وارتياد الآفاق.

(١٤)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت الفصاحة التي قلّ مثيلها، والبلاغة التي عزّ نظيرها، وكيف كان الارتقاء بالنص السياسي العربي إلى مستويات جديدة لم يبلغها من قبل، وكيف كان الانتقال بالخطاب السياسي العربي من حيث هو خطاب بائس ورث ومبتذل، إلى حيث ينبغي له أن يكون، خطابًا يجيد قراءة الواقع، ويحسن التعامل مع المتغيرات، ويتقن علم الاستقراء، تمامًا مثلما يتقن علم الحساب.

(١٥)

ويكفينا أن نتذكر كيف كان التمييز بين مملكة الطبيعة ومملكة الإنسان، وكيف كان التفريق بين الانهماك في النظرية بحثًا عن الحياة، والانهماك في الحياة بحثًا عن النظرية، وكيف كانت الاستجابة لضرورات الواقع، وكيف كان التجاوب مع مقتضيات التطور، وكيف كان التفاعل مع متطلبات العصر.

(١٦)

ويكفينا أن نتذكر كيف كان التطابق والتكامل بين دور صنعته الطبيعة، وبين دور صنعه الإنسان. أي بين دور سورية- التاريخ، وهو دور قائم بفعل التاريخ والجغرافيا والثقافة والموقع والموضع، وبين دور سورية- حافظ الأسد، وهو دور قائم بفعل الإرادة السياسية مجسدة في قائد تاريخي واستثنائي.

(١٧)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت المدرسة الفكرية والسياسية، الوطنية والقومية، الفريدة والرائدة، وكيف كان جلوسنا فوق مقاعدها، وقراءتنا لمفرداتها، وفهمنا لمصطلحاتها، والتزامنا بقيمها، وتمسكنا بمثُلها، وارتيادنا لآفاقها.

(١٨)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت الاستبصارات غير المسبوقة، والاكتشافات المبكرة، وكيف كان التمرد على الصيغ الجاهزة، والعصيان على النظريات المسبقة الصنع، وكيف كانت العودة إلى تراث الأمة وثقافتها وحضارتها، وكيف كان الحرص على مقدساتها، وكيف كان الإعلاء من شأن قيمها ومثلها العليا.

(١٩)

ويكفينا أن نتذكر كيف كان التمسك

بخصوصيتنا القومية، وشخصيتنا العربية، وكيف كان الامتثال لحقيقتنا الحضارية ومعتقداتنا الروحية، وكيف كان تجسيد ذلك في الفكر والممارسة، وفي النظرية والتطبيق، وفي القول والعمل، وفي التفكير والتدبير.

(٢٠)

ويكفينا أن نتذكر كيف كان الفهم الأصيل للديمقراطية، وكيف كان قوله، وهو دائمًا القول الفصل، إننا نريد أن نعيش حريتنا الحقيقية عبر صيغ تنبع من أرضنا وإرادة جماهيرنا، وكيف كان قوله إن هناك تلازمًا بين الحرية وممارساتها المسؤولة، وكيف كان قوله بأن صيغة الديمقراطية ليست سلعة تستورد من هذا البلد أو ذاك، وإنما هي الإطار الذي يمارس فيه المواطنون حقوقهم وواجباتهم وفق ظروفهم المرحلية، وكيف كان قوله إنه بسبب عدم تماثل المعطيات الثقافية والتراثية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بين شعوب العالم في أي وقت من الأوقات، لم تستطع أية صيغة ديمقراطية بعينها أن تفرض نفسها بقوتها أو بجاذبيتها على شعوب العالم في أي وقت على امتداد ماهو معروف من التاريخ الإنساني، وكيف كان قوله إن هناك ديمقراطية سياسية اجتماعية وديمقراطية اقتصادية، بل وديمقراطية دولية في الوقت نفسه.

(٢١)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت العودة إلى التاريخ والجغرافيا والحضارة والثقافة والتراث لتحديد خياراتنا الممكنة والمتاحة في رسم معالم الديمقراطية التي تتفق وتتوافق مع هذه الحقائق الثابتة والراسخة.

(٢٢)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت خصوصية التجربة الديمقراطية، وكيف كانت الخصوصية التي لا تنقل ولا تستعير، وكيف كانت الخصوصية التي لا تفتح الكتب المطبوعة وتحفظها عن ظهر قلب وتدير ظهرها لأكثر الكتب غنى وثراء وهو كتاب الحياة، وكيف كانت الخصوصية التي لا ترى بأن العالم محكوم بنموذج للتطور واحد ووحيد، وكيف كانت الخصوصية التي هي المحصلة الطبيعية لتجارب الشعوب وحكمتها وثقافتها وتراثها.

(٢٣)

ويكفينا أن نتذكر كيف كانت الجبهة الوطنية التقدمية، وكيف كانت مؤسساتها التنظيمية والقيادية، وكيف كان فعلها السياسي، وكيف كان قرارها الاستراتيجي، وكيف كانت هناك محاولات لإجهاض هذه التجربة المتقدمة والرائدة والتي وصفها صانعها ومهندسها ومبدعها ومبتكرها بأنها الإنجاز الأكثر أهمية من بين إنجازات هذه الحقبة من تاريخنا، وكيف تصدت الكثرة الكاثرة منا لمواجهة هذه المحاولات،

دفاعًا عن هذه التجربة العظيمة التي سبقنا بها عصرنا بعقدين من الزمن، والتي جسدنا من خلالها وحدتنا الوطنية، وحصّنا جبهتنا الداخلية، وكيف أمكن التعامل مع محاولات الإساءة إلى هذه الصيغة السياسية، ووحدة أحزابها، وتماسك تنظيماتها.

(٢٤)

ويكفينا أن نتذكر كيف أن حافظ الأسد، وحافظ الأسد بالتحديد وبالتعيين، وبالحتم وبالحسم، ولا أحد غيره على الإطلاق، هو الذي كرس هذه الصيغة، وهو الذي أفسح المجال أمامها، وهو الذي أزاح العثرات من طريقها، وهو الذي حرص على تعزيزها وتطويرها وإغنائها، وهو الذي حال دون محاولات العبث بها وبأحزابها، وهو الذي رأى هذه الصيغة السياسية المتقدمة، وهذا الاكتشاف المبكر، وذلك الاستبصار غير المسبوق، لا ينبغي لها جميعًا أن تفرز استطالات هامشية، ونتوءات غير طبيعية، وهو الذي رأى بأنه يتوجب علينا أن نبحث عما يضيف إلى حياتنا السياسية لا عما ينتقص منها، فكانت رؤيته هي الرؤية السديدة التي لاتجد في التعددية فوضى، ولا في الديمقراطية تبديدًا لطاقات الشعب وبعثرة لها، ولا في الحزبية تشتيتًا للقوى وإضعافًا لها، وكانت رؤيته هي الرؤية الصائبة التي تقرأ خارطة الوطن قراءة صحيحة ودقيقة.

(٢٥)

ويكفينا، قبل ذلك كله وبعده، أن نتذكر كيف كان القائد الخالد حافظ الأسد، وكيف كان تجسيدًا للأمة في رجل، واختزالاً لها في بطل، وتعبيرًا عنها في قائد تاريخي، وكيف كان الحافظ المقتدر لوجودنا القومي، وكيف كان الموئل والمثابة والملاذ لنا جميعًا، وكيف تحول إلى مرجعية قومية عليا نعود إليها ونتلقى في رحابها العبر المستخلصة والدروس المستفادة، ونتعلم منها كيف تكون الشجاعة عاقلة، وكيف تكون الحكمة جسورة، وكيف تكون الاستقامة والنزاهة، وكيف تكون العفة والطهارة، وكيف يكون الإبداع والابتكار، وكيف يكون العزم والعزيمة، وكيف تكون الإرادة الحرة والطليقة.

(٢٦)

يكفينا أن نتذكر كيف أنه، لم يعد هناك متسع من الوقت، أو فسحة من الزمان، للعذر أو الاعتذار، فالباصرة قد تصيبها لبعض الوقت، غشاوة تفقد معها القدرة على الرؤية الصحيحة والسليمة، والبصيرة قد تخسر، لفترة من الزمن، القدرة على ممارسة ما جبلت عليه، وما خلقت من أجله. لكن هذه الحقبة من تاريخنا، لا تبقي متسعًا لعذر أو معتذر، ولا فسحة لتسويغ أو مسوّغ، ولا وقتًا لضال أو مضلل، فالحقيقة ناصعة في وضوحها، والحق باهر في جلائه، والباطل أضعف من أن يقتحم العقول، أو يكتسح القناعات، فالباطل، بطبعه وطبيعته، ضعيف، وفي

النهاية لا يصح إلا الصحيح.

(٢٧)

يكفينا أن نتذكر كيف واجهت هذه الحقبة من تاريخنا ما واجهت، وجابهت ما جابهت. لقد واجهت أشكالاً شتى من الهرطقة الفكرية، وجابهت ألوانًا متعددة من الزندقة السياسية.

ومنذ بداياتها المبكرة، خاضت غمار المعارك الكبرى، والحروب العظمى. قبلت التحديات، وتعاملت التعامل المناسب مع الافتراء والمفترين، ومع الضلال والمضلّلين، ومع الردة والمرتدين، ومع التآمر والمتآمرين. ظلت وفية لمبادئها، أمينة على قناعاتها، مخلصة لمنطلقاتها، منسجمة مع ذاتها. فكيف لباصرة أن لا تبصر، وكيف لبصيرة أن لا تتبصر؟

(٢٨)

ويكفينا أن نتذكر كيف أنها فعلت فعلها الحاسم. قرأت التاريخ فأحسنت القراءة، وحددت معالم الحاضر فأتقنت التحديد، واستكشفت آفاق المستقبل فأجادت الاستكشاف. أدركت موقع سورية من أمتها العربية، ومن العالم من حولها، فكان هذا الإدراك إدراكًا للصلة الوشيجة والوثيقة بين السياسة والجغرافيا، وبين المكان والزمان. اكتشفت قدرات سورية الذاتية وأضافت إليها. وضعت يدها على مفاصل القوة وزادت عليها. أمعنت النظر جيدًا في الخارطة السياسية وتعاملت معها. دققت مليًا في العالم من حولها وفي تضاريسه التاريخية والجغرافية فاكتشفت الحقائق السياسية. عرفت أن القوة وحدها لا تكفي، فالإرادة تفعل فعلها في هذا المجال، فعمدت إلى تعزيز هذه الإرادة وتوطيد أركانها، وقالت قولتها الشهيرة بأن الأرض قابلة للاحتلال وقابلة للاستعادة، لكن المهم هو أن تظل الإرادة حرة وطليقة. حفظت عن ظهر قلب الحقيقة القائلة إن الإنسان هو الأساس في كل بناء فسعت، ما وسعها السعي، إلى بناء هذا الإنسان وإلى استيلاده من جديد.

(٢٩)

ويكفينا أن نتذكر كيف أنها اكتشفت واستكشفت. اكتشفت بأن لكل أمة خصوصيتها القومية، فاستكشفت خصوصية الأمة العربية، فكان هذا الاستكشاف إيذانًا بفتوحات فكرية غير مسبوقة. رفضت النظريات الجاهزة، وأهملت الأفكار المسبقة الصنع. انهمكت في الحياة بحثًا عن النظرية. امتنعت عن استعارة أفكار الآخرين، وتمنعت على محاولات الغزو الفكري والثقافي التي كان يراد منها تحويل الحركة إلى صورة طبق الأصل عن نماذج للتطور قد تكون صالحة لمجتمع من المجتمعات، لكنها ليست بالضرورة صالحة لكل المجتمعات.

قرأت في كتاب الحياة، ووجدت أن الحياة أشد اتساعًا من أية نظرية جاهزة،

وأكثر رحابة من أية فكرة معلبة. حلَّت خصوصيتنا القومية، فتوصلت إلى استنتاج مفاده أن نموذج التطور في هذا البلد أو ذاك ليس بالضرورة هو النموذج القابل للاقتداء، وأن نظام ممارسة الحرية في بلد من البلدان ليس بالضرورة هو النظام الجدير بالاحتذاء، وأن الديمقراطية ليست نصوصًا مقدسة في كتاب هبط علينا من السماء، وإنما الديمقراطية وأساليب ممارساتها هي المحصلة الطبيعية لتجارب الشعوب وخبراتها وتاريخها وثقافتها وتراثها وحضارتها، وأنه ليس هناك نموذج واحد ووحيد لمثل هذه الممارسة.

(٣٠)

ويكفينا أن نتذكر كيف أنها رصدت إيقاع التاريخ، وضبطت وقع خطاها على وقع خطى التاريخ، دون أن تتحول إلى مجرد ترس في آلة التاريخ الكبرى. حلقت في آفاق المستقبل دون أن تغادر الواقع، وارتادت الأماكن البعيدة والشاسعة دون أن تنسى مهدها الذي ولدت فيه، ولا موقعها الذي انطلقت منه. قرأت المتغيرات في العالم من حولها، لكنها رأت في هذه المتغيرات مجرد لحظة في سياق التاريخ. تعاملت مع هذه المتغيرات من منطلق الحرص على المصالح الوطنية والقومية العليا، دون أن تستسلم إلى أية أوهام. درست هذه المتغيرات دراسة فاحصة ومدققة، وتوصلت إلى أننا أمام وضع عالمي جديد، وليس أمام نظام عالمي جديد.

فالنظام العالمي الجديد يحتاج إلى مخاضات أخرى كي يأخذ طريقه إلى التشكل في صورته النهائية. والفارق بين الوضع وبين النظام فارق كبير. استبصرت المستقبل، وكانت لها نبوءتها الخاصة التي لم يسبقها إليها أحد، لذلك فقد نبهت وحذرت وقرعت نواقيس الخطر حين كان الآخرون عاجزون عن امتلاك القدرة على الإصغاء إلى نبض الواقع وحركته واتجاهاته. سمعت جيدًا دوي الزلزال وهو مازال بعد في بداياته الجنينية، ورصدت حركته رصدًا محكمًا، فأمكن لها أن تتعامل مع المتغيرات وحقائقها التعامل المناسب والملائم.

(٣١)

ويكفينا أن نتذكر كيف أنها نادت بالسلام العادل والشامل، وباعتماد مبادئ الشرعية الدولية، وبتنفيذ قرارات الأمم المتحدة، وباستعادة الأرض كاملة غير منقوصة، وبإحقاق الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني، وبتحكيم معيار واحد في التعامل مع الدول، وبالامتناع عن الكيل بمكيالين، وذهبت إلى مؤتمر السلام في مدريد وفق مبادئ واضحة لا تحتمل أي لبس أو تأويل، وثابرت على موقفها المعزز والمدعم بتأييد شعبها وأمتها العربية.

(٣٢)

ويكفينا أن نتذكر كيف أنها أعلت من

شأن الوحدة العربية، وليس من أحد غير قائدها العظيم هو الذي قال بأنه ليس بين أهداف النضال العربي هدف يتعرض لغارات الأعداء كهدف الوحدة العربية. وليس من أحد غير قائدها الكبير هو الذي وصف الوحدة العربية بأنها الغاسل الجذري لكل الرواسب العفنة التي تعيق مسيرة أمتنا. وأدركت بأن الوحدة هي من المحظورات «الممنوعات الدولية، لكن ذلك لم يدعها تستسلم لليأس، منطلقة في ذلك من أن الإرادة تستطيع أن تقهر التحديات، وأن الإنسان الحر والطليق يستطيع أن يتعامل مع جميع الظروف المحيطة به، فمضت بعيداً في محاولاتها النبيلة لتحقيق المشروع القومي العظيم للأمة العربية. قرأت واقع الأمة العربية قراءة صحيحة، ووجدت أن الوحدة كهدف استراتيجي قد يكون بعيد المنال، فعمدت إلى استحضار هدف تكتيكي يمكن أن يعوض، بهذا القدر أو ذاك، ولفترة محددة من الزمن، عن الهدف الاستراتيجي العظيم. هذا الهدف التكتيكي الذي لا يتعارض ولا يتناقض مع الهدف الاستراتيجي هو التضامن العربي، ولا بأس هنا من إضافة صفة لازمة لهذا التضامن وهي صفة الفعّال. درست خارطة الوطن العربي دراسة عميقة، وتوصلت إلى أن هناك واجباً قومياً ينبغي لسورية أن تؤديه بحكم الموقع والموضع، وبحكم التاريخ والجغرافيا، وبحكم الالتزام والانتماء، فنهضت إلى تأدية هذا الواجب، وكان المثال اللبناني هو المثال الأكثر وضوحاً والأشد تعبيراً عن الدور السوري، الذاتي والموضوعي، الوطني والقومي، وهو دور صنعته الطبيعة، تماماً مثلما صنعه الإنسان.

(٣٣)

ويكفينا أن نتذكر كيف أنها سبقت عصرها، وسابقت زمانها، فكانت اكتشافاتها المبكرة، وصيغتها المبتكرة، وأساليب عملها الفريدة والرائدة، ومؤسساتها السياسية المتقدمة. كانت التعددية الحزبية والسياسية، وكانت الجبهة الوطنية التقدمية، وقبل هذه وتلك وبعدهما، كانت الوحدة الوطنية التي ماكان لهذا الصرح الشاهق من الإنجازات المادية والسياسية الكبرى أن يظل شاهقاً دون هذه الوحدة الوطنية التي يجسد حافظ الأسد معادلها الموضوعي أفضل تجسيد.

(٣٤)

ونضيف إلى ذلك كله كلاماً آخر هو أن هناك الكثير الكثير مما يمكن أن يعاد ويستعاد، وهناك الكثير الكثير مما يمكن أن يروى ويقال، وهناك الكثير الكثير مما يمكن أن تطلقه الحافظة وتحرره الذاكرة التي اعتادت، بين وقت وآخر، على ممارسة عادة غير مستساغة، إن لم نفصح أكثر فنقول إنها عادة مرذولة، وهي عادة النسيان التي إذا أصابت أمة من الأمم، أفقدتها ذاكرتها السياسية. وحين تفقد

الأمة ذاكرتها السياسية، فإن كل شيء يغدو مباحًا مستباحًا، بحيث تنقلب الموازين، وتختل المعايير، الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى خلل خطير يصيب قيم الأمة ومثلها العليا، وهو أمر لاينبغي له أن يجد الأبواب أمامه مفتوحة، ولا الطرق سالكة، ولا الدروب سهلة العبور والمرور، وتلكم هي مسؤوليتنا جميعًا، ولا يعفيّن أحد نفسه من هذه المسؤولية، فالوطن وطننا، والثورة ثورتنا، والتاريخ تاريخنا، وما صنعناه عبر هذه الحقبة المديدة من حياتنا الوطنية والقومية، لا يمكن أن يطويه النسيان، ولا أن يتسرب من الذاكرة في لحظة هي لحظة الفصل ولحظة الحسم ولحظة القرار الذي سوف يكون من شأنه أن يحدد المآل، وأن يرسم المصير.

(٣٥)

ثم إنه ينبغي لحافظتنا أن تطلق الحقيقة التي يحاول البعض تقييدها بالأصفاد والأغلال، وهي أنه برغم كل الأخطار والمخاطر، وبرغم كل العقبات والعثرات، وبرغم كل الصعوبات والمشقات، فإن هذه الحقبة من تاريخنا كانت حقبة حافلة بكل ما من شأنه أن يجعلنا نفخر ونفاخر دون استعلاء، وأن نعتز ونتباهى دون غرور. إنها الحقبة التي صنعت من سورية دولة بمعنى الكلمة، قادرة ومقتدرة، فاعلة ومؤثرة، في يدها مفاتيح الحل والربط، وعلى لسانها صوت الشعب والأمة، وفي عقلها المفكر والمدبر رؤية شاملة، واستراتيجية متكاملة، ونظرة نافذة، وبصيرة ثاقبة، وقدرة غير محدودة على الإمساك بما هو ثابت، وإطلاق سراح ماهو متغير ومتبدل. لكن السؤال الذي يسبق كل الأسئلة، والتساؤل الذي يتقدم على جميع التساؤلات هو: أية سورية هذه التي صنعتها هذه الحقبة من تاريخنا؟ لكن الجواب سرعان ما ينطلق كالسهم صوب هدفه: إنها بالتحديد وبالتعيين، وبالقول الفصل الذي ليس بعده أي قول، سورية القائد الخالد حافظ الأسد.

(٣٦)

وحين نتحدث عن عظيم الأمة، وفارسها الذي لا تلين له قناة، ولا يشق له غبار، وقائدها الذي تنحني له الرؤوس الكبيرة إجلالاً وإكبارًا واحترامًا، ومعلّمها الذي صنع لسورية هذا الدور، فإنما نتحدث عن الرجل الذي أدرك وظيفة التاريخ في صياغة المستقبل، والذي استوعب دور الجغرافيا في صنع القرار السياسي، والذي فهم أهمية الثقافة والحضارة والتراث في ترسيخ القيم الشريفة والنبيلة، والذي تيقظ دائمًا للحقيقة القائلة إن الخصوصية القومية هي التي تفعل فعلها الحاسم في اختيار النظام السياسي الملائم، والذي تنبه، ونبه في الوقت نفسه، إلى أن تجارب الأمم ليست قابلة للإعارة والاستعارة، ولا هي قابلة للإعادة والاستعادة، لأنها تجارب أملتها الخصوصية القومية لهذه الأمم،

ولأنها تجارب صنعتها لحظة تاريخية مناسبة ليست، بالحتم وبالحسم، اللحظة التاريخية التي تمر بها أمتنا العربية، والذي رأى دائمًا بأن الأفكار التي تولد في القطب الشمالي سرعان ما تذوب وتتبخر عندما تنتقل إلى خط الاستواء، والذي استقرأ حقيقة أن العامل القومي هو العامل الأكثر فعلاً وحسمًا في حركة التاريخ.

(٣٧)

إننا نتحدث عن المعلم الكبير الذي أقام في حياتنا الوطنية والقومية، مدرسته الفكرية والسياسية الكبرى التي أصبحت بحق المدرسة التي نجلس في مقاعدها، ونتلقى فيها دروسًا تساعدنا على الارتقاء بأنفسنا إلى المستوى الذي يجعلنا قادرين على تحسين أداتنا، وتطوير وسائلنا، وتفعيل دورنا، لأننا، ونتولها بكل الصدق والأمانة، وبكل النزاهة والاستقامة، نريد لأنفسنا أن نكون عونًا لهذا المعلم الكبير، لا أن نكون عبئًا عليه.

(٣٨)

إننا نتحدث عن القائد الذي سبق عصره فكان فعله في حياتنا وعالمنا فعلاً غير مسبوق. اجتهد فأحسن الاجتهاد، وقرأ الخارطة السياسية فكانت قراءته القراءة الصحيحة والسليمة، العميقة والأصيلة، وعاد إلى التاريخ فكانت عودته استحضارًا لماضي الأمة وثقافتها وحضارتها وتراثها، وتطلع إلى المستقبل فكان تطلعه استشفافًا مبكرًا واستكشافًا مبتكرًا، وارتاد الآفاق البعيدة فكان ارتياده إطلالة على المجهول الذي غدا معلومًا، وعلى المبهم الذي أصبح واضحًا، واستبصر فكان استبصاره استجلاء لمعالم الغد، واستيضاحًا لخارطة المستقبل بكل تضاريسها الدقيقة والمعقدة.

(٣٩)

إننا نتحدث عن العقل المفكر والمدبر الذي قال، ومنذ البدايات المبكرة، كلامًا جديرًا، في هذه اللحظة التاريخية بالذات، أن نعيده ونستعيده.

أليس هو القائل أن العلم يُدين، وبشكل صارخ، المراهقة الفكرية، لأنها تعطل النضال الوطني، وتجمد طاقاته؟

أليس هو القائل أن الاشتراكية ليست قالبًا جاهزًا نأخذه ونطبقه في كل مكان، وإنما هي نظام عمل يجب أن يتلاءم مع ظروف البلد، معنويًا وماديًا وتاريخيًا؟

أليس هو القائل إن بعضهم يفهم أن الاشتراكية هي القضاء على الجهد الفردي، وأن تكون بنطالات الرجال كلها من صنف واحد؟

أليس هو القائل إننا نحرص على قيمنا الروحية، وتراثنا القومي التاريخي، ونؤكد عليها لأنها أساس مجتمعنا وحياتنا؟

أليس هو القائل إننا سنظل ندافع عن قيمنا التاريخية، وعن تراثنا الروحي

التاريخي؟

(٤٠)

ولا يذهبن الظن بأحد منا إلى أن العقل المفكر والمدبر قد قال هذا الكلام في عالم يشهد متغيرات كبرى، ومتحولات كثيرة، بل وخطيرة في الوقت نفسه. فالحقيقة، كل الحقيقة، هي أن هذا الكلام قد قيل قبل سنوات طويلة حين كانت الحركة التصحيحية ما تزال في بداياتها الجنينية، وحين كانت المراهقة الفكرية هي التي تستولي على عقول الكثيرين منا، وحين كانت الهرطقة السياسية هي التي تملك اليد الطولى في حياتنا الوطنية، وحين كان فكرنا السياسي محكومًا بجملة مؤثرات، تؤثر القول على العمل، وتعلي من شأن الثرثرة اللفظية على حساب الفعل الخلاق، وتكتفي برفع الشعارات بدلاً من التعامل مع الحقائق، وتنهمك في النظرية بحثًا عن الحياة بدلاً من الانهماك في الحياة بحثًا عن النظرية، وتوزع شهادات حسن السلوك على من يستجيب لها ويتجاوب معها، وتحجب هذه الشهادات عمن لا يستجيب ولا يتجاوب، وتمنح صكوك الغفران لكل من يتحول إلى ببغاء ثرثار يردد ما يقال، ويعيد ما يسمع، وتمنع هذه الصكوك عمن يرفض الاستلاب والاغتراب، ويتمنع على محاولات التطويع الفكري والترويض العقائدي.

(٤١)

إننا نتحدث عن هذه الموهبة الاستثنائية، والقدرة غير العادية، التي صنعت، في جملة ما صنعت، هذه الوحدة الوطنية التي استعصت على محاولات الإساءة إليها، والتي تمنعت على الجهود التي بذلت من أجل تمزيقها وتفتيتها. إنها الموهبة التي اكتشفت لعملنا السياسي صيغة متقدمة ومتطورة هي الأولى من نوعها، وأعني بها صيغة الجبهة الوطنية التقدمية، وهي القدرة التي استكشفت مخاطر التفرد والانفراد، واستبصرت أهمية التعدد والتنوع، فكانت تلك التعددية الحزبية والسياسية، بل والاقتصادية معها، وفي الوقت نفسه وهي التعددية التي ارتقت بممارستنا للديمقراطية إلى مستويات لم نبلغها من قبل، لكنها الديمقراطية غير المستعارة، وغير المنقولة. إنها الديمقراطية الصاعدة من قلب التاريخ والثقافة والحضارة والتراث، وهي الديمقراطية التي عبّر عنها عظيم الأمة أفضل تعبير حين قال إننا نريد أن نعيش حريتنا الحقيقية عبر صيغ تنبع من أرضنا وإرادة جماهيرنا، تعمق وحدتنا الوطنية، تجذر الغيرة الوطنية، تعزز مصالح الشعب، تفجر إبداعاته وتزيد من طاقاته، نفيد في صيغنا من تجارب الآخرين، ولا ننسخ عن الآخرين.

(٤٢)

إننا نتحدث عن صانع هذه الصيغة

المبتكرة، وعن مهندسها، وعن مبدعها. وحين نتحدث عن ذلك كله، فإنما نتحدث عن الرجل الكبير الذي يصون هذه الصيغة من محاولات العبث بها، والذي يحميها من محاولات الانتقاص من شأن الأحزاب المشاركة فيها، والذي يحصنها من مخاطر النزعة الانقسامية والانشطارية التي يحاول البعض ترويجها وتسويقها وتعميمها، تماماً مثلما يحاول هذا البعض اصطناع نتوءات غير طبيعية، هي في الأصل والأساس حالات أفرزتها تلك النزعة الانقسامية والانشطارية التي تشكل إساءة بالغة إلى أحزاب الجبهة وحياتها التنظيمية الداخلية. إن الذين حاولوا الإساءة إلى هذه الحقبة الذهبية من تاريخنا الوطني، باسم الديمقراطية تارة، وباسم التعددية السياسية تارة أخرى، وباسم الرأي الآخر وما إلى ذلك من مسميات تارة ثالثة، لا يحق لهم شرف الانتساب والانتماء إلى هذه الصيغة السياسية المبتكرة التي قدمها إلى فكرنا السياسي، وإلى حياتنا السياسية في الوقت نفسه، القائد والمعلم حافظ الأسد.

(٤٣)

ذلكم هو جزء يسير يسير مما يمكن لذاكرتنا أن تستعيده وتسترجعه وتتذكره، لكنه الجزء الذي لا يغني عن الكل، ففي هذا الكل الكثير الكثير مما يمكن أن يكتب ويقال.

وفي ذلك كله فليتنافس المتنافسون.

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد..

قائد تاريخي في مرحلة صعبة

المهندس غسان عبد العزيز عثمان
الأمين العام لحركة الاشتراكيين العرب

إذا كانت الذكرى هي إعادة استذكار وتبصر بحقائق جليلة وعظيمة، تستلهم الشعوب منها الحافز والعزيمة لمواصلة التفاعل مع حركة التاريخ، فإن رحيل القائد الخالد حافظ الأسد - في ذكراه الثالثة - وعلى الرغم مما نسجه من أحزان وطنية وقومية لفقدان رجل قدّر له أن يشهد أحد أهم فصول التاريخ العربي الحديث، وأن يشارك في صنع صفحات كبيرة منه، وأن يسجل في الذاكرة العربية والوجدان القومي، مرحلة اتسمت بالعنفوان والصلابة والصمود، سيظل مناسبة لاستنباط المعاني والأفكار، ذلك أن عظمة هذا القائد وعظمة وأهمية المرحلة التي قاد من

خلالها سوريا إلى الاستقرار وامتلاك حرية القرار، تعود إلى حقائق ثلاث. أولها: أنها مرحلة تخلقت ونهضت على أنقاض هزيمة عسكرية هي هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ إذ كانت الأوضاع تتطلب حالة نوعية من النهوض القومي العربي لمواجهة تحدي الهزيمة وما ترتب عليه من مخاطر وتداعيات، ثانيها: أنها مرحلة لم يكن العرب فيها قد امتلكوا أسباب القوة الكفيلة لمواجهة عدوان بهذا الحجم تدعمه قوة عظمى ويفوق بنمطه الاستعماري وطبيعته وأهدافه كل ما سبق وأن عرفوه في تاريخهم من أشكال الغزو والاحتلال، ثالثها: أنها مرحلة تصدى فيها القائد الخالد حافظ الأسد لمهام صعبة، حيث تمكن أن يقلب الصورة ويحول اليأس والإحباط القومي إلى عزيمة تتقد بزغ من خلالها الأمل في تسطير تاريخ جديد يثبت للعالم أن الأمة التي شهد التاريخ على إسهاماتها في صنع الحضارة الإنسانية، وقدرتها على حماية كيانها والدفاع عن وجودها أمام رياح الغزو والأطماع الاستعمارية، قادرة على تجديد قوتها واستعادة دورها والتصدي للمخاطر أيًا كان مصدرها.

وانطلاقًا من هذه الحقائق الثلاث، عمل وناضل القائد الخالد لمرحلة نوعية،حملت عناوين كبيرة، اتسمت في أجزاء هامة منها بشخصه الفذ، كرجل اجتمعت لديه كل مواصفات القائد التاريخ السياسي والحكيم والجريء والشجاع.

وقد ركز في أولويات برنامجه الوطني، على إعادة تجنيد وتنظيم طاقات الشعب لتوجيهها نحو عملية بناء داخلية بعيدًا عن الشعارات، تشكل مرتكزًا لعمل نهضوي يؤدي في المحصلة إلى وجود دولة قوية حصينة، لديها القدرة على الخوض في غمار المواجهة، والمشاركة في صنع أوضاع عربية جديدة تمنح الأمة توازنها ومكانها على الخارطة السياسية للعالم. ولذلك كان على القائد الخالد أن يعمل منذ بداية التصحيح على اتجاهين رئيسيين:

الاتجاه الأول: بناء دولة حديثة انطلاقًا من قاعدة أن هذا البناء لا يمكن أن يتحقق إلا بجهود منظمة يعرف فيها كل مواطن دوره، وفي هذا السياق بدأت التنظيمات السياسية والشعبية تأخذ دورها على هذا الصعيد، وأمكن فيما بعد من تدشين أول تحالف حقيقي للقوى الوطنية عبر إضافة رائدة تعكس التعددية الحزبية والسياسية، ترجمها ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية ونظامها الأساسي، فانتقل دور الوطنية التقدمية من التناقض والخلل في

عمليتي الأداء والمشاركة، إلى التحالف حول قواسم وأهداف مشتركة وأولويات واحدة.وقد كان الرئيس الراحل شديد الحرص على أن يتفرد كل حزب بخصوصيته وبمبادرته، وينشط في إطار تفاعلات مفتوحة لا تحدها سوى مصلحة الوطن العليا، ولذلك أصبحت التعددية حقيقة ملموسة وعميقة في جذور حياتنا، وقد أسهمت على نحو فاعل في تمتين جبهة داخلية، حصينة، عصية على الاختراق، لم تعصف بها نتائج المتغيرات الدولية بل حافظت على استقرارها وأمنها، وحمت نفسها من أية اختراقات كان من الممكن أن تتأثر بها أو تؤثر في قوتها وصلابتها.

ومثلما كان بناء الدولة الحديثة يتطلب وجود قوى حزبية فاعلة ومؤثرة، تدير الحياة السياسية، وتوجهها وفق حالة وطنية متقدمة، كان البناء يتطلب أيضًا وجود دستور دائم يضمن أدوار السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويحافظ على استقلاليتها، ويمهد الطريق أمام ديمقراطية واعية ومسؤولة تعزز حرية اختيار المواطنين لممثليهم إلى مجلس الشعب ومجالس الإدارة المحلية.

الاتجاه الثاني: بناء منظومة علاقات عربية، تربط بين البعدين الوطني والقومي، إذ كان الرئيس الراحل يرى أن قوة سورية هي قوة للأمة العربية، وأن الوضع العربي السليم هو قوة لسورية، وأن أي تجاوز لنقاط الضعف في الجسد العربي لابد أن يمر عن طريق الوحدة،لأن تكامل الإمكانات والثروات والقدرات من شأنه أن يخلق قوة تملك الأدوات اللازمة لصياغة واقع قادر على مواجهة التحديات القائمة بأشكالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة. وإذا كانت الظروف العربية والإقليمية والدولية، التي تشكلت عقب فترة مظلمة حالكة هيمنت على الواقع العربي نتيجة الاحتلالات العسكرية الأجنبية، لم تسمح بتحقيق هكذا حلم فليس ثمة ما يمنع - كما كان يرى القائد الخالد - من وجود تضامن عربي، وتنسيق عربي، وعمل مشترك، يقوض حالات التشرذم والتفتت والتشتت، طالما أن القوى الاستعمارية تستهدف العرب كأمة، وكوجود، وككيان، وهوية.

لقد أثبتت حرب تشرين التحريرية، في ميادين النضال والشرف والرجولة، أهمية العمل العربي المشترك، وأهمية التضامن العربي، في قلب معادلات الصراع، وإسقاط العديد من النظريات، والخروج بحقائق جديدة تثبت قدرة الإنسان العربي على التعامل

مع أعقد تقنيات العلم ونظريات المعرفة وتطبيقاتها العملية، ومن ثم تحقيق التفوق وحسم رهان الانتصار بقوة الإيمان والعقيدة والإرادة الصلبة.

وقد انتصر حافظ الأسد عبر نضاله في كلا الاتجاهين المذكورين، وحقق حلمه في بناء دولة قوية مهابة، تربطها علاقات متينة مع الدول العربية والأجنبية الصديقة، وعكس حلمه هذا على مساحات شاسعة من سورية، شهدت معظمها عملية نهوض وتطوير وتنمية وخدمات أساسية، بالإضافة إلى نقله اقتصادية تجاوزت الندرة إلى الوفرة، شاركت في صنعها مختلف طبقات المجتمع، وقطاعاته العامة والمشتركة والخاصة.

وأصبحت سورية عبر مدّة قياسية، من الدول الهامة والمؤثرة في المنطقة، ودخلت معادلات الحرب والسلام بحيوية، حافظت من خلالها على مبادئها الوطنية وثوابتها القومية، جعلت من القضية الفلسطينية قضية مركزية لا مساومة عليها، كما كان للرئيس الأسد الفضل في صنع الانتصار الكبير الذي حققته المقاومة الوطنية اللبنانية في الجنوب المحتل، عندما دحرت القوات الإسرائيلية ودفعتها باتجاه الانسحاب، واحتفل العرب جميعًا بعودة الأراضي العربية اللبنانية إلى الدولة اللبنانية بعد سنوات من الاحتلال الإسرائيلي لها.

لقد عزز الرئيس الراحل نهج المقاومة بتمسكه بمنظومة من المبادئ والقيم التي استخلصها من تراثنا الديني والعقائدي والحضاري، كان السمة البارزة لسياسة امتدت عبر ثلاثة عقود، ترفض الاستسلام والذل والخنوع لإرادة المستعمر والقوى الداعمة له. ولذلك بقي حتى رحيله، يقاتل ويصارع ويصد الهجمات المعادية بعنفوان كبير وإرادة وحزم وصلابة لا تلين، واستطاع أن يفرض شروطه في مفاوضات السلام، وأن يعلن فشلها أيضًا عندما وجد أن المفاوضات سوف تؤدي إلى نتيجة منقوصة لا تحقق الهدف والغاية التي عقدت من أجلها.

وإذا كانت فاجعة «الرحيل» قد هزت وجدان شعبنا وأمتنا، إذ خسر العرب برحيل «الأسد» قائدًا فذًا.. وسياسيًا بارعًا.. ومناضلاً صلبًا يصعب كسره، إلا أن تمسك الجماهير بنهج الأسد ومبادئه العظيمة، دفعها دون انتظار لمبايعة الرئيس بشار الأسد، ومتابعة المسيرة التي بدأها الراحل، عبر تواصل وتكامل ونهج واضح وصريح تستكمل فيه سورية بناءها الداخلي وفق احتياجات العصر ومتطلبات الحداثة والتطوير.

لا نضيف جديدًا.. إذا قلنا بأن الرئيس بشار الأسد، الذي خرج من مدرسة الأسد الوطنية، كان على تماس مباشر برهانات الواقع واستحقاقات المرحلة، فقد استطاع عبر المنهج العملي الذي طرحه في خطاب القسم لتطوير وتحديث البلد، أن يرسم ملامح مشروع نهضوي وتنويري، فتح المجال رحبًا أمام قراءة علمية لتفاعلات المجتمع ومعالجة مشكلاته الواقعية،والتعامل بموضوعية مع المتغيرات الإقليمية والدولية، والتحولات التي شهدها العالم خلال السنوات العشر الأخيرة.

لقد طرح الرئيس بشار الأسد منهج عمل مؤسسي، يندرج في إطار إعادة صياغة الواقع، من الزاوية التي تفرضها الحداثة وتفرضها احتياجاتها في المجتمع السوري المتواصلة، على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد كان البناء الضخم والإنجازات التي شهدتها سورية، بحاجة على الدوام إلى مزيد من الركائز التي تحميها وتعمق أكثرها مع مسيرة الزمن، وقد أدرك الرئيس الأسد هذه الحقيقة، وأطلق مشروعه الوطني التطويري انسجامًا مع ما تتطلبه هذه الإنجازات من تحديث يضعها على قدم المساواة مع أية إنجازات تشهدها الدول المتقدمة.

وكانت خطواته الملموسة لتعزيز أواصر الوحدة الوطنية وتعزيز دور الأحزاب السياسية في عملية البناء إلى جانب حزب البعث العربي الاشتراكي وتفعيل دور الجبهة الوطنية التقدمية ، وتحديث إطارها المؤسسي ، ودفعها خطوات باتجاه الأمام ، إنما تشكل استجابة واضحة لمتطلبات المستقبل ، واحتياجات عملية الإصلاح الراهنة ، والنهوض بعملية التنمية ، وفق رؤى علمية متطورة ، تملك الفكر والأداء المناسبين لترجمتها إلى وقائع حياتية ومجتمعية فعلية .

وقد تزامنت هذه الخطوات مع خطوات أخرى ، استحوذت على ضمير الشعب ، وعززت ثقة الأمة بقدراتها على تجاوز الصعوبات والانتصار على الواقع ، في عملية تفاعل عميقة وشاملة ، سوف تعكس آثارها الإيجابية على مجمل الحياة السياسية والاجتماعية في سورية .

ذكرى رحيل القائد الخالد حافظ الأسد ، هي ذكرى مشروعية مواصلة الحلم العظيم الذي قضى لأجله حياته ، وهو الحلم الذي تتخلق فيه سورية ، كدولة ، قادرة على تطوير نفسها وحماية قرارها ، بآلية كنا وما زلنا نعمل لكي نمتلك الطريق إليها عبر العقود التي مضت.

جذوة الشمس لن تغيب

د. فاروق أبو الشامات

عضو القيادة القطرية

ما كنت أصدق انني في يوم من الأيام سأتمكن من الإمساك بقلمي الراعش، لأخط كلمات في ذكرى رحيل عظيم الأمة، سيد الوطن والرجال القائد الخالد حافظ الأسد، وأحمل ريشتي المضطربة للتحدث عنه ورثاءه.. ولكن القدر إذا حل، والقضاء إذا نزل فما للقلوب المفجوعة الثكلى إلا التسليم به والرضا الكامل بما يقدر الله ويفعل.

لقد وقفت الكلمات عاجزة عن وصف الحزن الذي حلّ بالوطن بعد فجيعة كانت أعظم من تحملنا وأكبر من تصورنا.. واحتبست المفردات بذهول عن ترجمة صدى ما حلّ بنا من تفجع عميق يحفر مسارب الروح ألمًا وحزنًا. لقد كان يوم الجمر الذي تشظى، فحرق القلب والروح.. يوم الحزن الشديد والأسف العميق، يوم الحزن الوطني على فقد العزيز الغالي.. ذلك النقي.. الذي نسجنا من دمائنا خيوط الحروف التي رسمت أوجاعنا لوعة عليه واستيقظت في عروقنا رغبة النزيف.. وفي أرواحنا صورة البكاء وآيات الدموع.. ولكن! ماالذي نخدع به أنفسنا من العزاء وقد جل المصاب وهانت في وشاحه الدامي الكلمات.

وكيفُ تكتب المراثي وقد عجز اللسان وجف القلم، وغصت الكلمات في الحناجر وجفت الدموع في المآقي.. إنَّها المصيبة التي يقوى فيها الندب والرثاء، بل إن حزن العالم كله لم يكن ليكفي لمواساتنا بغياب سيد الأمة.. الأسد الغالي.. نفحة الزهور في البراري، وردة الشام المتفتحة التي طالما نفحت بأريجها نسائم عطرية ملأت الوطن.

لقد عرفناه فاضلاً حميدًا محمودًا، مستقيمًا كالشعاع الذي لا يعرف الالتواء.. لقد ناديناه، فلم يجب النداء هو من اعتدناه ملبيًا لكل نداء.. وبذا استحال نداء قلوبنا الكسيرة نشيجًا غصت به الحناجر.. ولكن هل تخبو جذوة الشمس، صحيح أن المصاب جلل والفاجعة عظيمة، والحزن مر في ناصية دمشق، وفي سفوح قاسيون، وفي صخور الجبال وفي شطآن السواحل، والألم اخترق شغاف الأمة، فغدا الجرح أقوى من الزمن. كان ذلك اليوم هوالأكثر ألمًا والأعمق إذ فقد الناس فيه أملاً وسندًا وراحة كانت ترتجى.

لقد كان القائد الخالد برقته وبطيب شذاه.. يذكرنا البحر بلجته وبعمق مداه فبهاؤه كان جلالاً في صدره يحتضن همَّ الناس.. يشاركهم ويواسيهم، يتوق حبًّا للخير وتكبر فيه الآمال لديهم.. قحمت خطواته شتى الأرجاء وما استوقفها إعصار.

لكن القبس البهي غاب والعيون ابيضت على القائد الذي اختطفته يد المنون وانقطع الوتر.. وعالجت العاصفة المصباح فأطفأته وهو يتوقد نورًا وضياء.. هوى النسر وهو يحلق فوق أبراج القمة، وقديمًا قيل: إن البكاء على العظماء مرير، لقد كانت الفاجعة قاسية، لكننا كنا كلنا ثقة وأمل في الأمل الواعد سيادة الرئيس بشار الأسد قائد مسيرة الحزب والشعب.

آنذاك تغلغل الحدث الأسود في القلوب، واستقر حزنًا في النفوس وعندما حمل النعش على أكتاف الرجال، عرفنا كيف تسير الجبال على الكتوف.. وحين

تنادت الأمة إلى توديعه وتشييعه عرفنا كيف يفتقد البدر.

بقلوب دامية وعيون باكية ودعنا حافظنا الحبيب الذي عرفناه جميعًا بعلو الهمة وسمو الخلق، بعمق الرؤى واتساع الأفق، بنصاعة الضمير وطهارة الوجدان، وإباء النفس.

بطلعته السامية، وأخلاقه العالية. ونفسه الأبية ويده السخية، وخلقه النبيل، وإيمانه الصادق.. إنه السيد العظيم مروءة ونجدة، إباء وعزة، وفاء وشهامة، ورغم الغصة في القلب والنفس والوجدان ورغم مأساة الرحيل التي لا زالت حية في وجداننا نقول:

إن عظيمنا القائد الخالد لم يغب عن وطننا ولن يغيب، فلقد ترك لنا سيرة زاخرة زاخرة بدروس العزيمة واللياقة والمثالية، وأهاب بنا جميعًا لرفع مستوى الأداء وتقديم المثال الأفضل لكل من حولنا. ذكرنا دائمًا بالمسافة الطويلة التي يجب أن نقطعها ليرقى عطاؤنا وبذلنا إلى مصاف الانطلاق السليم والصحيح دون تعرج أو تعثر أو ضياع. طلب منا أن نتحول قوة اقتصادية وتلاحمًا وطنيًا وشعبيًا وعمقًا اجتماعيًا وامتدادًا قوميًا لا يقهر وإلى حراس للأخلاق الأصيلة والمثل العربية القويمة. كل حروف المراثي وكل كلمات القوافي وقفت عاجزة أمام لحظة فراقه. لأنه قد جسَّد تاريخ أمتنا في الأصالة والإباء والنخوة وتفوق في العطاء الإنساني، فكان مشرقًا وكان المثل الأعلى للأجيال الذين أصبحت عيونهم جمرًا من كثرة حرائقها وأصواتهم نشجًا من كثرة الدموع.

لأنه كان لهم القائد الأصيل والأخ النبيل والمرجع الجليل الذي لن يخبو ألقه ولن تخمد جذوته على مدى السنين والأيام.

واليوم لو وقفنا برهة نتساءل عن أبعاد الحكمة التي تحلى بها القائد الخالد ومدى ارتباطها بما جرى ويجري من أحداث لكان لزامًا علينا أن نتتبع كلّ كلمة قالها وكلّ خطوة خطاها فمنذ كان طالبًا أخذ دورًا قياديًا في الحركة الطلابية. كان الاستقلال وبناء الجيش الوطني والوحدة العربية هما ثالوثه المقدس وقد بدأ حياته قوميًا وأنهاها قوميًا لكسر الحدود وعاش على هذا المبدأ وفي سبيله عمل حتى جعل سورية عرين القومية وحصن العرب المنيع.

واستمر يخاطب ضمائر العرب والأحرار في العالم بكلمات تبعث على العمل وتجدد الحياة وتصلب الإرادة، ولو أعدنا هذه الكلمات اليوم لوجدناها تنطبق على هذه المرحلة عندما يقول: «هذا الذي يحيط اليوم بالوطن العربي هو أمر عارض بمنظار الزمن لن يدوم ولن يطول.. إن الأمة العربية ستنهض وتواجه كافة المخاطر والتحديات، كما كان ذلك شأنها في مراحل تاريخها..». ولم يكن يستعجل النتائج

خاصة عندما يتعلق الأمر بالأشقاء العرب، وهذا من صلب حكمته، فطالما ضحى وضحت سورية في سبيل الأشقاء حتى ليظن الإنسان العادي والمتمرس بالسياسة أن هذه التضحية ستذهب هباءً، ولكن مع مرور الوقت كانت النتائج تأتي لتثبت مصداقية موقفه وحكمته وبعد نظرته واستشرافه الصحيح لآفاق المستقبل وليزيد ذلك من ثقة شعبه به أولاً واحترام عدوّه له ثانيًا وليكون ملهمًا للأجيال القادمة.

وكان القائد الخالد حافظ الأسد أوّل قائد ومفكر على الساحتين العربية والدولية قد دق ناقوس الخطر في مواجهة نهج الهيمنة الأمريكية على العرب والعالم تحت عباءة النظام العالمي الجديد، ثم العولمة وفي ذلك قوله عند أدائه القسم يوم ١١/٣/١٩٩٩م: «إن ما يجري في عالم **اليوم في ظل غياب التوازن الدولي وتحكم القطب الواحد، وازدواجية المعايير، وسيطرة قوى الاحتكارات الكبرى، والتطورات الهائلة في وسائل الاتصال والمعلوماتية، وازدياد الهوة بين الدول الغنية والمتقدمة والدول النامية، وانفجارات الحروب الإقليمية والمحلية والصراعات القبلية والدينية والعرقية في مناطق متعددة من العالم، إضافة لنهج العولمة الثقافية والاقتصادية، وهدم الحدود الوطنية، وتدمير هويات الشعوب، وتنميط حياتها وسلوكها وسلم قيمها وأولوياتها، إن كل ذلك يثير القلق والخوف لدى شعوب العالم.. إن عالم اليوم يكاد يتحول إلى غابة تتحكم فيها قواعد القوة وتغيب عنها ضوابط المبادئ والقيم التي ناضلت الشعوب من أجلها.. ومع ذلك فإن قوى الهيمنة تتحدث عن حقوق الإنسان، في الوقت الذي يجري فيه انتهاك حقوق الشعب».** واليوم وقد حمل الهمّ الوطني والقومي من هو جدير به، وجدير بإحياء ذكرى القائد الخالد بوصفه منارة تضيء الطريق أمام الأجيال القادمة فليس مستغربًا أن يحظى بمثل ما حظي به القائد الخالد حافظ الأسد من ثقة أبناء شعبه، خاصةً وأن كلّ يوم يمضي وكل حدث يأتي يثبت صحّة خيارنا ويثبت مقدرة قائدنا المفدى الرئيس بشار الأسد على متابعة الدرب الذي خطه القائد الخالد..

فمن قمة بيروت وأحداث انتفاضة الأقصى مرورًا بالحرب على الإرهاب وما تلاها من أحداث جسام وصولاً إلى الحدث الأهم العدوان على العراق لم يكن سيادة الرئيس يزداد إلا تألقًا وثباتًا وشعبية وقومية ووطنية دفعت به وبسورية إلى الواجهة عربيًّا وإقليميًّا ودوليًّا من خلال مواقفه وآرائه التي رأى فيها العدوان على العراق يستهدف أرض العراق وخيراته وشعبه.

وستبقى سورية بقيادة سيادة الرئيس بشار الأسد المدافع الأولى عن هموم ومصالح الأمة العربية مهما تعقدت الظروف وازدادت الضغوط.

في الذكرى الثالثة لرحيل الرئيس حافظ الأسد
مناضل وطني وقومي كبير
ورجل دولة حقيقي

❖ دانيال نعمة
عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري
عضو القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية

عندما يحل العاشر من حزيران لهذا العام - عام ٢٠٠٣م - يكون قد مر ثلاثة أعوام على رحيل الرئيس حافظ الأسد.

لقد كان لخبر هذا الرحيل، الذي أعلن عند منتصف يوم عمل رسمي جاد دويه داخل الوطن الصغير، سورية العربية، وعلى النطاقين العربي والعالمي في آن معاً. لقد أحدث هذا الخبر الكثير من الحزن والأسى، والكثير من القلق أيضاً، وكان ذلك في حينه طبيعياً ومفهوماً لدى الغالبية، غالبية العامة، وغالبية الخاصة، فالراحل الكبير لم يكن

مجرد رئيس عادي، لبلد عادي، حكم في ظل أوضاع عادية، بل كان الرئيس حافظ الأسد الذي استمر رئيساً لسورية قرابة ثلاثين عاماً وفي ظروف داخلية وظروف عربية بالغة الصعوبة، وفي ظروف دولية بالغة التعقيد وعميقة المتغيرات «ظروف الحرب الباردة وما أدت إليه» من انهيار الاتحاد السوفياتي ومنظومة البلدان الاشتراكية.

أجل لقد كان الرئيس حافظ الأسد الشخصية الفذة الشاغلة الناس والمالئة الدنيا طوال هذه الفترة، أي منذ أن قاد مسيرة التصحيح واستمر متابعاً لها حتى أغمض عينيه الإغماضة الأخيرة. ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يجادل في أنه كلما جرى حديث حول الإصلاح والتصحيح توارد إلى الذهن، ولو على نحو عفوي، اسم الرئيس الراحل حافظ الأسد وهذا طبيعي، فمنذ أن سجلت الحركة التصحيحية انتصارها ورسخته إلى يومنا هذا تستمر الاحتفالات سنوياً بذكرى هذه الحركة وبما أدت إليه من منجزات شتى يساهم في ترسيخ مصطلح التصحيح في الأذهان ويستدعي متابعته وفقاً لمتطلبات الظروف الجديدة، وبما يساهم في ترسيخ أهمية الدور الذي لعبه في حياة الوطن والأمة وأبعد، قائد هذا التصحيح ومتابع مسيرته وراعيها.

وبكلمة أخرى فالرئيس الراحل شأنه شأن كل الرجالات التاريخية. قد قيل في مرحلة حكمه، وفيه الكثير الكثير، وكتب عنه وسوف يكتب إلى أمد بعيد الكثير الكثير. وبغض النظر عن كل شيء، وفي كل ما قيل ويمكن أن يقال، فستظل لعوامل موضوعية، راجحةً، رجحاناً كبيراً، تلك الكفة من الميزان المخصصة للمنجزات والإيجابيات في المجالات الأساسية وخصوصاً ما ارتبط منها بالمسألتين الوطنية والقومية وقضايا تحرر الشعوب والنضال لحماية السلام العالمي.

والآن إذا ما رأيت أن أبتعد عن التعميم والعموميات لأبحث بالملموس، فماذا يمكن أن أقول؟ ووفق أي منهج ينبغي أن أكتب؟ أوفق المنهج العاطفي الإنساني، وهذا قد يكون مقبولاً ومفهوماً لدى الكثيرين، أم وفقاً للمنهج العلمي التاريخي ومتطلباته، وهذا مالاأستطيعه الآن لعوامل عديدة ليس أقلها ظروف عملي. ورغم ذلك فإنني سأسعى للتوفيق بين هذين المنهجين، وسأسعى لكي يكون كلامي موجزاً قدر الإمكان، وواضحاً ومعبراً

بصدق عمّا عرفته أو تعرفت إليه بحكم موقعي ممثلاً للحزب الشيوعي في القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية منذ اليوم الأول لنشوئها والتي ترأس أهم أعمالها الرئيس الراحل مباشرة وتابع أعمالها في جميع الأحوال.

وفي هذا الضوء، ومن هذا المنطلق، أقول أولاً، إن هنالك إجماعًا في الأوساط الوطنية كافة، على أن الرئيس - الراحل حافظ الأسد كان ويظل نموذجًا من الطراز الأول للمناضل الوطني، ويعود ذلك إلى منشئه الشعبي وارتباطه الوثيق بالمسألة الوطنية منذ مراحل تطوره الأولى، وإلى أنه عاش وهو الطالب في تجهيز اللاذقية أجواء النضالات الطلابية التي سبقت الظفر بالجلاء وساهمت في التمهيد له، وإلى أنه شارك بحماسة في جميع النضالات ضد المشاريع الاستعمارية وسائر المخططات التآمرية على الاستقلال الوطني الوليد.

ومن نافل القول التشديد على أن الأولوية في فكر الرئيس الراحل وفي ممارسته اليومية طوال المسيرة التي قادها استمرت للهم الوطني للمسألة الوطنية، أي للحفاظ على استقلال الوطن وسيادته وكرامته، وعدم تعريض هذا الاستقلال لأي نوع من أنواع الخطر. وقد تجلى ذلك في أكثر من مظهر وصورة وأكثر من تدبير: في العمل لتوطيد القدرة الدفاعية للبلاد، في متابعة تحرير جماهير الفلاحين من آثار العلاقات الإقطاعية، في ترسيخ مواقع الطبقة العاملة في حياة البلاد، في بناء القاعدة الاقتصادية الضرورية لمجابهة شتى أنواع الضغوط سواء أكانت خارجية أو داخلية أحيانًا، وأضيف أن الإعداد لحرب تشرين التحريرية وخوض غمارها بكفاءة واقتدار يبقى بين أهم الشواهد وأكثرها وضوحًا على عمق الروح الوطنية والدور الذي يعود لها لدى الرئيس الراحل.

فبالاستناد إلى هذه الروح كان التوصل إلى نوع من التعددية الاقتصادية والسياسية، وبالتالي التعددية الحزبية باعتبار مثل هذه التعددية في ظروف تلك الأيام الطريق الأقرب والأسلم لتحقيق الوحدة الوطنية التي استدعتها عوامل عديدة بضمن ذلك وفي مقدمتها مهمة العمل الجاد لإزالة آثار العدوان الإمبريالي الصهيوني الإسرائيلي، وتحرير الأراضي المحتلة بهذا العدوان، واستعادة الحقوق القومية المغتصبة.

وفي هذا الضوء خصوصًا ينبغي النظر إلى الحركة التصحيحية وما أدت إليه من انفتاح داخلي، ومن إقامة للجبهة الوطنية التقدمية وللدور التاريخي الذي عاد وما زال يعود لهذه الجبهة.

وأقول ثانيًا: إن هنالك أيضًا إجماعًا في الأوساط القومية العربية على أن الرئيس الراحل حافظ الأسد كان ويظل نموذجًا من طراز خاص ورفيع للمناضل القومي الذي يربط ربطًا وثيقًا وعلى أساس واقعي وموضوعي بين المصالح العليا لسورية العربية والمصالح القومية للأمة العربية. ويعود ذلك لديه إلى تفتح وعيه القومي منذ مراحل تطوره الأولى على النكبة التي حلت بفلسطين والأمة العربية في أعقاب التقسيم وغرس الدولة الصهيونية على على نحو مصطنع داخل أرض فلسطين المقدسة وعلى حساب تشريد الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب الفلسطيني في أربع جهات الكرة الأرضية، وتحويلهم إلى مجرد لاجئين. وكان هذا وغيره في جملة العوامل التي زادت من تمسكه بقناعته حول أهمية الوحدة العربية وضرورتها، ولم يكن مصادفة أبدًا أن يزداد تمسكه بأهمية الوحدة العربية في أعقاب ما أدى إليه الانفصال وانهيار الوحدة السورية – المصرية، أول وحدة عربية في العصر الحديث، وما أثار هذا الانفصال من ردود أفعال. ثم جاءت مرحلة الإعداد لحرب تشرين التحرير – مرحلة الثأر من هزيمة حزيران، فكانت هي أيضًا في أساس العمل الجاد الذي أقدمت عليه دمشق بقيادة الرئيس الراحل لتنقية الأجواء بين الأقطار العربية من المحيط إلى الخليج، ولتمتين العلاقات بين دمشق والقاهرة، بين سورية ومصر، باعتبار ذلك أمرًا ملحًا يقتضيه الإعداد لكل حرب تحريرية، كما يقتضيه الإعداد لأي سلام عادل وشامل في منطقتنا العربية ومنطقة الشرق الأوسط بأكملها.

وأقول ثالثًا بأن ظروف الحرب الباردة، وانقسام العالم إلى قطبين، قد أدت بالرئيس الراحل أن يجد مصلحة سورية العليا ومصالح الأمة العربية في ولوج طريق الصداقة مع القطب المنحاز لقضايا التقدم الاجتماعي، وحرية الشعوب ودفعها في اختيار طرق تطورها اللاحقة، وفي الدفاع عن الشرعية الدولية والسلام العالمي والصداقة بين الشعوب.

وفي هذا الضوء خصوصًا

وبالارتباط مع المسألتين الوطنية والقومية، يمكن أن نفهم لماذا كانت معاهدة الصداقة السورية السوفياتية، وكانت تلك العلاقات الوثيقة مع جميع بلدان المنظومة الاشتراكية؟ ولماذا كان اهتمام سورية بحركة عدم الانحياز ومؤتمر الدول الإسلامية؟ كل ذلك مع إصرار ومع عمل دؤوب كي يكون لسورية صداقاتها مع أوسع عدد من دول العالم، وكي تقلل العداوات إلى أقل عدد ممكن، فقد كان الهم الشاغل لها هو التصدي لإحباط المشروع الصهيوني العدواني، وإحباط جهود العاملين لإنجاح هذا المشروع الخطير.

وإذا كان من شيء ينبغي الإشارة إليه فهو أن المتغيرات التي جرت عميقة مؤلمة لم تدفع بالرئيس الراحل للتنكر للصداقات التي بناها ولم تدفعه لتبديل قناعاته أو للخوف والذعر، وكم كان بالغ الدلالة ذهابه إلى موسكو للقاء يلتسين مع معرفته به وإعلانه من هناك أن العالم لا يمكن أن يكون وحيد القطب وأن تعدد الأقطاب مطلب موضوعي ولا بد منه شاء من شاء وأبى من أبى.

طبيعًا من الممكن في مثل هذه المناسبة أن يتناول المرء جوانب كثيرة مما يشغل بال كل مواطن يهتم بقضايا الوطن والشعب، ويتابع تطور البلاد وما تواجهه من تحديات وما يجري في العالم من حوله.

فمثلاً يهم كل مواطن غيور أن يتعرف بعمق إلى الجانب الإنساني والأخلاقي في حياة الرئيس الراحل، بل في حياة كل رئيس وكل مسؤول، وإلى دوره كمناضل وطني وقومي وكرجل دولة ومنظم ومحاور ومفكر، أو أن يتعرف إلى مواقف له محددة، في ظروف معينة ومحددة.

ودون تردد، أجزم أن الرئيس الراحل أثبت بالقول والعمل وفي أحلك الظروف أنه القائد الشجاع والسياسي المحنك والاستراتيجي البعيد النظر، وأنه المتفتح الذهن والمنفتح الصدر، المستعد للإصغاء باهتمام إلى المتحدثين والمحاورين، وأنه العفيف اللسان البعيد عن التجريح، وأنه الشديد التروي قبل اتخاذ القرارات الحاسمة، وإذا ما سألني أحد أدلة أعيد إلى الذاكرة قيادته الاجتماعات الجبهوية إعدادًا لحرب تشرين التحرير ولكل ما رافقها وتلاها وارتبط بها. وأعيد إلى الذاكرة الاجتماعات والمواقف المرتبطة بحرب صدام حسين ضد جمهورية إيران

الإسلامية، وأعيد إلى الذاكرة الاجتماعات التي كرستها القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية بعد احتلال صدام للكويت وعشية «تحرير» الكويت من هذا الاحتلال الذي كان كارثة على الأمة العربية تدفع اليوم ثمنها غاليًا، كما أعيد التذكير بتلك الاجتماعات العديدة المسؤولة التي عقدت أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات لتحديد أنجع الأساليب وأقلها إيلامًا وضررًا في التصدي للثورة المضادة يومذاك وإحباط مخططات مدبري مؤامراتها.

وأعتقد جازمًا أن كل من يريد إعطاء تقويم موضوعي للمسيرة التي اجتازتها سورية في ظل مرحلة الرئيس الراحل حافظ الأسد لا بد له من النظر إلى القضايا والمسائل والممارسات التي عرفتها تلك المرحلة الأهم في تاريخنا الحديث في سياقها التاريخي وظروفها الملموسة، وليس بأي منظور آخر كما يحلو لبعضهم أن يتصرف اليوم، خصوصًا بعد احتلال قوات التحالف الأمريكي - البريطاني للعراق، وعندئذ سيتأكد ما كنت قد قلته سابقًا من أن الرجحان في الميزان هو لكفة الإيجابيات والمنجزات، أما النواقص والثغرات وما استجد لعوامل مختلفة فتبقى مهمة التصدي لها هي مهمتنا نحن اليوم، ونعتقد واثقين أن مسيرة التطوير والتحديث مسيرة الإصلاح الاقتصادي والإداري وإصلاح القضاء والتصدي لظاهرات الفساد المختلفة، هذه المسيرة التي يقودها ويتابعها الرئيس بشار الأسد كفيلة بتحقيق الكثير خصوصًا إذا ساهمت فيها بحمية وإخلاص كل القوى الحية الشريفة في هذا الوطن الحبيب الغالي، سورية العربية، وإذا ساهم فيها كل فرد منطلقًا من أنه هو أيضًا مسؤول.

والمهم أن نستلهم الكثير من المرحلة السابقة، وأن نضيف كل ما تقتضيه الظروف الراهنة وحركة الحياة فيها.

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد في ذكراه الثالثة
بعض شمائله وسجاياه

جورج صدقني
عضو القيادة القومية

حين آذنت شمس حياة الرئيس حافظ الأسد بالمغيب، ورحل عن هذه الفانية يوم العاشر من حزيران سنة ٢٠٠٠، فَقَد أبناء شعبنا في سورية برحيله القائد الجسور، والسياسي المحنّك، والربّان الحكيم، وفقدت الأمة العربية كلها زعيماً عميق الإيمان بعروبته وبحق أبنائها في نيل استقلالهم القومي وحريتهم في ظل دولة عربية واحدة، زعيماً لم يفتأ يعمل لبلوغ هذا الهدف إلى آخر لحظة من حياته، وفقدت الإنسانية كلها عظيماً كان يريد فيكون التاريخ بعضاً من إرادته.

أمـا أنا فـقـد ودّعت في ذلك اليـوم الحزين، إلى جانب هذا كله، زميل الدراسة في ثانوية البنين في اللاذقية عام ١٩٤٦م، وزميل درب النضـال في الحـزب منذ ذلك الحين. لم نكن في صف واحد في المدرسة، لهـذا كنا نلتـقي أكثـر مـانلتقي في مكتب الحـزب، لقـاءات هـادئة بعيـدة عن صـخب المدرسـة وضـجـة الطلاب، فنشـأت بيننا صداقة تلقائية قامت على أساس العقيدة السـيـاسـيـة الواحدة والأهداف القـومـيـة المشتركة.

واليوم ، **إذ تحلّ** الذكرى الثالثة لرحيل **الرجل التـاريخي العـظيم** حـافظ **الأسـد،** **التفت** فـارى حولـي بحوثًا ودراسـات وفيـرة **تناولت** شـخـصـيـة هـذا القـائد الكبيـر **بالتحليل وألقت الضوء** على جوانب متعددة من عظمتـه وعبقريته، ولكنني لاأكاد أرى بين هـذه الكتب كلهـا كـتـابًا واحـدًا يهـتم بدراسـة «**الإنسـان حـافظ الأسـد**» نبع كل **جـوانب العظمـة** في شـخـصـيتـه الفـذّة. وتغمرني في هذه المناسبة ذكريات حميمة، فاكتشف أنها أقل مما ينبغي مع الأسف، ولو كنت أعلم منذ ذلك الحين – وأنّى لي أن أعلم علم الغيب– ان قدر **حافظ الأسد وهمّته** وعزمه وقوة شكيمته ستبلغ به هذه المكانة الرفيعة، لكنت سجلت كل كلمة، وكل نأمة، وكل لفتة، ولما تركت لذاكرتي الخؤون عبء اخـتـزان هـذا البـحـر الـواسع من الذكريات.

وإنني لأغـتنم هذه المناسـبـة لأعـرض مشـاهـد متـفـرقـة من **حيـاة حـافظ الأسـد الإنسان** ، وهي – في مـعظمهـا– من النوع غير المألوف، أو غير المعروف، لدى جمهور المواطنين، وأرفع هذه المشاهد القليلة تحية وفاء للراحل العظيم.

❖ ❖ ❖

أمـا المشـهـد الأول فكان يجـري في اجتماع القيادة القطرية في بنائها القديم، أو في اجـتـمـاع تدعى إليـه فـي القـصـر الجـمهوري، وكـان هـذا **المشهد** يتكرر بين حين وآخر. فبينما الأعضاء يدلون بآرائهم في الموضوع المطروح للمناقشة، يدخل فجأة أحد مرافقي الرئيس **حاملاً** «ربطة خبز» فيقدمها إليه. فيأمره السيد الرئيس بتوزيعها على الأعضاء، ثم يخبرهم بأن هذه الأرغفة مازالت ساخنة، وهي قادمة لتـوّها من الفـرن، ويطلب منهم أن يأكلوا منهـا، ويحكمـوا على جودتهـا. ثم يسـألهم كيف يرضى أي واحد منكم أن يكون رغيف الشعب هكذا؟ **هل أنتم مرتاحون وجدانيًا لهذا الوضع؟** ويسـتـمر السيد الـرئيس في لوم القيـادة بصوت ملؤه الألم والحزن وقتًا غير قصير. وذات مرة قال أحد الأعضاء – وكان وزيرًا – إن السـبيل الوحيد لتحسين الرغـيـف هو زيادة الأسـعـار، فنزل عليـه غضب عظيم!.

❖ ❖ ❖

وفي أول وزارة بعد قيام الحركة التصحيحية، كان الرئيس حافظ الأسد بالذات رئيسًا للوزراء. وقد مرّر إليه أحد الوزراء رقعة صغيرة من الورق يخبره فيها أن كلية الطب في جامعة حلب بدأ تدريس الطب فيها باللغة الإنكليزية، بناء على قرار رئيس الوزراء السابق لقيام الحركة التصحيحية. فأعاد الرئيس الأسد إلى الوزير «وهو الوزير المختص» رقعته وعليها تعليمات فورية بإلغاء قرار رئيس الوزراء السابق، وإعادة الأمور إلى نصابها في كلية الطب في حلب، والعودة فورًا إلى التدريس باللغة العربية، وتحميل الوزير مسؤولية التنفيذ على الفور، مع منحه صلاحيات مطلقة باتخاذ كل ما ينبغي اتخاذه من إجراءات لبلوغ الغاية المنشودة.

وصارت هذه الحادثة قصة تروى. ولقد رواها الرئيس الأسد نفسه غير مرة، فكان يقول بصوت فيه شيء من الغضب المستهاد: هل من المعقول أن تدرّس سورية الطب باللغة الإنجليزية، وهي التي بدأت تعريب العلوم وفي طليعتها الطب منذ العام ١٩١٩م، وهي التي كانت تفخر، وبحق، بأنها قدوة لسائر الأقطار العربية على هذا الصعيد؟.

وبهذه المناسبة: لعلنا لانضيف شيئًا إذا قلنا إنه كان، رحمه الله، شغوفًا بالعربية، يحبها حبًا جمًا، ويرى فيها أجمل لغات الدنيا، والأهم من ذلك أنه كان يلتزم الفصحى في خطبه الرسمية دائمًا، بل إنه كان يلتزم الفصحى حتى حين يضطر إلى الخطابة ارتجالاً، وكان لا يلحن. فكان بهذه الخصلة فريداً ومتميزًا بين جميع الملوك والأمراء والرؤساء العرب الذين عاصروه.

❖ ❖ ❖

وحين أصيب الفنان الكبير عاصي الرحباني زوج الفنانة المبدعة فيروز وعميد الأسرة الرحبانية، بجلطة في الدماغ، وتدهورت صحته، وبات في حاجة إلى إجراء عملية جراحية خطيرة في الدماغ، بادر الفارس العربي ذو المروءة والنخوة إلى نجدة الأستاذ الرحباني، فأرسل إليه تبرعًا بمبلغ من المال للإنفاق على العلاج. وفي تلك المرة نجحت العملية الجراحية وتماثل الأستاذ عاصي للشفاء، وكان الفضل في ذلك حينئذ يرجع إلى غيرة الرئيس الأسد الإنسانية وحميّته واندفاعه إلى وضع المعروف حيث ينبغي له أن يوضع.

إن التبرع لإنقاذ حياة عاصي الرحباني هو الأمر الطبيعي الذي ينبغي له أن يكون، فلا غرابة في أن يسارع الرئيس الأسد إلى القيام بمأثرته الكريمة. وطبعًا لم يعلن الرئيس الأسد وقتها شيئًا عما قام به من معروف، وإنما عرف الناس بصنيع الأسد مما أعلنته الأسرة الرحبانية من شكر

للرئيس الأسد على عاطفته النبيلة، في جميع وسائل الإعلام المعروفة.

ومما يسترعي الانتباه حقًا أن الرحابنة **لم يعلنوا شكراً آخر لأي شخصية من الشخصيات السياسية العربية**. وهذا يجعلنا نعتقد أن الرئيس الأسد قد انفرد بمكرمته النبيلة دون سائر الحكومات العربية.

ولكن ماالذي حدا بالرئيس حافظ **الأسد إلى هذا القدر من الحماسة والغيرة لأجل عاصي الرحباني؟** والجواب بسيط **إذا لم يغب عن البال أن حافظ الأسد إنسان قبل أن يكون رئيساً، وأن حافظ الأسد الإنسان واكب منذ مراحل شبابه الأولى هذه الظاهرة الفنية الرائعة المتمثلة** في المدرسة الرحبانية وفي صوت فيروز. وقد يجدر بنا ألا ننسى أن الكثرة من المواطنين السوريين تعودوا مدة طويلة أن **يبدؤوا نهارهم مع صوت فيروز يصدح عبر إذاعة دمشق. ثم إن الأسرة الرحبانية مع فيروز تحولوا إلى ظاهرة موسمية دمشقية مع افتتاح معرض دمشق الدولي كل عام، حتى أواسط السبعينات. وهل ينسى أحد لفيروز «سائليني ياشآم» و «قرأت مجدك» و «مُرَّبي» تشدو بها قصائد عشق في دمشق؟ وبعد هذا كله، بل قبل هذا كله، لابد أن حافظ الأسد الإنسان كان مشدوداً إلى المدرسة الرحبانية، لأنه كان يرى فيها**

مدرسة ذات ذوق فني رفيع، مدرسة قادرة على الارتقاء بالفن العربي، وعلى تربية الذائقة الفنية، مدرسة تألفها الأذن في بلاد الشام لكثرة ماأحيت من تراثها الغنائي الشعبي «الفلكلور»، وقدمته للناس في ثوب أنيق قشيب.

❖ ❖ ❖

لقد كانت شمائل الرئيس حافظ الأسد وسجاياه الشخصية كثيرة. وقد ذكر كثير من الكتاب الذين كتبوا عنه، أو ألفوا كتبًا عن سيرته، بعضًا من هذه السجايا، فلم يحيطوا بها كلها. وأنا أيضًا ليس بوسعي أن أحيط بها جميعًا، وقد أغفلت بعض ماأعلم من هذه الشمائل الكريمة. ولكن مالاينبغي لنا أن ننساه أبدًا أنه **كان طويل الأناة، جلداً، عظيم القدرة على تحمل المشاق، صبوراً. وكان صبره لاينفد، فكأن الصبر كان يملّ من صبره.**

في هذا المجال سأترك لوزير الخارجية الأميركي الأسبق جيمس بيكر أن ينقل في مذكراته صورة عن «درجة التحمل»، أو «الصبر» الذي كان الرئيس حافظ الأسد يتحلى به.

فبعد أن يقول جيمس بيكر: «كنت واثقًا، بعد الاجتماعين اللذين عقدتهما مع الرئيس الأسد في أثناء أزمة الخليج، أن سورية لن تقبل مطلقًا إقامة سلام مع

إسرائيل من دون إعادة الجولان» يقول في مكان آخر: «كنت أحاول التعرف على شخصية الأسد، وأسلوبه في التفاوض، وتفكيره، وكيف يتعامل مع القضايا. وأيقنت أن الأسد يحظى بسمعة رجل مفكر، صادق العزم، لايستسلم، ويحب الاجتماعات المطوّلة التي ترمي إلى إرهاق محاوره». وينقل بيكر عن الرئيس حافظ الأسد قوله: «يجب أن يعرف الإسرائيليون أن سورية لن توافق على إقرار سلام مع بقاء جزء من أراضيها رازحًا تحت الاحتلال، وأنه بدون سورية لن يكون هناك سلام عربي- إسرائيلي. ويجب أن يفهم كل إسرائيلي أنه لايمكن إقامة أي سلام دون إعادة الجولان كاملة».

ويذكر بيكر لقاء هامًا مع الرئيس حافظ الأسد في نيسان ١٩٩١م، فيصفه قائلاً: «اجتمعت مع الأسد مرة أخرى في دمشق، ولاريب في أن هذه المفاوضات التي أجريتها معه كانت أصعب مفاوضات أجريتها على الإطلاق، وأكثرها عناء ومشقة. واستغرق الاجتماع تسع ساعات وستًا وأربعين دقيقة دون انقطاع، في غرفة لاتطاق، لايسري فيها إلا نزر يسير من الهواء المكيّف. وكان التفاوض مع الأسد يُعَدّ دائمًا مباراة في أقصى درجات التحمّل. فالأسد ذو عزيمة قوية صلبة جدًا. كنا نجلس دومًا متجاورين على مقعدين كبيرين وثيرين يجعلاني أشعر بأنني أبدو قزمًا وأن الأسد يبدو مثل أبي الهول. قدماه ملتصقتان بالأرض وركبتاه مضمومتان، ويداه معقودتان في حجره، ولايغيّر هذا الوضع أبدًا. وماكان أحوجني دائمًا، عقب كل اجتماع معه، إلى إجراء تدليك لرقبتي، فقد كان النظر نظرة ثابتة إلى يساري بزاوية تسعين درجة يصيب رقبتي بالتشنج».

❖ ❖ ❖

وكانت آخر مرة رأيت فيها الرئيس الراحل حافظ الأسد في صبيحة السادس من أيار عام ٢٠٠٠م، يوم عيد الشهداء، وفي أثناء الاحتفال بوضع السيد الرئيس إكليلاً من الزهور على صرح الشهيد. في ذلك اليوم كان السيد الرئيس يسير الهوينا مستعرضًا مستقبليه، وكنت واحدًا منهم. فلما بلغ في خطّ سيره قبالة المكان الذي كنت أقف فيه، نظر نحوي، والتقت عيوننا، وخيّل إلي أن في عينيه كلامًا، فرفعت يدي محييًا، ورفع يده لردّ التحية. وماكنت أدري أنها تحية الوداع!.

❖ ❖ ❖

كان الرئيس حافظ الأسد قائدًا سياسيًا من طراز فريد. كان يعرف أن السياسة عمومًا بلا أخلاق. ولقد قيل في التعبير عن هذه الفكرة «لاأخلاق في

السياسة» والسياسة تقررّها المصالح. أما حافظ الأسد فلم يوفّر جهداً في سبيل الارتقاء بالسياسة إلى مستوى الأخلاق، وجعل الأخلاق أساس جوهري في العمل السياسي.

لقد بنى السياسيون سياساتهم على المصالح، أما هو فقد بنى سياسته على الحق في مقابل الظلم والعدوان والباطل.

وبهذا كان حافظ الأسد نسيج وحده بين السياسيين في العالم.

فيا أيها الرئيس العزيز الغالي نم قرير العين، فإن جميع من عرفت والتفوا حولك وفي ظل قيادتك، باقون على العهد، وهم مع الجموع الغفيرة من شباب الأجيال الصاعدة، يلتفون الآن حول قيادة الرئيس الجسور بشار الأسد، يستظلون بظل رايته المجيدة.

قائد يصعد..
وتاريخ يسعى على الأرض

الدكتور صابر فلحوط
رئيس اتحاد الصحفيين العرب - سوريا

في ذكرى صعود الزعيم الخالد حافظ الأسد، إلى الرفيق الأعلى، تنحني جماهيرنا بهاماتها، وقاماتها، إجلالاً للرحيل المدوي، وتمجيداً للمآثر الخالدة، وعهداً على مواصلة السير على وهج الرسالة التي حمل، لأداء الأمانة التي استودعها في القلوب، والعقول والوجدانات.

فقد كانت مسيرة الزعيم الخالد، تاريخ أمة، فإذا ارتحل، وانتقل، وترجل، فإن ما صنعت يداه، وأبدعت عبقريته، وأنجزته قيادته العملاقة، والخلاقة، سيبقى خالداً يسعى على الأرض بقدمين من حب للتراب والتراث والوطن، وإصرار على إعطاء الجهاد، والاستشهاد، من أجل العزة والكرامة كل ما يرضي روح الزعيم حيث هو في سدرة المنتهى، على منبر القديسين والشهداء، والعظماء الذين أعطوا شعوبهم، ذوب قلوبهم، فأعطتهم الخلود السرمدي، والثناء العاطر مدى الدهر.

لقد ساقتني الأقدار، أن ألتقي الزعيم الخالد لأول مرة في تموز ١٩٥٩، وكان طيّارًا يتدفق شبابًا، وحماسة وإيمانًا، والتقيته بعد الانفصال الأسود في تاريخ سورية، حيث كان يمضغ الآلام، ويتوعد أعداء الوحدة، ويرسم طريق الخلاص.

وأشهد أنه كان كلمة السر في ثورة آذار التي انطلقت صبيحة الثامن من آذار عام ١٩٦٣، وكان لي شرف الإسهام في إذاعة بلاغاتها الأولى التي كانت - وما تزال - تدعو للوحدة العربية وتحصين الموقف العربي، والسيادة القومية، وتحرير الأرض واستعادة الحقوق في فلسطين، وكل أرض عربية محتلة..

وأذكر أنني زرته في تشرين الأول عام ١٩٦٣ في قاعدة - الضمير - وكان قائدًا لها، ووجدته يقرأ في كتاب للغة العربية وقد فتح الكتاب على عنواني - كان وأخواتها، وأن وأخواتها.

وهنا لا بد من التنويه أنه عندما رويت هذه القصة للصحفي اللامع /باترك سيل/ ذكرها في كتابه الشهير حول الصراع على سورية معلقًا بقوله /إن الأسد كان يعد نفسه مبكرًا ليكون قائد وطن لا يخطئ حتى باللغة العربية شأن علمائها/. وآية الأسد الخالد، وعظمته تكمن في جملة من المواقف يمكن الإشارة إليها:

١- كان يحسن الإصغاء لمحدثيه ويشعرهم وكأنهم في مستواه لا أقل، حتى إذا ما طرحوا كل الذي يريدون يرد عليهم بتسلسل منطقي - مدوزن - كأنه أصفى الألحان وأدقها كمن يقرأ في كتاب.

٢- القدرة المتميزة على الصبر خلال الحوار والنقاش، والوقار، وعدم الحركة، وأذكر أنه استقبلنا مع رؤساء تحرير الصحف الأردنية عام ١٩٨٤ مدة ست ساعات وربع ساعة - لم يضع رجلاً فوق أخرى، ولم يتململ، حتى علق أحد الضيوف بعد الزيارة قائلاً:

«هل لاحظتم أنه لو وضعنا مسطرة بين قدميه لما زادت المسافة أو نقصت سنتيمتر واحد!!»

٣- القدرة على الاستيعاب، وإطالة البال وتوسيع الصدر، والصبر على الهموم والمتاعب ثم الحسم بحزم بعد استنفاد جميع وسائل الدبلوماسية، والنصح والإقناع، والحرص على عدم خسارة الرفاق.

٤- كان الزعيم مسكونًا بهاجسين اثنين: الأول: تحرير الأرض في الجولان وفلسطين والجنوب اللبناني، والثاني تحقيق الوحدة العربية، ولهذا فقد أعطى حرب تشرين التحريرية ذوب قلبه وعصبه، ومنح المقاومة الوطنية اللبنانية كل دعمه وإسناده المتعدد الأشكال والميادين.

كما انطلق بعد التصحيح المجيد لتحقيق الممكن على طريق الوحدة، فكان اتحاد الجمهوريات العربية الذي قامت حرب تشرين التحريرية تحت ظلال سيوفه.

٥- كانت الكرامة الوطنية تمثل قمة القيم لدى الزعيم الخالد، ولهذا كان يتحدث مع الكبار في هذا العالم من المستوى والارتفاع والحجم نفسه، لهذا فإن الزعيم الخالد كان القائد الوحيد في هذا الكون الذي لم يزر البيت الأبيض، بل التقى القادة الأمريكيين إما في دمشق أو في منتصف الطريق - في جنيف.

وأذكر أنه عندما جاء - هنري كيسنجر - أشهر وزراء الخارجية في أمريكا والعالم إلى دمشق في أعقاب حرب تشرين التحريرية بادر الزعيم الخالد بقوله «سيادة الرئيس أنا وزير خارجية أكبر دولة في العالم أرجو أن توقفوا حرب الاستنزاف في جبل الشيخ والجولان خلال فترة وجودي هنا كي يقال إن القصف توقف عند وصولي إلى دمشق.. فأجابه الزعيم الخالد إن قرار حرب الاستنزاف يعود للشعب في سورية ولهذا فإنني لا أستطيع تلبية هذه الرغبة..»!!.

وعندما دعا الزعيم الخالد الوزير كيسنجر إلى الغداء في بيته كانت المائدة عامرة بالطعام المنوع والغني كما هي العادة العربية.. فحاول كيسنجر أن يغمز من قناة الزعيم بقوله للسفير الأمريكي: انظر هذه المائدة التي تكفي لعشرة أضعاف الحضور وهذه من أسباب وعناوين الهدر والتخلف عند العرب.. وما أن سمع الزعيم الملاحظة حتى قال للمترجم قل للسيد كيسنجر أن هذه المائدة الغنية إنما نمدها للذين لم يشبعوا في بيوتهم، فامتقع وجه كيسنجر لهذا الرد الواقعي والحاسم، فعلق السفير الأمريكي بقوله: تستحق ذلك لأنك حسبت نفسك تتحدث مع أمير أو قائد عادي، وليس مع الأسد..!!

إنني أسجل في دفتر ذكرياتي الغوالي، أن الزعيم الخالد كان يجل الصحافة، ويقدر دورها ورسالتها وقد عبر عن ذلك أبهى تعبير وأعظمه، عندما لم يحمل طوال عمره الرئاسي إلا هوية اتحاد الصحفيين في سورية مع أنه كان يُجِلُّ جميع المنظمات والنقابات والمواطنين بين البطين والأذين من قلبه الكبير.

وأذكر أنه عندما شرفني القدر أن أقدم له بطاقة عضوية اتحاد الصحفيين في سورية على مدرج الجامعة في تموز ١٩٧٤ بحضور أعضاء المؤتمر العام الرابع لاتحاد الصحفيين العرب، وجلست إلى جانبه قال لي بأبوة ومودة أعتز بها.

«هل أصبحت صحفيًا الآن.. قلت نعم سيادة الرئيس.. قال هل أستطيع أن أتكلم

على – كيفي – كما يفعل بعضكم؟! قلت: لاأعتقد ذلك»!!

وكانت هذه الملاحظة درسًا، ومدرسة، فهمناها توجيهًا للصحفيين في بلدنا كي يدققوا ويستوثقوا، من كل كلمة وموضوعة قبل إطلاقها في فضاء المجتمع بالنظر لخطورتها وأهميتها وآثارها على الرأي العام وتوجهات الجماهير، والنسيج الاجتماعي، والجبهة الداخلية..

لقد كان الزعيم الذي نحيي ذكراه السنوية هذه الأيام كبيرًا في حجم هذا الوطن الشامخ، عظيمًا في مستوى عظمة هذه الأمة الخالدة.

ولقد وجده شعبنا يولد من جديد من خلال الرئيس المفدى بشار الأسد الأمين المؤتمن على الإرث النضالي للزعيم الخالد، والذي يقود مسيرة الشعب والتصحيح بكل جدارة، وجسارة وحكمة إلى حيث تحقيق النصر في تحرير كل ذرة من التراب والحقوق وبناء المجتمع العربي النهضوي المنشود.

القائد الخالد
العنوان الأبرز لشموخ الأمة وصمودها وكرامتها

سعاد بكور
رئيسة الاتحاد العام النسائي
عضو مجلس الشعب السوري

في محراب الذكرى السنوية الثالثة لرحيل القائد الخالد حافظ الأسد ننحني بكل الخشوع والإجلال لروحه الطاهرة ونقف وقفة صدق مع الذات نشعر فيها عزة الانتماء وصدق الولاء إلى عصر ذهبي عشناه وتاريخ مشرق حضرناه بدأ منذ السادس عشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٠ ولازال مستمرا فالقائد الخالد العظيم الذي أحببناه و ألفناه رحل عنا جسداً وظل يعيش خالداً في عقولنا ووجداننا وضمائرنا ويسكن نبضات قلوبنا ، ويبقى بيننا نهجاً وفعلاً ومثلاً وأمثولة .

إنه حاضر معنا بفكره ونهجه وثوابته الوطنية والقومية وإنجازاته العظيمة التي تملأ ساح الوطن فأينما جال النظر في ربوع وطننا الحبيب سوريا نرى إنجازًا مما قامت به يد التصحيح عطاء سخيًا لا ينضب وشاهدًا على الزمان والمكان يحكي قصة القائد الخالد الذي أضحى عنوانًا بارزًا لشموخ الأمة وصمودها ومجدها وعزتها وكرامتها ورمزًا أبديًا من رموز الحق والخير والعدل ناضل وقاد المسيرة ثلاثين عامًا وزرع في كل حقل من حقول الوطن ثمرة سقاها من فكره وقيمه فأينعت إنجازات ومكاسب وعطاءات شملت كل أبناء الوطن ، فكان للمرأة النصيب الأوفر من هذه العطاءات لأنها إنسان شأنها شأن الرجل تمامًا يشتركان معًا في بناء البيت في بناء الوطن في بناء المستقبل لا تمييز بينهما أبدًا.. حيث خط لها القائد الخالد سطورًا مضيئة على صفحات العمل الوطني والقومي وتبنى مهمة الدفاع عن حريتها وإنسانيتها ، وإعطائها حقوقها كاملة غير منقوصة وتعهد بإزالة القيود التي تمنع مشاركتها في جميع مجالات الحياة العامة وفي مواقع صنع واتخاذ القرار فكان للمرأة ما أرادت وما ناضلت من أجله سنين طويلة فأضحت في كل موقع ومجال تعطي وتعمل وتنتج وتضحي وتربي الأجيال فارتفعت مكانتها وسمت منزلتها وتحققت نقلات نوعية في مسيرة حياتها .

هذا هو القائد الخالد حافظ الأسد الذي امتطى صهوة التاريخ لانتشال الأمة من حضيض اليأس والإخفاق والتمزق إلى قمة النجاح والانتصار فغدت سورية قلعة للصمود العربي، وموئلاً لكل أحرار العالم الذين يبحثون عن الحق والحرية والعدالة وخطًا دفاعيًا عن قضايا الأمة العربية وتحقيق أهدافها بتحرير أرضها واسترداد حقوقها المغتصبة من خلال تطبيق قرارات الشرعية الدولية ومرجعية مدريد لإحلال السلام العادل والشامل الذي يضمن الحقوق ويحقق الأمن للجميع .

إنها بوابة الشرق العربي الصامد في وجه طغاة العالم الجديد الصهاينة الذين استباحوا من خلال ضعف العرب وتشتت قوتهم دماء أهلنا في فلسطين ، ومارسوا كل أساليب البطش والإرهاب والقتل والتدمير والإبادة الجماعية ، فلم يفرقوا بين الإرهاب وحق الشعوب في المقاومة ونيل الحرية والاستقلال ، وتناسوا أن أرضنا العربية لنا فهي محرمة على الأعداء محرمة على الصهاينة وسيتم تحريرها واستعادتها طال الزمن أم قصر .

لقد رحل القائد حافظ الأسد وحين كان لابد من الرحيل الموجع المؤلم على الرغم من كونه الحقيقة التي لا بد منها . كانت إرادة الشعب أن تسلم الأمانة للقائد بشار الأسد ليحمل الراية ويتابع المسيرة

ويقود سورية إلى معارج التطور والحضارة ، ويعزز ويطور نهج التصحيح في البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بنظرية حديثة متطورة تواكب العصر يقترن فيها القول بالعمل مهما كانت صعوبة المرحلة ومهما عظمت التحديات .

سيظل القائد الخالد في قلوبنا شعلة محبة ومنهل فكر ، وفي وجداننا منارًا هاديًا وقبسًا متلألئًا نستقي من تعاليمه ، ونستهدي بتوجيهاته وننهل من مدرسته النضالية نستضيء بكلماته الخالدات نتفيأ ظلال أمجاد صنعتها قيادته التاريخية والحكيمة، العنوان الأبرز لكرامة الأمة العربية والمرتكز الأساسي لإنجاز القرار القومي ، ونمضي مع القائد البشار الذي ملأ حياتنا أملاً وتفاؤلاً منذ حمل راية القائد الخالد حافظ الأسد ليتابع المسيرة ويطور ويعزز النهج ، و يعمق دورنا في بناء المجتمع وتنميته ويحافظ على مكتسباتنا وإنجازاتنا .. نسير خلف قائد الوطن نحو تحقيق إرادة الحياة وبناء سورية الحضارة والحداثة والتطور كي يعلو شأن الوطن ويزدهر مجده ، وتبقى سورية رمزًا للوحدة الوطنية والتلاحم والتآخي الوطنيين ملتفه حول القيادة الحكيمة للسيد الرئيس بشار الأسد .

باسم الاتحاد النسائي وباسم نساء سورية نرفع تحية الإجلال والإكبار إلى روح القائد الخالد حافظ الأسد وإلى أرواح شهداء الانتفاضة وشهداء الأمة العربية الأبرار

تحية إلى أهلنا الصامدين في فلسطين والجولان وجنوب لبنان .

وتحية الولاء وعهد الوفاء لقائد مسيرة الحزب والشعب السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

❖ ❖ ❖

حقوق الإنسان العربي
في خطب القسم الرئاسية للقائد الخالد

د. جورج جبور
باحث في القانون الدولي وحقوق الإنسان

بداية، لابد من الإشارة إلى أنه مهما ارتفعت أهمية مناسبة خطاب القسم فلابد لهذا الخطاب إلا أن يكون متأثراً بالأجواء المحيطة بسورية لحظة إعداده وإلقائه. صحيح أن خطاب القسم فريد من حيث أنه يأتي مرة واحدة كل سبع سنوات وصحيح أن هذه القراءة تمنحه وقاراً خاصاً به. إلا إن من الصحيح أيضاً أن كل المناسبات التي تحدث فيها الرئيس الأسد - رحمه الله - إنما هي مناسبات فريدة. ويبقى خطاب القسم وهو واحد من خطب عديدة ألقاها الرئيس، متأثراً بالأجواء السياسية المحيطة به.

ولعل هذه الحقيقة تبرز أكثر ما تبرز في خطاب القسم الأول «خطاب المنهاج» أتى هذا الخطاب في موسم خطابات بلغت ستة خطابات في الأسبوعين اللذين سبقا خطاب القسم في ١٤/٣/١٩٧١م، وفي عدادها كان أول خطاب يلقيه الرئيس الأسد بمناسبة ذكرى ثورة آذار.

وهكذا إذن تركزت القراءة الخاصة في خطاب القسم الأول بتبيان مفهوم المنصب الذي انتخب له الرئيس. وفي هذا المجال قال الرئيس الأسد أنه يفهم المنصب ليس كسلطة بل كمسؤولية وأمانة، أما الأفكار الأخرى التي وردت في الخطاب فجاءت تلخيصًا ممتازًا للأفكار التي تم تداولها في الخطب السابقة منذ صدور بيان الحركة التصحيحية في ١٦/١١/١٩٧٠م، وبهذا الاعتبار يصح أن نطلق على خطاب القسم الأول اسم خطاب المنهاج العام.

أما خطاب القسم الثاني «خطاب الحرية» فكان خطابًا بمناسبة الثورة وبمناسبة بدء ولاية دستورية واستمر هذا التقليد منذئذ. لم يتطرق الخطاب طويلاً إلى زيارة السادات التي تمت قبل موعد الخطاب بأشهر والسبب بسيط: تحدث الرئيس الأسد عن تلك الزيارة في عدد من المناسبات بين تشرين ثاني ١٩٧٧م وبين خطاب القسم الثاني. ولاسيما ضمن إطار جبهة الصمود والتصدي.

إلا أن الخطاب جاء وكأنه يشير إلى ماسيتم آخر عام ١٩٧٨م من لقاء مع العراق على صيغة سمحت لمؤتمر قمة عربي أن يعقد في بغداد وأن يصدر قرارات جذرية مناهضة لاتفاقيتي كامب- ديفيد. وفي الصعيد الداخلي شهدت تلك الفترة ظهور حركات عنف اجرامي وفي تلك الظروف حدد الخطاب عشر مهمات أبرزها ماورد عن الحرية وعن معارضة الرئيس الأساليب الآيلة إلى إساءة استعمال قانون الطوارئ، ونظرًا لتوسع الرئيس في الحديث عن الحرية وفي اجرائه المباشر. للحد من التعسف في استعمال الأوامر العرفية يمكن أن نطلق على هذا الخطاب اسم خطاب الحرية.

وكان الجو العام المحيط بخطاب القسم الثالث عام ١٩٨٥م «خطاب الوحدة والقومية» جو تمزق عربي. فمن جهة كان ثمة انتصار لبنان المدعوم من سورية في إلغاء اتفاق الإذعان في آذار ١٩٨٤م ومن جهة ثانية كانت الحرب التي شنها النظام العراقي على إيران تحظى بدعم مجموعة لابأس بحجمها من الدول العربية. وكانت سورية بالذات تعاني من حصار اقتصادي بحثه بالتفصيل المؤتمر القطري الثامن. في هذه الظروف أتى خطاب القسم ليحتفل أيضًا بذكرى ثورة آذار وبانتهاء أعمال المؤتمر القطري الثامن. وفي صعيد

الجوهر حفل الخطاب بالحديث عن الوحدة العربية وعن القومية العربية ولاسيما أن الدبلوماسية الأمريكية الإسرائيلية، كانت توصلت إلى ما عرف باسم صيغة عمان وبموجبها اتفقت قيادة الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية على أسلوب للتفاوض مع إسرائيل للوصول إلى سلم ما، رأته سورية مجافيًا للحقوق العربية. وفي خطاب القسم هذا أماط الرئيس الأسد اللثام عن بعض أهم أسرار فشل التقارب السوري- العراقي الذي كان الأسد هو من بادر في السعي لبلوغه أثر توقيع اتفاقيات كامب- ديفيد. وبما أن هذا الخطاب تميز بإلحاحه على معالجة الوضع العربي ضمن المنظور القومي لذلك يصح أن نطلق عليه اسم خطاب القومية والوحدة.

أما خطاب عام ١٩٩٢م «**خطاب الديمقراطية**» فقد كان أيضًا خطابًا بمناسبة ثورة آذار. جاء الخطاب بعد عام من إطلاق الرئيس جورج بوش مبادرته بشأن الصراع العربي -الإسرائيلي. تلك المبادرة التي أتت في أعقاب استكمال تحرير الكويت التي غزاها صدام في ١٩٩٠/٨/٢م. ومن المعلوم أن أمريكا قادت العمل الدولي لتحرير الكويت، وأحبت أن تجعل هذا العمل قاعدة للنظام الدولي الجديد الذي يؤرخ لبدايته إما بسقوط جدار برلين أو ببدء التصدي لصدام في الكويت أو بأحداث أخرى حفلت بها الأعوام الثلاثة قبل خطاب القسم. وكان يقال أن من خصائص النظام العالمي الجديد انتصار الديموقراطية ونهاية الإيديولوجية ومعها التاريخ. كذلك سادت اطروحات التعددية والانتخابات الحرة وجرى تفكير بإنشاء جهاز لمراقبة حرية الانتخابات في مختلف دول العالم (لاسيما العالم النامي) للمساعدة في التحول نحو الديموقراطية. في هذه الأجواء أتى خطاب القسم الرابع ليركز **على الديموقراطية وعلى مزايا الديموقراطية كما تمارسها** سورية، فصح أن يطلق عليه اسم **خطاب الديموقراطية**.

حقوق الإنسان العربي في خطب القسم الرئاسي الأربعة:

بالإمكان تتبع كل حقوق الإنسان العربي في خطب القسم الرئاسي الأربعة. إلا أنني اخترت للتتبع أربعة حقوق يختص اثنان منها بحقوق الإنسان العربي القومية وهما **حقه في وحدته القومية وحقه في التحرر من الاستعمار الاستيطاني** أما الحقان الثالث والرابع فيختص الثالث منها بحق الإنسان العربي الفرد في **الحرية** ويختص الرابع بحق الإنسان العربي الفرد في **الديموقراطية**. ومن الواضح أن الإنسان العربي الفرد هنا هو المواطن السوري الذي

يعيش ضمن النطاق الجغرافي للحكم السوري .

١- حق الإنسان العربي في وحدته القومية: يؤمن البعثي بوحدة الأمة العربية وهكذا فإن حق تقرير المصير الذي هو حق لكل شعب إنما يعني، لدى البعثي بخاصة ولدى القومي العربي بعامة، حق الشعب العربي بأسره في تقرير مصيره الذي يراه البعثي والقومي العربي مصيراً قائماً على الوحدة العربية . **كيف تجلى هذا الحق في خطب القسم الأربعة؟**

- في خطاب عام ١٩٧١، وفي خطاب عام ١٩٧٨م قال الرئيس الأسد «**سلاح الوحدة الوطنية وسلاح الوحدة العربية هما أمضى سلاحين نقاوم بهما ونصمد ثم ننتصر**» حدد خطاب القسم مهمات للمستقبل وجاءت المهمة التاسعة من هذه المهمات لتركز على الوحدة العربية التي هي هدف أسمى باعتبارها ضرورة حياتية بجوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والدفاعية.

ويتابع الخطاب:«**وحين نقول إن الوحدة العربية هي الأصل وهي الوضع الطبيعي للأمة العربية فإننا نقرر حقيقة تتطلب الا يجعل أي نظام عربي الأنظمة الأخرى محرقلة لانجاز أية خطوة وحدوية ممكنة**». وتابع الخطاب حديثاً جميلاً جداً عن الوحدة التي هي هدف قائم بذاته «**من يقبل بتحقيقها ويعمل لها فهو وحدوي ومن يتحدث عنها ويضع أمامها العراقيل والمصاعب ولو تحت عنوان تحقيق المواصفات اللازمة للوحدة فإنه يضع نفسه بقصد أو بغير قصد في موضع الانعزال والتقوقع..**» وفي نهاية حديثه عن الوحدة قال: «**نحن سنستمر في نضالنا من أجل الوحدة ولاشروط لنا على من يريد أن يحاورنا في هذا الأمر إلا شرط تحقيق الوحدة**». وهذا القول الأخير أصبح قولاً سائراً في الأدبيات البعثية والقومية. ولعل الارتباط العميق بالقومية الذي جسدته الأفكار السابقة كان بشيراً مبكراً بتلك الخطوة الوحدوية الرائعة التي قام بها الرئيس الأسد في أواخر عام ١٩٧٨م، حين بادر إلى زيارة العراق محاولاً تطويق خطر اتفاقيتي كامب- ديفيد بتفعيل ورقة الوحدة العربية.

أما خطاب ١٩٨٥م وهوالذي وصفته أعلاه بأنه خطاب القومية والوحدة، فقد توسع في تحليل ظاهرة الانعزالية في الوطن العربي ، ورد على من يصور الوحدة العربية بأنها امبريالية هدفها الضم، ورد على تلك الأطراف العربية التي رفضت أن يوحد العرب صفوفهم في تفاوضهم مع إسرائيل. كذلك أوضح الخطاب جهود إسرائيل في محاربة القومية العربية فقال:«إمعاناً من إسرائيل في التركيز على

تحطيم كل ما يربط بين المواطنين العرب.. لم يسمعها أحد تذكر تعبير المقاومة الوطنية اللبنانية أو المقاومة اللبنانية بل المقاومة الشيعية، والإرهاب الشيعي»، وتابع هذه الفكرة معمقًا تحليله لجهود إسرائيل في التفتيت فقال «لاتتحدث إسرائيل عنّا كمواطنين. بل تتحدث عنا كاقاليم وطوائف ومذاهب». كيف يكون الرد على جهود اسرائيل؟ يجيب الخطاب «إن الرد على هذه الحملة الصهيونية الامبريالية يجب أن يكون نضالاً من أجل الوحدة العربية» وتابع الخطاب تبشيره بالوحدة كحل فقال:«الخلافات العربية ليست عائقًا في طريق الوحدة بل تشكل الوحدة حلاً فوريًا وجذريًا لها» أي لهذه الخلافات- وفي هذا الخطاب انطلق الرئيس الأسد شارحًا بالتفصيل سبب فشل الخطوات الوحدوية السورية - العراقية التي اتخذت عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩م.وبعد ست سنوات من فشل تلك الخطوات أحب الرئيس الأسد أن يشرح الظروف التي أدت إلى ذلك الفشل والتي كان النظام العراقي مسؤولاً عنها. كأنما ضاق صدره بالصمت أو كأنما قطع الأمل في أي اتفاق، أو كأنما أراد أن يضع الحقائق كلها أمام الشعب والتاريخ، أو كأنما أراد أن يفعل ذلك كله معًا. شرح الرئيس الأسد أسباب الفشل مهاجمًا القيادة العراقية بكل حزم ووضوح، وهو الذي يتجنب عادة مهاجمة أية قيادة عربية حرصًا منه على ترك الباب مفتوحًا لاتفاق مقبل.

وتابع الرئيس الأسد في خطاب عام /١٩٩٢م/ دفاعه عن حق الإنسان العربي في وحدته ضمن ظروف مؤتمر مدريد وما دعي بالنظام العالمي الجديد الذي تكشف عن هيمنة أمريكية واضحة متصاعدة.

مادور العرب في النظام العالمي الجديد، وفي زمن العولمة؟ في الخطاب قال الرئيس الأسد أنه أجرى اتصالات ليرى ما يجب أن يفعله العرب على أساس تضامن جدي فاعل فيما بينهم لأن الأمر يتعلق بزلزال ذي بعد عالمي. إلا أن هذه الاتصالات كما يبدو لم تثمر لأن الخطاب يستمر فيقول« إن العرب كمجموع لم يفعلوا شيئًا لمواجهة المستقبل ولم يقوموا بجديد للتعامل مع العالم الجديد..» ومن المعلوم أن الرئيس الأسد. قبل وقوع حرب الخليج الثانية، كان قد لفت النظر أمام المؤتمر العاشر للاتحاد الوطني لطلبة سورية إلى أن «المقبلات من الأيام تبدو أكثر خطرًا وأشد فتكًا. ومن لايعد لوحوش كاسرة قادمة فسوف تهلكه الوحوش. ولن نكون من الهالكين بعون الله وإرادة الشعب». وفي نبرة تأملية تابع الرئيس الأسد في الخطاب عتبه على إخوته العرب فقال:«بعضنا يطمئن للغريب البعيد ويقلقه القريب القريب. يجد في الغريب حاميًا وفي القريب عاديًا».

وهذه بالطبع كلمات مؤثرة ولاشك في أن أي مراقب للسياسة يعرف الجهة التي يوجه إليها الأسد هذا العتب. وفي هذا الخطاب يحلل الرئيس ما نتج عن حرب الخليج الثانية ليخلص إلى نتيجة هي موضع علم عام تقريباً: **«خسر العرب وربحت إسرائيل الكثير إلى درجة يبدو معها أن ما حدث خطط ونفذ لمصلحة إسرائيل. إلا أن كل ذلك لايبعث على اليأس إذ لابد من التضامن ولو وعرت الطريق».**

مجمل القول الآن أن حق الإنسان العربي في التمتع بقوميته سواء في حدها الأعلى كوحدة أو في حدها الأدنى كتضامن، إنما كان حقّاً حاضراً دائماً في خطب القسم الأربعة وهو أيضاً حاضر في معظم خطب الرئيس، بل وربما فيها كلها.

حق الإنسان العربي في التحرر من الاستعمار الاستيطاني:

يعاني من الاستعمار الاستيطاني الأخوة الفلسطينيون قبل أي أحد، على أرضهم كان الاستيطان ويستمر، ومن أرضهم يهجرون وفيها يستضعفون، إلا أن قضية فلسطين قضية العرب الأولى. وفي التحليل المنطقي، بقدر ما يضغط الاستيطان على الفلسطينيين، بقدر ما يضغط الفلسطينيون على مجاوريهم -وغير مجاوريهم- من العرب، وبقدر ما تضغط قضية فلسطين على الوجدان العربي.

وهكذا فإن حق الإنسان العربي في التحرر من الاستعمار الاستيطاني إنما ينصرف أساساً إلى الفلسطيني. إلا أن البعثي لايفرق بين عربي وآخر. وبالأحرى إذن لم يفرق حافظ الأسد بين سوري وفلسطيني.

وفي خطاب عام ١٩٧٨م قال الرئيس الأسد: **«سنظل نؤكد أن حقوق شعب فلسطين في أرضه ووطنه تحتل من اهتمامنا ونضالنا المرتبة الأولى. ونؤكد ما قلناه سابقاً من أن حقوق شعب فلسطين العربي أولاً. وأرضنا المحتلة في الجولان ثانياً».** وفي الحديث عن السياسة السورية إزاء قضية فلسطين لايمتدح الرئيس عهد الحركة التصحيحية أو عهد ثورة آذار فقط، بل يمتدح مجمل تاريخ سورية منذ قيام إسرائيل فيقول وهو يتحدث عام ١٩٧٨م: «وعلى مدى ثلاثين عاماً حافظنا على هوية فلسطين ووقفنا في وجه كل الذين حاولوا طمسها ورفضنا كل مساومة عليها». ومن أجل حقوق فلسطين لابد من التضامن العربي الذي استطاع الأعداء فتح ثغرة فيه بزيارة السادات إلى القدس. إلا أن فتح الثغرة لن يمنعنا -كما يقول الأسد- **«من العمل من أجل التضامن على أساس أن يكون أداة فعالة في التضامن ضد العدو».**

- ويأتي خطاب عام ١٩٨٥م استمراراً لأفكار خطاب عام ١٩٧٨م.

في عام ١٩٧٧م كانت فعلة السادات ثم انضمت إليه أنظمة عربية تنكرت للقيم العربية وللمصالح القومية أصابها الوهن أو الخوف أو سقطت في مستنقع الخيانة.. وأخطر ما نرى ونسمع هو ذلك الاندفاع المروع نحو الاستسلام وتصفية قضية فلسطين وراء ستار ما يسمونه «عملية السلام». في عام ١٩٧٨م طالب باستعادة التضامن العربي الذي فتحت فيه ثغرة. ازدادت الثغرات في عام ١٩٨٥م فماذا حصل لمفهوم التضامن؟ يجيب الرئيس الأسد «أنه لما يحزن ويملأ النفس أسى، أن المنادين بالتضامن العربي غطاء للانضمام إلى النظام المصري المكبل بقيود كامب-ديفيد، يسقطون مقولة التضامن عندما يتعلق الأمر بلبنان المناضل.. يسقطون التضامن عندما يتعلق الأمر بالصمود. ويرفعون شعار التضامن دائمًا عندما يتعلق الأمر بالانهزام والاستسلام»

ويعمق خطاب ١٩٩٢م مفهوم حق الإنسان العربي في التحرر من الاستعمار الاستيطاني وضغوطه. تحدث الخطاب عن الغزو الاستيطاني الصهيوني الذي هو سياسة ثابتة لإسرائيل كما تحدث عن هجرة اليهود السوفييت وهو موضوع أثاره الرئيس الأسد مع الرئيس غورباتشيف.

وفي هذا الإطار نقل الرئيس الأسد عن السوفييت بأنهم سيعيدون دراسة موضوع الهجرة ويتعاملون مع الهجرة في سياق الحقوق العربية «لأن الحقوق العربية هي من حقوق الإنسان عامة، وهي في الوقت نفسه حقوق الإنسان صاحب الأرض المهددة بالاستيطان». وتابع الرئيس الأسد «لقد اتفقنا آنذاك أن هجرة اليهود السوفييت اعتداء صارخ على العرب واعتداء صارخ على حقوق الإنسان وعلى الأرض العربية. فحق الهجرة شيء وحق الهجرة لاغتصاب أرض الآخرين وقتل الآخرين شيء آخر».

ومن الواضح أن هذه الجملة من الخطاب أشارت إلى المادة /١٣/ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وبنتيجة محادثات الرئيس الأسد مع الرئيس غورباتشيف خلص القائد العربي إلى مطالبة محقة «عليكم أيها السوفييت أن تربطوا حق الهجرة بعملية السلام». - لعلهم حاولوا أن يربطوا، إلا أن قدرتهم على الربط- إن رغبوا فيه- لم تكن كافية وها هي هجرة اليهود السوفييت ثم الروس تستمر إلى أرض فلسطين وها هي عملية السلام، في الوقت نفسه، تستمر في المستنقع الذي وضعها به قادة إسرائيل .

حق الإنسان العربي الفرد في الحرية:

كان مكان حرية الفرد -أي المواطن- موضوع نقاش في فترة ما قبل الحركة التصحيحية. وبرزت في تلك الفترة نظرتان: نظرة تفهم متطلبات الأمن على

نحو يحاصر الحرية، ونظرة تفهم هذه المتطلبات على نحو يسمح للحرية بالازدهار. وكان النصر لتلك النظرة التي تسمح للحرية بالازدهار. وصدر بيان الحركة التصحيحية مؤكداً على حرية المواطن وكرامته، فالإنسان العربي في الدولة السورية إنما هو المواطن.

وجاء خطاب ١٩٧١م مؤكداً على الحرية. فقد قال الرئيس الأسد أنه فهم «التأييد الشعبي تأييداً لحرية المواطن وكرامة الإنسان» وأنه فهمه «تأييداً لسيادة القانون».

ثم كان خطاب الحرية في عام ١٩٧٨م «العواطف الدافقة التي تبارى المواطنون في إظهارها، هي كما قال السيد الرئيس في الخطاب «تأكيداً على ضرورة استمرار العمل من أجل ترسيخ الحرية في البلاد وتوفير مقومات هذه الحرية». وفي هذا الخطاب حدد السيد الرئيس مهمات أمام العمل الوطني في المرحلة المقبلة. واختصت المهمة الثامنة بالحرية فقال السيد الرئيس فيها كلاماً لعله أبلغ ما قاله فيها أي من حكام العرب والعالم فلنقرأ:

«إن الحرية قيمة كبرى في الحياة. وهذا ما أكدناه باستمرار منذ ١٩٧٠/١١/١٦م». إن الإنسان الحر هو الإنسان القادر على العطاء. فالحرية التي يمارسها الإنسان هي التي توفر إمكانات العطاء المتبادل بينه وبين الحياة وتعطيه الحياة. وبقدر ما يمارس الإنسان الحرية بقدر ماتزداد وتنمو امكانات هذا العطاء المتبادل. وبالتالي فإن توفر الحرية يغني الإنسان والحياة معًا. وينتج عن ذلك أنه فيما عدا تلك الإجراءات التنظيمية التي تستلزمها الحياة ذاتها، كالقوانين والأنظمة، فإن كل ما يحد من الحرية إنما يعطل جزءًا من طاقة الإنسان والحياة.. ويترتب على هذا أن مزيدًا من الحرية يعني مزيدًا من مناعة الإنسان وقوته ومناعة الحياة وقوتها». إننا احرار بقدر ما نملك من قوة وأقوياء بقدر ما نملك من حرية.

إن هذا يرتب علينا أن نتابع العمل على خلق وتعزيز مناخ الحرية في بلادنا وإيجاد وتعزيز الصيغ العملية لتوفير هذا المناخ. ولست الآن بصدد ما أقول ماذا علينا أن نفعل في هذا المجال إذ حققنا في الماضي بعض ما نرى أنه مطلوب. ولكن ما هو مطلوب كثير ومتعدد. وقد يختلف بين مرحلة زمنية وأخرى.

ولكنني في هذا الإطار أريد أن أقول أن أحداً في بلادنا لن يسأل بسبب معتقده أو رأيه ما دام يمارس معتقده ويعبر عن رأيه في حدود الدستور والقوانين.

وأريد في هذا الصدد أن أشير إلى أنه إذا كانت ظروف صراعنا مع العدو، وما يتطلبه أمن المواطن بسبب هذه الظروف

قد اقتضت قيام حالة الطوارئ لأنه فيما عدا ما يتعلق بأمن الدولة. كما نصت على ذلك القوانين، فلايجوز استخدام الأحكام العرفية.

وقد علمت من وفود المحافظات انه كانت هنالك بعض الحالات استخدمت فيها الأوامر العرفية خارج النطاق الذي أشرت إليه. وأنا أطلب الآن إلى الجهة المختصة وقف مفعول هذه الأوامر. وإن كانت ترى أنها صدرت لأسباب وجيهة».

حق الإنسان العربي الفرد في الديمقراطية:

بما أن الديموقراطية إنما هي حق المواطن السوري في اختيار ذلك الأسلوب من الديموقراطية الذي يناسبه وحين ذهب المواطن السوري إلى صناديق الانتخاب لكي يبدي رأيه في انتخاب حافظ الأسد رئيساً للجمهورية في آذار ١٩٧١م كانت تلك هي المرة الأولى منذ عشر سنوات (أي منذ الانتخابات النيابية في عام ١٩٦١م) التي يطلب الحكم فيها من الشعب المساهمة في تنصيب قيادته السياسية.

في خطاب ١٩٧١م أشار السيد الرئيس إلى الحقيقة آنفة الذكر فقال«كان الاستفتاء على منصب رئاسة الجمهورية تأكيداً لمبدأ المشاركة الشعبية في حمل المسؤولية». وفي هذا الخطاب وصف الرئيس الأسد المنصب بأنه «ليس سلطة بقدر ما هو أمانة ومسؤولية، ويكون المنصب «سامياً بمقدار التفاف جماهير الشعب من حوله وتأييدها من يتبوأه».

وأحب السيد الرئيس أن يتوجه في خطابه إلى كل الناس لاإلى الحزبيين فقط فقال«انني لكم جميعاً وانتم أخوتي وأبنائي وجميعكم سواسية في نظري».

وفي خطاب ١٩٧٨م ركز السيد الرئيس على مفهوم الجبهة كما ركز على حقوق المرأة واختصها بالمهمة العاشرة، وهذان الأمران إنما يصبان في إطار الممارسة الديمقراطية. كذلك أعاد في هذا الخطاب ما قاله عام ١٩٧١م عن نظرته إلى الرئاسة من أنها مسؤولية وأمانة، والتزام بكل ما ذكره في عام ١٩٧١م كما يلي:«اكرر اليوم ما قلته قبل سبع سنين أنني لكم جميعاً. لاأفرق بين مواطن ومواطن إلا بقدر حبه لوطنه وخدمته له» وفي ختام خطابه وردت فكرة مؤثرة تعيد إلى الأذهان أصفى مفهوم للديمقراطية ألا وهو مفهوم الديمقراطية المباشرة كما مورس في أثينا. وتدل هذه الفكرة على المدى العميق الذي تتشبع به روح الرئيس بالديموقراطية:«أتمنى لوكان ذلك ممكناً أيها الأخوة والأبناء، لو استطعت بعيد الاستفتاء، أن التقي بكل فرد منكم لأشد على يده وأبثه حبي وتقديري».

أما خطاب عام ١٩٨٥م فقد ركز على جانبين من أهم جوانب الممارسة الديموقراطية. الجانب الأول هو حس المسؤولية عند المواطن، والجانب الثاني هو جانب المحاسبة ففي الجانب الأول ركز على ضرورة إنماء الشعور بمسؤولية كل فرد عن كل مايهم الأمة بعامة والوطن بخاصة:«إن حس المسؤولية يجب أن يتجلى في سلوكنا اليومي وممارستنا اليومية أينما كان موقعنا وأيا كانت أعمالنا». ثم تابع هذه الفكرة فكأنه كان يؤسس لما عرف في تاريخنا باسم حلف الفضول، حيث لايسكت أعضاء الحلف على ظلم فقال:

«الكهرباء المصروفة هدرا، والماء المصروف هدرا، ووقت العمل المهدور، وخرق النظام العام، والاعتداء على قانون السير، والباب المكسور في مكتب وغياب أستاذ عن درسه دون ضرورة مبررة. كل هذه وغيرها وغيرها ليست ملكاً لفرد إنما هي ملك الشعب ومن اعتدى عليها فقد اعتدى على الشعب، أي علينا جميعًا. ومن هنا فنحن جميعًا معنيون ولايجوز أن يقول أحدنا أن هذه ليست مسؤوليتي وإنما مسؤولية فلان وفلان. نعم إنها مسؤولية فلان ولكن مسؤولية فلان لاتنفي مسؤوليتي كما أن مسؤوليتي لاتنفي مسؤولية فلان، والأمر أن لكل قناته، والشكل الذي يمارس فيه هذه المسؤولية. فقد تكون هذه مختلفة أو مؤتلفة.»وفي الجانب الثاني وهو جانب محاسبة المقصرين والمخطئين قال السيد الرئيس:«سنحاسب المقصرين والمخطئين.. وعلى جميع مستويات السلطة أن تعي هذا القرار جيداً... ولابد من التأكيد على أهمية الدور الموضوعي الذي يجب أن تقوم به الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة. في هذا الشأن. ومن واجب وسائل الإعلام بشكل خاص أن تبحث عن الحقيقة ولاتسكت عن الخطأ، ولاريب أن إصرار السيد الرئيس على دور وسائل الإعلام في عدم السكوت عن الخطأ إنما يتوج هذه الوسائل وبحق سلطة رابعة في الدولة. وبدأ السيد الرئيس في هذا الخطاب الحديث عن فكرة سيتحدث عنها في المستقبل مرات. هذه الفكرة هي واجهية المؤسسات. قال الرئيس الأسد:«إن البلاد بحاجة إلى مؤسسات واجهية. إنها بحاجة إلى أن يمارس الجميع مسؤولياتهم كاملة».

ثم أتى خطاب ١٩٩٢م تتويجًا في نظرته إلى الديموقراطية. فيه تحدث الرئيس الأسد بإسهاب عن تجربة الجبهة الوطنية الديموقراطية في سورية فقال: «نشأ حوار حر بين جميع الأحزاب التي كانت قبل ثورة آذار لايفرض أحد على احد رأياً... وقد يقال أنه وجدت جبهات وطنية في بلدان أخرى وأقول: إن التجربة تختلف جداً من حيث تاريخيتها ومحتواها ونظام عملها

وفاعليتها». وذكر السيد الرئيس أن الجبهة كانت» **إنجازاً وطنياً هاماً ومكسباً كبيراً لقضايا الشعب والوطن**». إلا أن الرئيس الأسد لايقف فقط عند الإنجاز الذي كانته الجبهة والذي جاءت به، بل هو يتابع فيقول: «**ومع ذلك فإننا نرغب من الجبهة أكثر مما تحقق، ومازال أمامنا الكثير مما يمكن عمله من التطوير**» وتابع الرئيس الأسد في هذا الخطاب شرحه لوجهة نظره في الديموقراطية فرأى أن «**صيغة الديموقراطية التي اختارها شعبنا ليست اطاراً جامداً وليست** طريقاً موصداً بل هي **موضوع حي** يتطور ويتجدد. **فالديموقراطية** ليست سلعة تستورد من **هذا البلد أو ذاك... ولكي** يمارس شعب من **الشعوب الحياة** الديموقراطية لابد من **تحقيق توازن دقيق جداً** بين الديموقراطية **لابد من تحقيق توازن دقيق جداً بين الصيغة أعني الهيكلية والقوانين وبين محصلة المعطيات الثقافية والتراثية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يملكها أو يتمتع بها هذا الشعب**». وبالطبع فالصيغ الديموقراطية عديدة بتعدد الظروف، حتى أنه في كثير من الأحيان بدت هذه الصيغ والتي تسعى إلى الهدف نفسه متباينة إلى حد التناقض. ثم قال الرئيس الأسد في عبارات تبدو كأنها رد على من يشكك بالديموقراطية السورية «**نحن أقرب إلى الديموقراطية**

ويمارس المواطن في بلادنا دوراً أكثر اتساعاً وعمقاً من الدور الذي يمارس في الكثير من بلدان العالم بما فيها البلدان المتقدمة التي ترفع لواء الديموقراطية على طريقتها». لماذا يرى السيد الرئيس أننا أقرب من غيرنا إلى الديموقراطية؟ الجواب: «**لأن لدينا عدداً كبيراً من الأحزاب والمنظمات والنقابات، بل وفوق هذا فإن أكثر من ثلث أعضاء هذا المجلس كما أذكرهم ممن يمكن أن نسميهم** المستقلين...». أما أحزابنا السورية فهي «**أحزاب وطنية لها تاريخ طويل...» هل يعني** القول بأن لدينا عدداً **من الأحزاب** وأن لهذه الأحزاب تاريخها هل يعني هذا القول بأن الباب أوصد أمام **قيام أحزاب جديدة؟** يجيب السيد الرئيس بالنفي «**إن وجود عدد من الأحزاب لايعني أنه لايوجد احتمال قيام أحزاب وطنية جديدة**». لقد طبقت سورية التعددية الحزبية قبل الكثيرين من الذين يتحدثون عن التعددية هذه الأيام. إلا أن الديموقراطية لاتعني الفوضى. وبالتالي فإن تجربة سورية الديموقراطية الناجحة ليست نهاية المطاف. قال الرئيس الأسد: «**لاأقصد أننا في المثل الأعلى الذي نريده... وهذا يعني أن لانجمد في مكان، وأن نقف باستمرار عند نقطة معينة**».

إن الديموقراطية عند السيد الرئيس هي لباس نصنعه نحن بحسب احتياجاتنا.

وليست (اللباس الذي صنعه الآخرون). وينتقد الرئيس الأسد في خطابه هذا أولئك الذين يجعلون الديموقراطية سؤالاً عن فرد فيأتون إلينا يسألون عن هذا الفرد أو ذاك ويحاولون التدخل في شؤوننا الداخلية. كذلك ينتقد من يجعلون الديموقراطية صيغة واحدة. ففي «الغرب توجد ملكيات وتوجد جمهوريات ويوجد أحياناً رئيس وزراء هو القمة ويوجد أحياناً رئيس جمهورية هو القمة». وأحب أن أضيف هنا شيئًا يذكره لنا التاريخ. حين قامت الثورة الأمريكية على الحكم الانجليزي عام /١٧٧٦م/ كان أعلى شعار رفعته هو أنها ثورة ديموقراطية ضد نظام حكم ملكي، وكان حديثها عن الديموقراطية يتركز على تبيان التناقض بين الديموقراطية وبين نظام الحكم الملكي.

وتابع السيد الرئيس في خطابه مؤكدا ضرورة التقدم دائمًا على طريق الديموقراطية فقال: «لا أعتبر أن ما نحن فيه المثل الأعلى فيجب دائماً أن نبحث عن الأحسن والأفضل ولكن بحسابات دقيقة فإن الخطأ في هذه الأمور يجر إلى أخطاء وتفلت الأمور وندفع الثمن الباهظ كما حدث بالنسبة للآخرين» ولاريب أن الرئيس الأسد كان يشير بهذا الكلام عن الحسابات الدقيقة إلى تجربة عربية تحولت من نظام الحزب الواحد إلى نظام التعددية وفعلت ذلك دون حسابات دقيقة فكانت الفوضى ومازال معنا إلى اليوم تدمي قلوب العرب ونأمل أن تنجلي الأمور ولن تنجلي إلا إذا كانت الحسابات دقيقة كما نبه إلى ذلك الرئيس الأسد. وتابع الرئيس الأسد حديثه عن الديموقراطية في خطاب ١٩٩٢م فركز على ما تعنيه الديموقراطية من احترام القوانين وتحديثها وأهمية ترسيخ دور السلطة القضائية.

حقوق الإنسان العربي في كلمة القسم الرئاسي الخامس:

أدى السيد الرئيس يوم ١٩٩٩/٣/١١م قسم الرئاسة، ثم وجه إلى مجلس الشعب كلمة بمناسبة تأديته القسم. ولعل أهم ما ميز أجواء تلك الكلمة هو أنها أتت في «موسم تهيؤ العالم لاجتياز ألفية جديدة عنوانها وحدة الاتصال العالمي. وجاءت الكلمة منفتحة على هذه الآفاق العلمية - التطبيقية، مستخلصة منها ماينبغي أن يستخلص. ومن هنا فقد يكون من الصواب اطلاقنا على الكلمة وصفًا نابعًا من الجو المحيط بها. إنها - كما أرى- كلمة حرية المناقشة والمشاركة».

ولاتغيب الحقوق الأربعة التي أحببنا متابعتها فيما سيبقى، لاتغيب عن كلمة القسم الرئاسي.

حق الإنسان العربي في وحدته القومية حيث تجلى ذلك واضحًا في الكلمة. وكعادة الرئيس الأسد لم يتوقف في البحث عند حدود التشخيص بل تقدم ليصف العلاج

في الوضع العربي اليوم وهنا وضعت «وخوف البعض من البعض الآخر» وفي المتاهات السياسية التي نسمعها منذ مدة ترد مطالبات باعتزاز، ومطالبات مضادة باعتزاز متبادل كيف تتكامل الكلمة مع هذه المتاهات؟ يقول السيد الرئيس: **«لقد وقعت أخطاء كبيرة من هذا الشقيق أو ذاك... أنني أدعو الأشقاء المسؤولين العرب في كل مكان إلى وقفة شجاعة ومسؤولة تساعد على تحقيق مراجعة نقدية وموضوعية للوضع العربي»** وتتابع الكلمة **«إن سورية... ستستمر بالعمل الجاد والمسؤول لتحقيق التضامن العربي... ووضع أسس وضوابط جديدة للعلاقات العربية».**

وتلازم في الكلمة الحديث عن حق الإنسان العربي في وحدته المقدسة مع حقه في التحرر من الاستعمار الاستيطاني وهكذا ففي ذات الإطار الذي خصصته الكلمة للحديث عن الوحدة العربية جاء الحديث عن انتصار إرادة الشعوب على قوة المعتدي، وهنا المعتدي الإسرائيلي أي تعبير عن حتمية الانتصار قالت الكلمة: **«إننا واثقون أننا سنستعيد أرضنا المحتلة في الجولان مهما طال الزمن أو قصر ومهما بلغت قوة المعتدين ومهما ضاقت ظروف العرب».**

فإذا انتقلنا بعد هذا إلى حق المواطن في الحرية صادفتنا مجموعة أفكار تؤكد على هذا الحق. فتجديد الولاية عهد متبادل بين السيد الرئيس وبين الشعب- أي المواطنين. وصيانة كرامة الشعب أمر يقع في موقع الإيمان الراسخ وبنتيجة ما وصلت إليه المسيرة **«أصبح كل مواطن شريكاً في القرار وفي تحمل المسؤولية»**، وتتابع الكلمة حديثها عن حق المواطن في الحرية في فكرة رائعة: **«إن اتساع دائرة القرار وحرية المناقشة والمشاركة هي ضمانة لتحقيق المسار الديموقراطي».**

ويرتبط حق المواطن في الحرية بحقه في الديموقراطية، وتأتي الكلمة لتبين أهمية الجانب المؤسساتي للديموقراطية فليست الديموقراطية **«ممارسة المواطن لحقه في انتخابات ممثليه في المؤسسات المنتخبة، بل هي أيضاً ممارسة هذه المؤسسات لدورها في ما حدده الدستور والقانون، وإن تلكؤ أية مؤسسة في ممارسة دورها في تحمل مسؤولياتها باتخاذ القرار المناط بها يشكل إضعافاً للبلاد»**، ولأن المجالس التشريعية في كل نظم العالم هي المناط الأول للديموقراطية، فإننا نجد الكلمة توجه ما يشبه التنبيه إلى مجلس الشعب ليمارس دوره، تمتدح الكلمة التعاون بين مجلس الشعب وبين الحكومة ومجالس الإدارة المحلية والأجهزة الحكومية، ولكنها تحذر: **«لا ينبغي أن يكون هذا التعاون على حساب دور أي من هذه المؤسسات، خاصة مجلس الشعب الذي عليه أن يمارس بصورة فعالة دوره في الرقابة والمتابعة والمحاسبة».**

القيـادة والمؤسسيّة
(تقابل أم تكامل)

مهدي دخل الله
رئيس تحرير جريدة البعث

يكاد موضوع القيادة والمؤسسية، والعلاقة بينهما، يعتبر واحداً من المواضيع الأساسية في علم الإدارة وعلم السياسة المعاصرين...

ويبدو أن السائد نوعان، من فهم هذه المسألة، الأول يعطي الأولوية للقيادة، والثاني للمؤسسيّة. لكن النوعين ينطلقان من وجود تقابل بين القيادة والمؤسسيّة.

ويمكن القول، ربما، أن طرح المسـألة بهذا الشكل يعتبر طرحاً زائفاً (Pseudo) من وجهة نظر علمية. إذ أن العلم لا بد وأنه حل إشكالية القيادة - المؤسسية عبر تأكيد البعد الجماعي (الفريقي) للعمل. وفي هذا المفهوم تكون المؤسسيّة حاملاً، بينما القيادة محمولاً، باعتبارها وظيفة من وظائف المؤسسية...

لكن المفهوم الأنتولوجي الأعمق للقيادة، يشير إلى أن المؤسسية لا تستطيع أن تبتلع القيادة وتستوعبها وإنما العكس هو الصحيح. القيادة هي المستوعب للمؤسسية...

I

لنبدأ بالتعريف، على الرغم من أن كل تعريف في العلوم الإنسانية تعريف قاصر، لسبب بسيط هو أن الظاهرة الإنسانية ظاهرة متماهية وكثيرة التعقيد...

المؤسسية، هي ذلك النهج من التفكير المبني على الاعتقاد بأن العلاقات والبنى الاجتماعية، بجميع مستوياتها (سواء بين الأفراد أو الجماعات) مبنية على المفهوم المؤسسي. وهذا المفهوم يعني وجود مجموعة متماسكة من القواعد الشكلية (المقوننة) الثابتة نسبيًا والتي ترمي إلى الحفاظ على البنى والعلاقات السائدة...

أما القيادة، فهي نشاط إنساني يركز على التحكم بالعلاقات والبنى (الاجتماعية بجميع مستوياتها) انطلاقًا من القدرات الإبداعية الخلاقة...

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرين يمكن استنتاجهما من التعريف، ولو تبسيطًا:

- أن المؤسسية مفهوم محافظ وستاتيكي (سكوني)، بينما القيادة مفهوم دينامي...

- أن المؤسسية تتعلق بالسلطة الجبرية (Power) التي تتضمن مفهوم احتكار الإكراه، بينما تتعلق القيادة بالسلطة الاقناعية التي تتضمن مفهوم القبول....

وعلى هذا الأساس تبنى بعض الاستنتاجات:

- المؤسسية (بالمعنى المقابل، المناهض، للقيادة) تصعد العلاقات والبنى إلى مستوى الغموضية، واللغزية Mystification. وتصبح هذه العلاقات علاقات قدسية، لأنها ثابتة ويجب أن تحترم في ثباتها ...

وهذه القدسية تنتقل من المستويات الأدنى إلى المستويات الأعلى آليًا حتى تصل إلى المؤسسة السوبر، وهي الدولة، التي تصبح شيئًا فوق المجتمع، وتتحول إلى تنظيم جبري للسلطة.

وتتفرد وتنفصل عن قاعدتها الاجتماعية بشكل كامل. وعلى هذا الأساس يصبح الثبوت والسكون قدسيًا، ويصبح التغيير منبوذا. بل إن الأمر قد يصل إلى أدلجة الغموضية، وجعلها مادة للالتزام العقائدي والأخلاقي ...

بينما مفهوم القيادة يؤكد أن تنظيم العلاقات يتطلب تدخلاً إراديًا أي إبداعيًا..

- وبناء على ماسبق فإن المؤسسية (بالمعنى نفسه) تؤدي إلى الاستلاب

Alienation بجميع مضامينه بل إن الاستلاب يصبح الوضع الاجتماعي المسيطر ، مع كل ما يرافقه من توق وشوق إلى الانعتاق والحرية والإبداع ..

- المعايير في المؤسسية معايير قانونية ، قواعدية ، وليست معايير قيمية بينما القيادة غالبًا ما تقدم المعايير القيمية ...

- المؤسسية تقسم الكل إلى أجزاء ويصبح النشاط محددًا بالأجزاء ، أما القيادة فتهتم بالكلية والشمولية ...

II

بحثًا عن ماهية القضية الإشكالية المطروحة لا بد من وضع بعض الأسئلة، التي يبدو بعضها قديمًا. مسوغات طرح هذه الأسئلة في أنها لم تجد جوابًا متفقًا عليه حتى الآن رغم قدمها:

- هل سيرورة الوجود جبرية، أم أنها تخضع للإمكانات و الاحتمالات ومفارق الطرق والبدائل؟.. (الفلسفة العربية سارت أشواطًا طويلة في إيجاد حل لهذه المسألة، لكن هذه الفلسفة تكاد تكون غير معروفة للإنسان العربي العادي اليوم) ...

- هل جوهر الوجود متغير أم ثابت، مع اقتصار التغير على الظاهر فقط؟..

- هل النشاط الإنساني الأولي (الأساسي) نشاط اقتصادي (معدوي) أم أنه نشاط معرفي. وهل المعرفة نشاط فردي أم جماعي؟ بمعنى هل هي سمة الفرد أم المجموعة؟...

إضافة إلى هذا كله : هل الفرد كائن عارف، أم كائن غير قادر على المعرفة؟...

هذه (التقابلات الثنائية) ضرورية هنا تحليليًا، وإن كانت ليست ضرورية واقعيًا . وقد نجد عند ابن رشد واسبينوزا-مثلاً- اقترابًا من حدود الحل التاريخي للتقابليه والوصول إلى عتبة العلم التكاملي....

ما دامت الفلسفة، أو علم الاجتماع، عجزت عن الدخول بالفكر إلى رحاب التكاملية، فهل استطاع البراكسيس (التجربة العيانية) التقدم خطوات أمام النظرية والفكر المجرد؟...

لعل ظاهرة القائد التاريخي حافظ الأسد تقدم إسهامًا واضحًا في هذا الاتجاه.

الشرط الأساسي لفهم هذه الظاهرة تاريخيًا هو التوقف عن اعتبارها مجرد ظاهرة وطنية وقومية، سياسية وحزبية، والانتقال بها إلى مجال الأونتولوجيا، إلى مجال المعرفة التاريخانية..

إن كل أملي أن يبدأ باحثونا وعلماؤنا الشباب في تحويل هذه الظاهرة إلى مادة علمية ، وبحثها عبر دراسة منهجية . بمعنى أن ننتقل بظاهرة الأسد من دائرة العاطفة إلى دائرة اليقين العلمي، ومن دائرة الوصف إلى دائرة البحث..

ولكي تصبح أية ظاهرة مادة للعلم يجب أن تحمل قضية علمية. فهل هناك موضوع أو قضية علمية في ظاهرة القائد الخالد؟...

أشير هنا-إيجازًا- إلى عدة أمور تؤكد علمية هذه الظاهرة:

- أن التماثل بين شعب وقائد ليست حدثًا عرضيًا خارج نطاق التاريخ. وبما أنها "داخل" التاريخ فهي "داخل" العلم ضرورةً.(من المفيد هنا الاستعانة بمفهوم التماثل عند ابن خلدون)...

- إن التلقائية والعفوية الجماعية يجب أن تحرض العلم، لأن أية ظاهرة جماعية هي ظاهرة علمية ضرورةً.

- الحدس الجماهيري هو- مادام حدسًا جماعيًا- واحد من أسس (مداخل) المعرفة. لذا لا يجوز أن يبقى خارج نطاق العلم.

نعود إلى الأسئلة التي تم طرحها ...

لاشك أن " الجبرية " الوحيدة هي وجود إمكانات واحتمالات ومفارق طرق وبدائل. وهذه الاحتمالات توجد، في مجموعها، جبرًا وضرورةً مما يؤكد انتقائية الإنسان وحريته: (الحرية معرفة الضرورة – اسبينوزا) ... بل هي أكثر من ذلك: إنها تحقيق الضرورة ..

وفي التأكيد على العامل الإنساني (الحرية - الإبداع) تبدو مشكلة القيادة أقرب إلى الحل.

فالإنسان، وليس العلاقات المؤسسية، هو الذي يدفع التاريخ. ويمكن القول أن هذا العنصر الإنساني يكون (فرديًا) عند تميز الفرد وجماعيًا (لنقل مؤسسيًا) عند فقدان الفرد المتميز بطاقاته وقدراته ..

وحتى في العمل الفريقي (المؤسسي) تبدو تدفقات التطور النوعي، أي الانعطافي، من صنع فرد واحد أو مجموعة من الأفراد تعمل على أساس استقلالية الإبداع الفردي وذاتيته..

ويبدو هذا الأمر واضحًا جدًا في السياسة. حتى في أكبر الأنظمة مؤسسيةً، الولايات المتحدة الأمريكية، للقائد دور أكبر من دور المؤسسة. وفي استقراء سريع لتاريخ النظام السياسي الأمريكي يبدو واضحًا أنه كلما كان الرئيس الأمريكي قوي الشخصية وخلاقًا (قائدًا) تبعته المؤسسات وأضحت بصماته الأكثر ظهورًا على الساحة السياسية. أما إذا كان الرئيس عاديًا (ليس قائدًا) فإن " ديكتاتورية المؤسسات" تكون واضحة. وفي مثل هذه الحالات لا يحصل تطوير نوعي وإنما تحافظ المؤسسات على سكونية النظام السياسي وروتينيته .

أما عندما يظهر القادة فهم يحدثون

تطويرًا نوعيًا في النظام المؤسسي وتصبح المؤسسات بعدهم غير ما كان عليه قبلهم .

ولإثبات هذه الظاهرة نلاحظ أن أكثر التغييرات نوعية وتاريخية في النظام السياسي الأمريكي كانت نتاجًا لمبادرات الرؤساء القادة . على سبيل المثال لا الحصر : جورج واشنطن ، توماس جيفرسون ، ابراهام لنكولن ، تيودور روزفلت ، فرانكلين روزفلت ، دوايت ايزنهاور ...... وغيرهم .

ويمكن القول أن تاريخ الولايات المتحدة من صنع هؤلاء القادة وليس من صنع المؤسسات. وفي هذا دليل على أن عصرنا هو عصر القادة العظام.

هذا في السياسة . أما في مجال العلم حيث من المتوقع أن يكون للنهج الفريقي أثر أكبر نجد أن للإبداع الفردي (القيادي) هنا أيضًا دورًا كبيرًا وخاصة عند النقاط الانعطافية . يعمل فريق ما في بحث معقد، ثم يصل الفريق إلى نقطة متأزمة ويتوقف عندها البحث، ثم، فجأة ، يكتشف أحد أعضاء الفريق - ربما أثناء استرخائه في البيت - حل المعضلة ويقدمه لرفاقه كي يستمر العمل الفريقي إلى الأمام حتى ظهور أزمة أخرى . الإبداع هنا (أي الرأي الذي قاد العمل) كان لفرد واحد مبدع فقط ، هذا ينطبق على آنيشتاين وقبله نيوتن وغيرهم ....

IV

التحليل السابق يؤكد أن القيادة يجب ألا توضع مقابل المؤسسية بمعنى أن أحدهما نقيض الآخر . أكثر الأنظمة نجاحًا هو ذاك الذي يضعهما في بوتقة تكاملية مع التركيز على الإبداع (القيادة - الرأي القائد) ، عند توافره ، والتركيز على المؤسسية عندما لا يتوافر الإبداع ...

ظاهرة القائد الأسد قدمت لوطننا ، سورية ، المشروع التاريخي لهذا الحل التكاملي . قبل الأسد كانت القيادة نفيًا للمؤسسات ، لذلك كانت قيادة زائفة Pseudo، غير إبداعية لأنها تقابلية . أما قيادة الأسد فكانت دائمًا تؤكد على تعزيز دور المؤسسات وتطوير مفهوم المؤسسية في بلد ناهض . التكاملية هنا جاءت نفيًا للتقابلية . ولعل هذا واحد من أهم أسباب استقرار النظام السياسي في سورية وتطوره .

تعطي التكاملية لظاهرة الأسد مضمونًا تاريخيًا ، وعلميًا ، وهي - ولا شك - تسهم في إغناء التوجه نحو وضع علم سياسة عربي ، إنساني ، يمكن تسميته علم التكامل باعتباره بديلاً لعلم التقابل .

إذا نجح باحثونا في وضع هذا العلم يكونوا قد حققوا تطورًا نوعيًا في مجال الفكر السياسي المعاصر،ليس على المستوى العربي فقط ،وإنما العالمي أيضًا.

الفكر السياسي المعاصر، ذو الأصول الغربية، بقي في دائرة المتقابلات : الفرد - المجتمع / الشعب - السلطة / المجتمع المدني - الدولة (المجتمع الرسمي)/وحدة السلطة (اليعقوبيون والماركسيون) - تقسيم السلطات .... الخ .

حاول الغرب حل التقابلية، لكنه كان دائمًا يقع في حبائلها . أذكر هنا خمس محطات رئيسة تشير إلى هذه المحاولات :

المحطة الأولى : القديس أوغسطين في القرن الرابع وبعده توما الأكويني في القرن الثالث عشر (دولة السماء - مقابل دولة الأرض)

المحطة الثانية : جان جاك روسو، الذي بقي في الأرض لكنه حاول إيجاد حل للعلاقة بين الفرد والمجتمع، معتبرًا أن الفرد هو الحامل والمجتمع المحمول وأن المجتمع مجرد نتاج لعقد يوقع بين الأفراد الأحرار ...

المحطة الثالثة : جاءت مع هيغل وماركس وفلاسفة حداثيين آخرين، اعتبروا أن المجتمع هو الحامل والفرد هو المحمول وأن الدولة هي ممثلة المجتمع ..

المحطة الرابعة : وهي الأهم جاءت مع إميل ديركايم الذي حاول حل التقابل فوقع في مطب الانفصام التام بين الفرد والمجتمع . فديركايم اعتقد أن المجتمع تكوين قائم بذاته، منفصل عن الأفراد، وأن الظاهرة الاجتماعية، ظاهرة نوعية (Sui generis). وبهذا يكون قد حل المشكلة عبر إلغاء العلاقة بين الفرد والمجتمع لاعبر تكامل هذه العلاقة .....

المحطة الخامسة : جاءت مع المفكرين الذين يحاول تيار ما بعد الحداثة العودة إليهم . نيتشه وشوبنهاور وسارتر .....

هؤلاء رأوا أن الحداثة ركزت على تفسير العلاقات والبنى على حساب الإنسان، الكائن الفاعل، المبدع حاولوا حل القضية لكنهم وقعوا في المشكلة ذاتها، مشكلة التقابل. إذ اعتبروا الإنسان - على عكس ديركايم تمامًا - هو القائم في ذاته Sui generis وله ذاتية مطلقة منفصلة عن الله والطبيعة ....

ووصل هؤلاء إلى نهايتين: فلسفة القوة (نيتشه) أو الوقوع في حبائل التأملية.

عودة إلى مسألة تحريض الباحثين وتحفيزهم . هل يمكن الانطلاق من فكر ابن خلدون التكاملي (مثال: تكامل الحكمة والشريعة)، ومن تجربة القيادة التاريخية للقائد حافظ الأسد لوضع أسس علم سياسي تكاملي ؟..

يبدو أن القاعدة الفكرية (النهج الابن خلدوني) والتجربة العيانية (الأسدية) متوافرة، ممايسهل على الباحث الشاب خوض غمار البحث العلمي المنهجي والموضوعي . ولعل الخطوة الأولى تكون في أن يضع المعهد العالي للعلوم السياسية و قسم علم الاجتماع في جامعة دمشق هذا الموضوع ضمن برنامجه البحثي...

في ذكرى الرحيل

قراءة في فكر واستراتيجية

ومواقف القائد العربي حافظ الأسد

حسن حردان
صحفي وكاتب سياسي - لبنان

القادة في تاريخ الأمم، هم الذين يصنعون مجدها وعزتها، ويلعبون دوراً حيوياً وأسياسياً في نقلها من مرحلة متأخرة إلى مرحلة متقدمة، ومثل هؤلاء القادة يتركون بصماتهم في حياة الأمة، لاتزول برحيلهم من الحياة الدنيا إلى الآخرة، بل إن أفكارهم وإنجازاتهم وسياساتهم الحكيمة والجريئة تبقى نبراساً للأجيال التي تلي لتكمل المسيرة وتعزز صروح ماتم إشادته، وتطور في الأداء من أجل الارتقاء درجات جديدة في سلم التقدم والازدهار.

الرئيس العربي الكبير الراحل حافظ الأسد كان من نوع هؤلاء القادة المميزين في التاريخ، لأنه أسس لنهضة سورية وتقدمها وجعلها تتبوأ مركزًا مرموقًا في المنطقة والعالم، رغم التحديات والصعاب الكبيرة التي واجهت سورية على مدى ثلاثة عقود من حكمه، فالرئيس الأسد جمع بشكل خلاق بين الفكر الاستراتيجي والرؤية التكتيكية للواقع فكان يقرأ اللحظة بعين المستقبل، جامعًا مابين القدرة على اعتماد سياسات مرنة تكتيكية مع التمسك بالمبادئ والثوابت الاستراتيجية.

ولذلك كان قائدًا فريدًا، لعب دورًا تاريخيًّا في مرحلة هامة من تاريخ سورية والأمة العربية، تمكن خلالها برغم العواصف والأعاصير التي اجتاحت العالم وألقت بظلالها على المنطقة مخلة بتوازن القوى لصالح العدو الصهيوني، من الثبات والصمود وإعلاء شأن سورية والمحافظة على حقوق العرب الثابتة رافضًا أي تفريط بها.

إنّ التوقف أمام ذكرى رحيل هذا القائد الخالد بأفكاره وقيمه ومواقفه الصلبة والشجاعة في مواجهة أعداء الأمة العربية، إنما هي مناسبة للإضاءة على فكره واستراتيجيته القومية، كي ننهل منها ونستفيد من الدروس الهامة التي أكدتها مواقفه في محطات تاريخية ومفصلية، أن كان على مستوى الصراع العربي الصهيوني، أو على مستوى لبنان، أو على صعيد المشروع القومي أو على صعيد تأكيد مشروعية المقاومة وتمييزها عن الإرهاب.

أولا: على مستوى الصراع العربي الصهيوني.

إن الجهد الأساسي في سياسات الرئيس الراحل، كان منصبًا باتجاه كيفية التصدي للمشروع الصهيوني المتجسد بالخطر الذي يمثله الكيان الصهيوني على أمن وحاضر ومستقبل الأمة العربية جمعاء، ولذلك ومنذ لحظة تسلمه السلطة في سورية إثر الحركة التصحيحية التي قادها في ١٦ تشرين الثاني من العام ١٩٧٠ كانت الأولوية بالنسبة إليه، تحرير الأراضي العربية المحتلة من رجس الاحتلال الصهيوني، فأعد القوات المسلحة، وأمن لها السلاح والعتاد ونسق مع مصر، في التخطيط لشن حرب تشرين عام ١٩٧٣.

لكن بعد هذه الحرب استخلص الرئيس الأسد دروسها وعبرها، بأن توصل إلى رسم استراتيجية جديدة لخوض الصراع مع العدو الصهيوني، بغية تحرير الأرض واستعادة الحقوق السليبة، وهي الاستراتيجية العليا غير المباشرة وهي كما شرحها الرئيس الراحل، التوازن الاستراتيجي لايعني توازن السلاح، دبابة بدبابة، وطائرة بطائرة، .. الخ، السلاح

ركن أساسي من أركان التوازن لكن التوازن يشمل كل نواحي الحياة ثقافي أولا واقتصادي وسياسي، البنى السياسية ضرورة للنصر، الركن الأهم العسكري، بل إن الأركان الأخرى في المقدمة وهو محصلة لها».

وفي عرضه للوقائع الناتجة عن هذه الاستراتيجية قال الرئيس الأسد: (لدينا شواهد، الغزو الإسرائيلي للبنان، إسرائيل للمرة الأولى تتراجع تحت الضغط شبه العسكري، إرادة القتال والاستشهاد التي تجسدت بشكل رائع في نضال العرب في لبنان فرضت على إسرائيل التراجع، وعندما يكون في الأمة ملايين مستعدين للاستشهاد فهذا الأمر يشكل عنصراً من عناصر التوازن الذي ننشده، كل قوات الأطلسي والأسلحة الحديثة والحشود تركت لبنان بالشكل الذي لانرغبه).

ويوضح: (هناك جوانب لم نمارسها في ماضي هي أساسية في عملية التوازن الاستراتيجي، وهي قادرة على الكثير في طريق التوازن، أنا لاأقلل من أهمية السلاح لكنه لا يعني شيئًا من دون العوامل الأخرى للتوازن الاستراتيجي فالسلاح بلا الإرادة والتصميم والوعي والثقافة بأهمية المعركة لايعني شيئًا) ولذلك عمد الرئيس الأسد إلى بناء عناصر القوة السورية التي تتلخص في:

١- تعزيز قدرات سورية العسكرية عبر بناء القوات المسلحة، وتسليحها بكل أنواع الأسلحة، مع التركيز على سلاح الصواريخ مما خلق نوعًا من توازن الرعب مع العدو الصهيوني جعله غير قادر منذ ذلك الحين على شن الحروب الخاطفة، وباتت سورية تمتلك قوة عسكرية قادرة على مواجهة الأخطار الخارجية، وحماية الاستقلال والسيادة، ومواجهة الضغوط الخارجية التي تستهدف النيل من الإرادة الوطنية.

٢- بناء اقتصاد إنتاجي تنموي، حددت خطوطه في تامين الأمن الغذائي وتطوير القطاع العام، وكل ذلك على قاعدة رفض إغراء القروض الخارجية التي تشكل ركيزة الاستعمار الجديد لإلحاق الدول والانتقاص من سيادتها واستقلالها وبالتالي تقييد إرادتها الوطنية، ولذلك رفضت سورية الخضوع لإملاءات الصندوق والبنك الدوليين اللذين يمثلان أداة الولايات المتحدة لفرض التبعية على الدول التي تنتهج خطًا تنمويًا مستقلاً.

٣- توفير الضمانات الإجتماعية من صحة وتعليم ونقل عام، مما أدى إلى خلق تماسك اجتماعي عزز الاستقرار الداخلي وشكل تحصينًا للجبهة الداخلية وتعزيزًا للصمود في مواجهة الخطر الصهيوني والضغوط الخارجية التي استهدفت إثارة القلاقل داخل سورية.

٤- ماتقدم وفر شروط وبناء وحدة

وطنية راسخة جرى تعزيزها، من خلال إطار الجبهة الوطنية التقدمية الذي ضم كل الأحزاب التي تلتزم الثوابت الوطنية مما عرى القوى التي شكلت أدوات لخدمة المشروع الصهيوني الأمريكي الساعي إلى تقويض الوحدة الوطنية وصولاً إلى النيل من استقرار سورية.

وبفضل هذه السياسة التي وفرت الأمن والاستقرار في سورية، تمكن الرئيس الأسد من الانطلاق في تنفيذ عناصر الاستراتيجية الأخرى التي تجلت في:

١- دعم واحتضان المقاومة في لبنان التي وفر لها سبل الاستمرار في شن حرب استنزاف ضد جيش الاحتلال الصهيوني وتصدى بعناد وتصميم وإرادة لاتلين، لكل محاولات الضغط والإرهاب التي مورست ضد سورية لوقف المقاومة، وكانت ثمرة هذه السياسية أن تمكنت المقاومة من إلحاق أول هزيمة بجيش العدو الصهيوني، وإجباره على الرحيل عن معظم الأراضي اللبنانية دون قيد أو شرط أو أية جوائز أو ضمانات.

ولذلك فإن الحديث عن دور المقاومة النوعي والتاريخي والإنجازات التي حققتها والتحولات التي فرضتها في مجرى الصراع العربي الصهيوني، مرتبط مباشرة باستراتيجية الرئيس الأسد، وهو أمر اعترف به الجميع وفي المقدمة قيادة المقاومة، التي أهدت الانتصار في ٢٥ أيار من العام ألفين واثنين الرئيس الراحل حافظ الأسد.

٢- على مستوى فلسطين: كانت فلسطين في قلب وعقل الرئيس الأسد، وعندما كان يدعم المقاومة في لبنان كان أيضاً يدعم الانتفاضة في فلسطين، وتجلى هذا الدعم بأشكال متنوعة ومختلفة ،وبرز هذا الدعم جليا عندما تم توقيع اتفاق أوسلو المشؤوم وواجه الرئيس الأسد كل الضغوط وقال قوله الشهير (أن كل بند في هذا الاتفاق يحتاج إلى اتفاق جديد)، وجاءت الأيام وأكدت وجهة نظره.

وعندما طلبت تل أبيب عبر الولايات المتحدة من دمشق عدم تقديم الدعم لفصائل المعارضة الفلسطينية التي تلعب دوراً أسياسيّاً في الانتفاضة ، وقف الرئيس الأسد وقفته الشجاعة والجريئة، مدافعًا عن حق شعب فلسطين في المقاومة، وتحولت دمشق قاعدة خلفية آمنة للانتفاضة، كما هي بالنسبة للمقاومة في لبنان. وكان الرئيس الأسد، ينتظر بفارغ الصبر عودة تجدد الانتفاضة الفلسطينية من جديد، لأنه كان مقتنعًا بأن اتفاق أوسلو سوف يفشل ، لأنه لن يعيد حقوق الشعب الفلسطيني، وإذا كان قد شهد أولى ثمار صموده وثباته في الدفاع عن الحق العربي في انتصار المقاومة في لبنان، فإنه

لم يتمكن من رؤية الانتفاضة الفلسطينية تنهض من جديد وهو الذي كان واثقًا من ذلك.

أن العلاقة بين استراتيجية الرئيس الأسد، وبين الانتفاضة هي علاقة عضوية تمامًا كما كانت مع المقاومة اللبنانية، جزء لايتجزأ من عناصر استراتيجيته العليا الغير مباشرة، كان ينطلق منها إلى جانب تعزيز وتحصين سورية، من أجل توظيفها في إطار نهجه القومي في الدفاع عن الحقوق العربية، وعدالة قضية فلسطين، وبما يسمح في إحداث تغيير في موازين القوى على قاعدة الإرادة والتصميم وروح الاستشهاد التي رأى فيها الرئيس الأسد عناصر أساسية في إحداث توازن في مواجهة آلة الحرب الصهيونية.

واليوم تحضر العمليات الاستشهادية في فلسطين كعنصر أساسي في التوازن الذي فرضته الانتفاضة في المواجهة، وهو عنصر من عناصر التوازن الذي كان الرئيس الأسد ينشده،وأجبر إسرائيل على التراجع في لبنان.

٣- على صعيد لبنان: لقد نجح الرئيس الأسد في إنقاذ لبنان من براثن الفتنة والحرب المدمرة وعمل على تضميد جراحه وتحويله إلى قوة يحسب حسابها في الصراع العربي الصهيوني، حيث قلب المعادلة: من لبنان قويًا في ضعفه، إلى لبنان قويًا بمقاومته ووحدته الوطنية وعلاقته المصيرية مع سورية.

وبفضل هذه الاستراتيجية تحول لبنان من عبء على سورية، إلى قوة حليفة لها تسندها في الصراع مع العدو الصهيوني، وأسهمت وحدة المسار والمصير بين البلدين في إحباط المخططات الأمريكية الإسرائيلية لفرض تسوية استسلامية على العرب، وقطعت الطريق على محاولات تعميم حالة الاستفراد بكل مسار من المسارات على حدة.

ولم يكن من الممكن نقل لبنان من حالة التفتت والانقسام والتشرذم إلى حالة الوحدة وإعادة بناء دولته وتحرير أرضه، وبالتالي المحافظة على هويته، لولا بعد النظر والرؤية القومية للرئيس الأسد الذي أدرك طبيعة لبنان وتركيبته، فتمكن من المحافظة على عروبة لبنان التي لم تكن لتتحقق إلا على قاعدة توحيد جميع أبنائه مسيحيين ومسلمين، فالعروبة بمفهوم حافظ الأسد لا تستقيم في لبنان إلا إذا كانت على هذه القاعدة، التي تسقط الهدف الإسرائيلي، ولذلك فقد صدق من قال: لولا الرئيس الأسد ومبادرته الإنقاذية القومية في لبنان لخسرت العروبة في لبنان أكبر خسارة حضارية لها.

٤- على مستوى المشروع القومي: أسس الرئيس الأسد منذ الحركة التصحيحية

إلى رؤية جديدة لمفهوم العمل القومي، بعيداً عن الاستئثار والهيمنة والقسر، فرأى أن الفكرة القومية بما هي تحقيق لإرادة الأمة في الوحدة، لاتتحقق إلا من خلال تعميق روابط ووشائج وعرى التنسيق بين الأقطار العربية، بما يؤدي إلى تعزيزها كتعبير عن واقع الأمة وطموحاتها، ولذلك كان يرى أن الوحدة الحقيقية هي التي تأتي ثمرة طبيعية لتوحيد هذه المصالح، ومن هذا المنطلق رفض كل إغــــراءات توحيد لبنان مع سورية بالقوة وأطلق مقولته المشهورة: في لبنان وسورية شعب واحد في بلدين.

وفي المقابل، سعى جهده من أجل تعزيز وحدة الموقف العربي على قاعدة مواجهة المخاطر المحدقة بالأمن القومي، والمتأتية من وجود الخطر الصهيوني، ومحاولات فرض الهيمنة على المنطقة ونهب خيرتها.

إن الرئيس الأسد قدم بذلك رؤية جديدة في فهم الفكرة القومية، وطريقة تحقيقها، والتي تنطلق من الدفاع عن الحق والأمن العربيين ورفض المساومة على مصالح الأمة أو الاضرار بها، الأمر الذي جعل منه محط احترام وتقدير العرب جميعاً، وحول سورية إلى قبلة العرب، وباتت قوة يحسب حسابها الأعداء الذين عجزوا عن تطويعها أو فرض الاستسلام عليها.

٥- على صعيد مشروعية المقاومة وتمييزها عن الإرهاب:

عبر الرئيس عن بعد نظر في هذه القضية الهامة بالنسبة لنضال الشعوب في مواجهة الاحتلال الذي يحاول تشويه صورتها من خلال السعي إلى وصم مقاومتها بالإرهاب.

وقد بادر وبوعي القائد للمستقبل، إلى تقديم رؤية متكاملة تشكل قاعدة لكل الشعوب المقاومة للاحتلال محدداً فيها ماهية الإرهاب لأنه كان يدرك أنه سيأتي يوم ويصبح فيه موضوع الإرهاب الشغل الشاغل للعالم ويصبح من الضروري تعريف الإرهاب، وتمييزه عن المقاومة المشروعة.

وكان من نتاج هذا الجهد الكبير، أن توصل إلى مطالبة معمقة وأفكار طرحها على الملأ لإثارة نقــاش واسع، ومن أجل المسارعة واستباق الأمور لتحديد معنى الإرهاب، حتى لاتأتي لحظة يستفيد منها العــدو الســاعي دائماً إلى الخلط بين الإرهاب والمقاومة المشروعة للشعوب المحتلة أوطانها، كما يحصل هذه الأيام حيث سارع رئيس وزراء العدو آرييل شارون المعروف بتطرفه وعنصريته ونازيته إلى استغلال ما حدث من هجمات على أمريكا، كي يربطها بمقاومة الشعب الفلسطيني ويحاول وصم هذه المقاومة بالإرهاب وبأن (إسرائيل) إنما تفعل الشيء ذاته الذي تقوم

به أمريكا في الدفاع عن نفسها في مواجهة الإرهاب وفي ذلك طبعاً قلب للحقائق ولي لعنق الحقيقة، ذلك أن الإرهابي شارون جزار صبرا وشاتيلا والمعروف بميوله العدوانية، عندما يصبح رئيساً للوزراء في كيان العدو يدلل على طبيعة هذا الكيان العنصري الذي نشأ على أنقاض شعب فلسطين بعد أن ارتكبت العصابات الصهيونية أفظع المجازر ضده، واغتصبت أرضه وشردته منها، فكيف يصبح من قام ونشأ وترعرع على الإرهاب ولايزال يمارسه متصدياً للإرهاب، ويتحول صاحب الأرض المقهور والمشرد من مقاوم ومدافع عن حقوقه وأرضه وكرامته وعرضه في وجه هذا الاحتلال والإرهاب الصهيوني إلى إرهابي.

إن عظمة القائد الخالد ورؤيته الثاقبة والبعيدة تكمن في أنه ومنذ وقت مبكر نبه إلى هذه القضية الخطيرة والحساسة بالنسبة للعالم، حتى لاتضيع المقاييس والحدود ويختلط الحق بالباطل، ويتحول العالم إلى شريعة غاب، القوي هو الذي يحدد المفاهيم والمعايير كيفما يشاء فدعا إلى تعريف الإرهاب، وتمييزه عن حركات التحرر الوطني التي تقاتل من أجل قضية نبيلة وعادلة وسامية أقرت بها القوانين والمواثيق الدولية وذلك من أجل وضع حد للتفسيرات والتأويلات المتعددة أو ذات الوجهة التي تتعمد إضاعة وتمييع الأمور بطريقة تخدم مصالح القوى الاستعمارية والتي تحاول وتسعى باستمرار من أجل السيطرة والهيمنة على الشعوب لاستغلال ثرواتها وإبقائها تابعة للاستعمار.

هذا الواقع دفع بالرئيس الراحل إلى خوض المعركة ضد هذه السياسة الأمريكية الإسرائيلية على جبهتين:

- جبهة مواجهة الحملة الإعلامية والسياسية المضللة، حيث شن حملة مضادة تحت عنوان ضرورة تعريف الإرهاب وتمييزه عن حركات المقاومة ضد الاحتلال.

- وجبهة الاستمرار في دعم نهج المقاومة المشروعة ضد الاحتلال الصهيوني للأرض العربية وعدم الرضوخ للضغوط والإرهاب الذي يمارس ضد سوريا لثنيها عن سياساتها الوطنية والقومية.

١- على صعيد تعريف الإرهاب: قام الرئيس الراحل بجهد كبير وجبار لمواجهة الحملة الأمريكية الإسرائيلية ولم يعدم في هذا المجال وسيلة لإيضاح موقف سوريا القومي وشرحه بمقدرة فائقة على تحديد الأمور وإبراز الحقائق.

- قال الرئيس الأسد: (نحن في حزبنا قوميون اشتراكيون بمعنى أننا نؤمن بالأمة العربية الواحدة ونسعى إلى تحقيق وحدة أقطارها ونعمل على بناء نظام اشتراكي في داخلها يحقق العدالة لمجموع المواطنين ومن

الزاوية الوطنية والتقدمية والاشتراكية ومن الزاوية الإنسانية لايمكن إلا أن أكون ضد العملاء الذين يتعاملون مع قوى أجنبية ضد مصالح الوطن ولا يمكن إلا أن أكون ضد مجموعة رجعية تفكر بعقل ما قبل التاريخ، وضد مجموعة إرهابية تجعل من القتل والتدمير أسلوباً في ممارساتها).

وهو بذلك كان يشير بوضوح رداً على الاتهامات الموجهة لسوريا، بأن سوريا وحزب البعث ضد الإرهاب وأعمال العنف ولايمكن أن يشجعا هذه الأساليب لأنها تتناقض مع القيم والمبادئ الثورية والتقدمية.

وعلى طريقته في ربط الأمور بشكل جدلي وعلمي، قال الرئيس الأسد رداً على سؤال للتلفزيون الأمريكي (أي بي سي) (أنتم في الولايات المتحدة ناضلتم لنيل استقلالكم من الإنكليز فهل مارستم الإرهاب أم مارستم أعمال المقاومة الوطنية، الفيتناميون حاربوا القوات الأمريكية بمختلف السبل في فيتنام فهل كانت أعمالهم تأتي تحت عنوان الإرهاب أم تحت عنوان العمل الوطني لتحرير الأرض، الجزائر حاربت ضد فرنسا بمختلف السبل فهل كان الشعب الجزائري يمارس أعمال الإرهاب أم أعمال المقاومة الوطنية؟)

وأضاف (نحن في سوريا حاربنا بالسبل المتوافرة بين أيدينا في ذلك الوقت ضد فرنسا عندما كانت تستعمر بلادنا فهل مارسنا ونحن نحارب الفرنسيين ما يمكن أن يسمى الإرهاب أم أعمال المقاومة، جميعنا مارسنا المقاومة وهي مقاومة تجب على كل مواطن في وطن احتلت أرضه أو احتل جزء من أرضه فلا بد إذن من التفريق بين الإرهاب وبين المقاومة الوطنية، وفي ضوء هذا الفهم نحن ضد الإرهاب بكل تأكيد وبدون تردد ومع المقاومة التي تستهدف طرد المحتل من أي وطن جزئياً أو كلياً إننا مع هذه المقاومة) ختم الرئيس الراحل حافظ الأسد كلامه.

وبشأن الإرهاب الإسرائيلي تساءل الرئيس الراحل في خطاب له أمام مجلس الشعب السوري في ١٩٨٦/٢/٢٧ (كيف يمكن أن تكافح الولايات المتحدة الأمريكية الإرهاب وهي تدعم إسرائيل أي تدعم الإرهاب عينه إنها معادلة غير منطقية وغير مقبولة).

وأضاف (حتى للتصويت في مجلس الأمن ضد الإرهاب لم تستطع الولايات المتحدة أن تنسجم مع نفسها مع ما تقوله عن الإرهاب فلم توافق على إدانة إسرائيل ووقفت ضد إدانة الإرهاب مع أنها تصرخ ليل نهار وتصرخ وتطالب العالم قائلة: تعالوا نتعاون في مكافحة الإرهاب ثم عندما يتعلق الأمر بحقوق الشعوب فإنها تقف ضدها).

هذا الكلام الواضح في دلالته يبدو وكأنه توصيف دقيق لما نعيشه هذه الأيام فالرئيس الأسد يرى أن الإرهاب واحد ولايجب أن يكون هناك معيارين في التعامل معه.

فمن يريد محاربة الإرهاب، عليه أن يحارب الإرهاب الإسرائيلي الذي يمثل جذر الإرهاب وعليه وقف دعمه لهذا الإرهاب لأنه لايمكن أن تكون دولة ضد الإرهاب وفي الوقت عينه تدعم إسرائيل أكثر الدول إرهابًا في العالم والتي تفوقت على النازية في ممارسة عمليات القتل والتنكيل والإرهاب بحق الشعب الفلسطيني العربي.

ومن أجل خدمة قضايا الشعوب المحقة والعادلة ووضع حد لسياسة الكيل بمكيالين وحتى لايبقى الأمر في التعامل مع قضية الإرهاب استنسابيًا عمل الرئيس الراحل من أجل صياغة مفهوم واضح يعرف الإرهاب ويحدد ماهيته وجميع الأعمال التي تنبثق عنه بحيث يضع حدًا لسياسة الخلط القائمة بين أعمال الإرهاب المدانة وأعمال المقاومة المشروعة.

وفي هذا الإطار تقدم الرئيس الأسد بمبادرة هامة في العام ١٩٨٦ في وقت كانت ظاهرة الإرهاب على الصعيد الدولي تترافق مع استخدام سياسة القوة والتدخل العسكري والعدوان المسلح لتحقيق أهداف سياسية وهو مافعلته في حينه الولايات المتحدة بهجومها المسلح على ليبيا أو ما كانت تقوم به إسرائيل في جنوب لبنان والأراضي العربية المحتلة في فلسطين والجولان.

وجاءت المبادرة التي تقدم بها الرئيس الراحل بتاريخ ١٩٨٦/٥/٢٧ على شكل مطالعة واقتراح.

في المطالعة قال الرئيس الأسد: «نحن في سوريا ندين الإرهاب بكل شدة، بكل قوة لأسباب كثيرة وأهمها أن الإرهاب مرفوض من حيث المبدأ وثانيها لأننا بلد من أكثر بلدان العالم تعرضًا للإرهاب، وبالأمس القريب فقط تعرضنا إلى عملية إرهابية واحدة كان ضحاياها ١٤٤ شهيدًا و١٤٩ جريحًا فهل سمع أحد منكم كلمة واحدة يقولها هؤلاء الذين يتحدثون عن الإرهاب حول العملية الإرهابية المجزرة التي تعرضت لها سورية في يوم واحد».

«إن المسألة لاتتعلق بالإرهاب ولابمكافحة الإرهاب لأن أكثر مظاهر الإرهاب في العالم هي مفرزات لمشاكل رئيسية فإذا حلت هذه المشاكل الرئيسية زالت أعمال الإرهاب وزالت مبرراتها، إذا عالجنا المرض فلابد أن تزول أعراض المرض فلماذا لانسارع إلى حل المشاكل ذاتها، لماذا نترك المشاكل ونقفز فوقها لنعالج مفرزات لهذه المشاكل».

«نحن جميعنا ندرك ذلك وهم يدركون هذا أيضاً إننا نقرأ في جملة ما نقرأ الكثير مما يرمون إليه من خلق هذه الحملة بعض ما يرمون إليه هو وقف النضال وخاصة النضال المسلح من أجل القضايا العادلة للشعوب».

وقال الرئيس الأسد: «الخط واضح بالنسبة لنا بين الإرهاب والتحرير بين الإرهاب والمقاومة، والإرهابي مجرم، الإرهابي مرتزق، الإرهابي مرتبط في كثير من الأحيان بل في أغلبها خارج شعبه وأمته، أما المحرر، أما المقاوم المناضل، فهو المؤمن بقضية المناضل من أجل الشعب الذي يرقى في ايمانه تدريجياً إلى أن يصل إلى حد استعداده في كل لحظة لأن يموت شهيداً من أجل قضيته بلاده».

إن كل من تمعن في هذه المطالعة البالغة الدقة والوضوح والحزم والجرأة البعيدة النظر في التعامل مع موضوع الإرهاب يلحظ اليوم كم هي أكثر تعبيراً وشمولية في الإجابة على الأسئلة التي تطرح هذه الأيام، وتقدم صيغة عملية وهي تشكيل هيئة دولية لتحديد معنى الإرهاب وتمييزه عن أعمال المقاومة الوطنية المشروعة، - أن الرئيس الأسد الذي كان يدرك أن دعوته لتشكيل لجنة دولية لتضع تعاريف للإرهاب وللأعمال الإرهابية وتضع أسس مكافحة الإرهاب والخطوط الفاصلة بينه وبين نضال الشعوب من أجل قضاياها وتحرير أراضيها لن تلقى تأييد الولايات المتحدة وبريطانيا وحليفتهما إسرائيل.

لكنه كان يطرح التحدي أمام الآخرين للفرز بين الإرهابي من غير الإرهابي وليؤكد أن سورية لايرهبها أحد وهي صاحبة قضية عادلة ونبيلة في مواجهة أبشع احتلال عرفه التاريخ وهو الاحتلال الصهيوني للأرض العربية وأن سورية ستبقى تقف بقوة مع كل مناضل في لبنان وفلسطين ومع كل قضية عادلة.

وقد عبر الرئيس الأسد عن رفضه لأي تهديد أو ترهيب لجعل سوريا تتخلى عن هذه الثوابت بقوله: لقد ولى العهد الذي كان فيه المستعمرون يقررون المسار والمصائر في منطقتنا، ولى إلى غير رجعة ولى للأبد.

بعد هذا الكلام للرئيس الراحل واجهت سورية بقوة وحزم وعزيمة وإصرار كل الضغوط وتصدت للإرهاب الأمريكي الإسرائيلي والذي تجلى في:

- محاولات تخريب الأمن والإستقرار داخل سوريا.

- خلق الفتنة في لبنان لاستنزاف سوريا.

- الغزو الصهيوني للبنان والذي تبعه دخول القوات الأطلسية إلى بيروت.

- الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على لبنان والقوات السورية.

وتمكنت سورية بقيادة الرئيس الراحل من مواجهة كل هذه المحاولات والاعتداءات وخرجت منها منتصرة وأقوى مما كانت عليه.

وكانت آخر المواجهات شراسة التي خاضها الرئيس الراحل بصلابة وثبات لايتزعزعان دفاعًا عن حق وشرعية المقاومة في مقاتلة الاحتلال الصهيوني، العدوان الإسرائيلي على لبنان ١٩٩٦ والذي تم التمهيد له بحشد أمريكا لدول العالم في مؤتمر شرم الشيخ من أجل إرهاب سوريا ولبنان وإجبارهما على التخلي عن الاستمرار في دعم المقاومة الوطنية اللبنانية وبالرغم من ذلك فقد خرجت سوريا والمقاومة في لبنان منتصرة على العدوان وعلى الضغوط لابل حققت انتصارًا وقلبت المعادلة رأسًا على عقب وانتزعت من خلال تفاهم نيسان اعترافًا صهيونيًا وأمريكيًا يحصل أول مرة بحق المقاومة بالاستمرار في مقارعة القوات الإسرائيلية وتحييد المدنيين على الجانبين.

هكذا كان الرئيس الراحل قائدًا صلبًا لايساوم على المبادئ والثوابت الوطنية والقومية، لم يقبل لحظة التخلي عن المقاومة، ورفض كل الضغوط وعندما كانت تشتد هذه الضغوط كان يزداد صلابة وقوة وتمسكًا بمواقفه فهو كان يدرك أن الحق والقضية العادلة والتمسك بالمواقف المبدئية والدفاع عنها تحتاج إلى قوة وجرأة وثبات وعزيمة وإصرار.

إذا كنا نتوقف أمام هذه المواقف للرئيس الراحل في ذكرى رحيله فلأننا نواجه هذه الأيام ظروفًا شديدة التعقيد وتواجه معها أمتنا العربية وقضيتنا المركزية فلسطين خصوصًا بعد الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق تحديات خطيرة تتطلب الاسترشاد بهذه المواقف خاصة وإنها تكاد تكون في الكثير منها إذا لم يكن كلها راهنة وتشكل سلاحًا مهمًا وفاعلاً في نضالنا العادل والمشروع دفاعًا عن الحقوق العربية والأمن القومي في مواجهة الاحتلال الصهيوني ومحاولات إعادة المنطقة إلى عصور الاستعمار القديم الذي ولى عهده كما قال الرئيس الأسد.

المراجع

- كتاب استراتيجية الأسد للكاتب حميدي العبد الله
- كتاب حافظ الأسد للكاتب هاني خليل.
- خطب وتصريحات الرئيس الأسد.
- مقابلات مع الصحافة.
- مجلة المناضل التي تصدر عن حزب البعث العربي الاشتراكي.

المواطنة في أقوال القائد الخالد وسلوكه

أ.د. حسين جمعة(*)

١. تقديم:

لو قرأ أحد منا التاريخ الإنساني لأيقن بأن هناك أشخاصًا صنعتهم أحداث معينة عُرفوا بها دون غيرها.. وبها يذكرون كلما ترددت على ألسنة الأجيال.. وتظل هذه الأحداث عادةً ذات طبيعة فردية مستندة إلى أصحابها.. بينما هناك أحداث أخرى تكتسب صفة الديمومة، وتتصف بالظاهرة الجماعية والاجتماعية؛ لتغدو تاريخًا لشعب بأكمله، ولأمة من الأمم تعبر عن آمالها، وتستجيب لكل طموحاتها.. وتسعى إلى بناء واقعها ومستقبلها.

(*) أ. د. حسين جمعة: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب. رئيس جمعية البحوث والدراسات. أستاذ الأدب العربي في جامعة دمشق.

وبهذا لم تعد هذه الأحداث ذات بعد آني زماني، أو ذات ارتباط فردي، إذ تحولت إلى حقائق ناصعة بعد أن أدت دورها في خدمة الوطن والأمة..؛ ومن ثم تحوّل صانعوها إلى قادة استثنائيين؛ أي إلى رجال تاريخيين من نوع خاص. ولعل هذه الأبعاد كلها تعبر عنها مقولة الراحل الخالد «إننا لا نستطيع أن ننكر قيمة الأشخاص في مسيرة التاريخ[1]».

ومن ثم نقول:إنَّ أي باحث في شخصية القائد الخالد، ممارسة وفكرًا، يلحظ أن مقولته تلك أكثر انطباقًا عليه ـ رحمه الله ـ ... ففي ذاته تمثل الوطن والأمة؛ وفي عقله انطبع مفهوم القيم النبيلة الممتدة امتداد الأصالة إلى العروبة والإسلام.. فالمناقب السامية تجسدت في سلوكه وفعله، وغدت صناعة التاريخ بنية متكاملة والإنسان كيف يفكر كذلك يكون[2]. هكذا كانت شخصيته التي ارتبط بها تاريخ سورية الحديث.. فلا يستطيع أحد أن يتجاوزه .. اعترف له العدو قبل الصديق بأنه رجل المواقف الصعبة، وصاحب النظرة الثاقبة؛ وباني سورية الحقيقي..

إن الرؤى المتألقة التي حملها فكر القائد الخالد بين جوانحه كالحجر الملتهب كانت تقودنا مرة بعد مرة إلى آفاق لانستشف كنهها؛ فإذا بالتاريخ والأحداث يثبتان رؤيته على صعيد التطبيق .. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد أو تحصى على الصعيد السياسي الوطني والقومي؛ وعلى الصعيد الاجتماعي والثقافي...

ومن هنا يمكن أن نتحدث عن المواطنة في فكر القائد الخالد؛ لا على اعتبار ارتباطها بزمان ما ، أو مكان ما، ولكن على اعتبار أنها غدت قوانين منضبطة بكل تجلياتها الفكرية؛ ومن بعد جسدت روح المواطنة المبدئية التي تستجيب لكل تطلع قومي إنساني بما اختزنت من استشراف للبعد الأخلاقي. وهي في الوقت نفسه تستجيب لكل مرحلة من مراحل البناء: لما تتصف به من الدقة وقابلية التطبيق في زمن غدا الكلام رفثًا وعبثًا على الحياة الشريفة، وغدت ثقافة الكلام للكلام هدفًا عند كثير من الناس.. فالمواطنة في أقواله وأفعاله وفي كل سلوك له عُدَّت مصدرًا روحيًّا للعديد من الأفكار والمبادئ الحضارية لكل باحث منذ انطلاقة الحركة التصحيحية في ١٦/١١/١٩٧٠م؛ إذ صارت مجتمعة توحي بآراء تلقائية لكثير منا، وتوجه أذهاننا وفعلنا. لهذا غدت مدار عناية الباحثين شرقًا وغربًا إليها يفدون،

(١) انظر الثورة والثائر (ص٦) د. اسكندر لوقا - منشورات مؤسسة الشبيبة ١٩٨٨م.
(٢) انظر حافظ الأسد (قيم فكرية إنسانية) ص١٩- د. اسكندر لوقا - مؤسسة الشبيبة - دمشق (١٩٨٩م).

وعنها يصدرون في آلاف الكتب التي ظهرت حتى الساعة.. لأنها شكلت حالة فريدة من النهوض الوطني والقومي.. وحققت لسورية نهضة حضارية بديعة على مختلف الصعد الداخلية والخارجية...

فحركة الفعل الحضاري الوطني التي تجلت منذ الحركة التصحيحية تجلت - ابتداءً - في بروز الجبهة الوطنية التقدمية في سورية لأول مرة في التاريخ الحديث، وكانت استجابة وطنية خلاقة لوحدة المجتمع بكل تياراته السياسية والثقافية.. ثم هاهي ذي تستمر بحيوية وفعالية في ممارسة البناء على البناء في ظل مسيرة التحديث للرئيس الدكتور بشار الأسد، ساعية إلى تطوير تجربتها كنموذج ديمقراطي سياسي.

إن من يسرّح ناظريه في كل مقولة للقائد الخالد في مجالات البناء كلها يدرك أن بناء الذات الوطنية كان الهم الأول الذي حمله بين جوانحه.. وقد ربط قيمة الانتماء للوطن ثم الأمة العربية بكل قيم الخير والمبادئ الأخلاقية.. حتى صار الانتماء إلى الوطن الحر... يشكل الحالة الجوهرية الكبرى المرتبطة بالعمل المخلص الدؤوب وبالكفاءة العالية ..إذ أضحى المواطن أساس البناء الوطني بما يتميز به من حس عال بالمسؤولية؛ من دون رقيب أو حسيب إلا رقابة الضمير.. فالمواطن الإنسان مثّل في فكر القائد الخالد بؤرة الحياة وهدف المواطنة الحق باعتبارها الأصل الذي تتبع منها بقية القيم الفاضلة.. وباعتبارها تتصف بالنزوع الموضوعي والمعرفي والإنساني..

فالمواطنة النزيهة الشريفة المرتبطة بالأرض والتراث والمعرفة هي القضية الأولى التي كان يرمي إليها.. لهذا جعل كل مؤسسة اجتماعية ونقابية صاحبة القرار في مجالها؛ وهي المسؤولة أمام التاريخ والوطن والأمة عن قراراتها...

ولهذا كان علينا أن نتحدث عن المواطنة كما تجلت في أقواله وسلوكه وفعله؛ لاتبقى في حيز البعد التاريخي، ولكن لتكون على دوام الزمان الوجه الأمثل الذي نلتزم به لصناعة تاريخنا الحديث.

٢- مفهوم المواطنة:

المواطنة - وفق تصور القائد الخالد - ليست مجرد انتماء إلى هذه الأرض أو تلك، بل هي انتماء أصيل مسؤول وحرّ إلى أرض العرب وتاريخها ولغتها وثقافتها، والتفاعل مع قضاياها المصيرية بإرادة صابرة، وعقلية واعية؛ وروح مخلصة؛ ومعرفة علمية ذات مضمون أخلاقي وإنساني...

وهذا يعني أن المواطنة ليست مجرد قوانين تستجيب للولادة والنشأة، وإنما هي صورة حقيقية لمجموعة القواعد الأخلاقية

للسلوك البشري الممثلة لخصائص الإنسان بما هو فاعل في بناء الحياة .. إنها ليست مجرد انتماء إلى مجتمع ما .. في عاداته وتقاليده في الحياة هنا أو هناك... إنها كينونة وجود فاعل في عملية البناء والتطوير تتخلص من صنوف العنصرية والطائفية والعشائرية ... وتتحرر من كل أنماط الانحراف والتخلف والقهر... ومن ثم تتسم بكل فضاءات الروح الإنسانية البعيدة عن التعالي والأنانية .... وهذا كله ما يتجلى في قوله: «المفروض كل واحد في العالم ـ بغض النظر عن دينه ـ مواطن في وطنه»[٣].

فالارتباط بالوطن على أساس استشعار قيم الخير والبناء، والإخلاص له هو الارتباط الجوهري لكل إنسان، لأنه «لاإنسان على الأرض إلا وله وطن» كما قال ـ رحمه الله ـ[٤]. لهذا فالإنسان الحر الواعي النزيه «يجب أن يرتبط بوطنه أولاً»[٥]. ومن ثم يصبح المواطن المثقف الذي نظم نفسه في مؤسسة ما فكرية أو حزبية.. أكثر وعيًا ومسؤولية تجاه وطنه.. ومثل هذا المواطن تغدو مهمته مضاعفة لأنه حمل أمانتين، أمانة الوطن، وأمانة الالتزام بفكر ما... وهي أمانة تجعله خادمًا للوطن وأبنائه؛ لأنه جزء من ترابه وهوائه. «وأرض الوطن تبقى غالية .. وكرامة الإنسان مرتبطة بكرامة أرضه؛ بكرامة وطنه»[٦]... فأي سياسي أو مثقف منتم إلى حزب ما كحزب البعث ـ مثلاً ـ يغدو نضاله التزامًا بالوطن وبالمؤسسة التي ينتمي إليها؛ فعليه «التزام نحو وطنه، وله قضية فيه» كما قال في إحدى عباراته ـ رحمه الله ـ [٧]....

لهذا كله كان يشدد على التفاعل مع الوطن في صميم علاقة القيم النبيلة البانية له؛ فيقول ـ مثلاً ـ: «فلنزد التفاعل بين الأرض والإنسان عمقًا وأفقًا، ولنزد دفء العلاقة بين طاقة الإنسان الخيّرة وعناصر الأرض الخيّرة، فيكون الخير كثيرًا، ويكون الوطن عزيزًا كريمًا»[٨].

من هنا يصبح لزامًا علينا بيان صفات المواطنة وشروطها في فكر القائد الخالد؛ وسلوكه....

٣. صفات المواطنة وشروطها:

إن مسألة المواطنة في فكر القائد الراحل وأفعاله غير قابلة للمناقشة أو

---

(٣) قيم فكرية إنسانية ص ٧٥.
(٤) قيم فكرية إنسانية ص ٧٦.
(٥) حافظ الأسد ـ رمز قومي تاريخي عظيم ـ ص٤٢ ـ سلسلة الثقافة ـ٩ـ اتحاد شبيبة الثورة ـ ١٩٩١م.
(٦) قيم فكرية إنسانية ص ٨٤.
(٧) حافظ الأسد ـ رمز قومي تاريخي عظيم ـ ص٤٢.
(٨) قيم فكرية إنسانية ص٨٤ وانظر المرجع السابق ص٩١.

المساومة؛ لأنها تجسيد لإرادة الخير المطلقة؛ وفعل حي وخلاّق لصيغ التفاعل بين الإنسان والأرض... ومعيار لكل قيم الأخلاق والمبادئ الفاضلة.. وجزء أصيل من انتماء الوطن الصغير إلى الأمة العربية باعتبارها الوعاء الأوسع للوطن كله...

لهذا كان - رحمه الله - ينقش في ذاكرة الأجيال العربية خصائص المواطنة وشروطها؛ فهي مرتبطة بإرادة الخير «وإرادة الخير هي إرادة الله، وإرادة الله فوق كل إرادة»[٩]... إنها تكتسب بهذا الارتباط معنى السمو والرفعة البعيد عن كل تزمت أو تعصب أو طائفية .. ومن ثم فإنها حين ترتبط بالإرادة المطلقة تصبح أبعد ما تكون عن الزيغ والزلل والسقوط في حمأة الفئوية والطائفية و ،،،، فيقول: «إن ما يقينا الزلل أن نتمسك بقيمنا ومبادئنا وأن نشدد على هذه القيم والمبادئ»[١٠].

ولما رأى - رحمه الله - الإنسان منطلق الحياة وغايتها؛ وصار عنده الهدف والوسيلة جعله منتميًا إلى وطن يميزه من غيره؛ إذ جعل الوطن مجسدًا للهوية والإنسان مجسدًا لجوهر الخير وحسن الانتماء.. فالمواطنة ليست أمنية لمجرد الأمنية، وليست رغبة لإشباع النزوات والشهوات.. وإنما هي مسؤولية تتسم بالواجبات والحقوق الموكولة لكل فرد يعيش على أرض الوطن. والمسؤولية فعل مستمر ونضال دؤوب لتحقيق المساواة والعدالة... ومن ثم الحفاظ على حريته... فكل مواطن في هذا الوطن يجب أن يَعُدَّ «نفسه صاحب قضية، عليه أن يتحمَّل وعليه أن يقف الموقف الذي تتطلبه القضية»[١١].. «والقضايا الكبرى دائمًا محفوفة بالمخاطر والصعاب»[١٢].. وأصحابها «يجب أن يكون صبرهم طويلاً»[١٣]. كما عبر عن ذلك بكل جلاء ووضوح...

فالمواطن المؤمن بقضية حرية الوطن ونشر العدالة فيه مواطن صابر قوي لا يلين ولا يضعف أمام الإغراءات والمخاطر... ولو تعرض لشتى أنواع الضغط والإفساد ... فعليه أن «يكافح ظواهر الشواذ، ولو كانت صغيرة، وصغيرة جداً»[١٤].

والمواطن الحر الشريف لا ييئس

(٩) الإرادة والمستحيل ص١٦. د. إسكندر لوقا - مؤسسة الشبيبة.
(١٠) الإرادة والمستحيل ص٨.
(١١) الإرادة والمستحيل ص ٢١-٢٢.
(١٢) الثورة والثائر ص ١٠.
(١٣) الثورة والثائر ص٧.
(١٤) الثورة والثائر ص١٠.

ولايتخاذل، بل يصمم على تجاوز كل مظاهر الزيف والضلال والجبن... والضعف والإخفاق ... لأن هدفه الحق إنما يتمثل بالنجاح الحتمي؛ كما نراه في قوله: «قد نفشل ونفشل ونفشل؛ ولكن مع ذلك لابد من العمل، لا مفر من العمل، ومهما فشلنا فلا بديل إلا أن نعمل من أجل النجاح»(١٥).

فالعمل الجاد الدؤوب الذي لا يعرف صاحبه الكلل والقنوط أساس البناء في هذا الوطن، ومن ثم شرط فعّال للمواطنة... على ألا يقع صاحبه في مهاوي المصلحة الفردية أو الفئوية أو الطائفية... وعلى ألا يسقط في أتون التشتت والتمزق والانهيار... فالمواطنة ممارسة موضوعية منتجة، لذلك شدد - رحمه الله - على الرؤية الحرة الموضوعية فقال: «النظرة الموضوعية للأمور تعني عدم ربطها بمصالح عابرة؛ وخاصة الانتهازية منها»(١٦). ثم أوضح بجلاء مفهوم هذه الرؤية الموضوعية النابعة من الوطن فقال: «عندما أطالب بهذه الممارسة أعني أن هذه الممارسة ممارسة موضوعية نزيهة تنطلق من الحقيقة وحب الوطن»(١٧).

فالمواطنة في فكر القائد الخالد تتجلى بأبهى خصائصها، وأعلى مراتبها أنها حرب ضروس على الفساد ورموزه، وعلى الانتهازيين الوصوليين الذين تسلقوا بمطامعهم وشهواتهم على شجرة الوطن الجميلة تحت شعارات برّاقة زائفة .. ضالة مضللة، يعجبك منهم كثرة الكلام، وبهرج الزيف والنفاق.. بينما هم معاول هدم في جسد الوطن... ولاسيما أولئك الذين احتلوا مراكز قيادية في مؤسساته.... لهذا كان - رحمه الله - يضع الدواء لكل داء في هذا المجال حيث يقول «عندما نرى مسؤولاً - على أي مستوى من المستويات - لايتحمل مسؤوليته كاملة، ولا يقوم بما ترتبه هذه المسؤولية يجب أن نندّد به في كل مكان»(١٨).

وهو حين توجه إلى كل إنسان لكي يكون مسؤولاً عن بناء الوطن بناءً سليمًا؛ بإصلاح الفساد أينما وقع لم ينس أن يشير إلى أن الإصلاح يبدأ بالذات؛ لأن صلاح الوطن وتقدمه ونموه يبدأ بصلاح الفرد... وصلاح النفوس هي «أن نعالج أنفسنا من الداخل»(١٩).

ومن هنا نصبح قادرين على مجابهة

(١٥) الإرادة والمستحيل ١٩ وانظر - قيم فكرية إنسانية ٢٢.
(١٦) قيم فكرية إنسانية ١٦١.
(١٧) خطاب القائد الراحل أمام مجلس الشعب للمرحلة الدستورية الثانية ١٢/٣/١٩٨٥م.
(١٨) المرجع السابق.
(١٩) حافظ الأسد - رمز قومي تاريخي عظيم - ٦٢.

المنافقين والانتهازيين المتخاذلين وأصحاب النفوس الضعيفة المهترئة التي برزت سارقة لكل خيرات الوطن ولهذا قال: «كلما ارتفعنا في سلم المسؤولية وجب أن نكون قدوة وعن قناعة»[٢٠]. «وإن ظاهرة التقصير تقل عندما يدرك كل الناس وكل جهة مسؤوليته بشكل محدد»[٢١].... ولهذا لن يستطيع أصحاب الضمائر المتخلفة العفنة، والمرتشون والانتهازيون «أن يبرزوا، أو يظهروا على السطح الواحد تلو الآخر»[٢٢].

فالمسؤولية نحو بناء الوطن تؤسس لشروط المواطنة النزيهة العادلة الشريفة القائمة على العمل والكفاءة فيه.. لهذا تغدو المواطنة حالة وجدانية سامية كما أرادها لنا القائد الخالد حيث قال: «لابد أن نعيش حالة وجدانية عالية، ومثل هذه الحالة هي التي تجعلنا قادرين على العطاء والتضحية، وتحمّل المسؤولية؛ فمع هذه الحالة ينتفي التردد، ومع هذه الحالة ينتفي التقصير، ومع هذه الحالة يتوافر وينمو حسّ المسؤولية الذي نحن بأمس الحاجة إليه»[٢٣].

فالمواطنة بهذه الخصائص ترتفع في درجات القيم لتتربع في أعلى درجات السلم الأخلاقي، فالمواطن نزيه شريف مسؤول حر منضبط؛ لا يخدع، ولا يخون؛ ولا يجامل ولا ينافق، ولا يضيع وقت الوطن.. لأنه صادق لا يكذب؛ يؤدّي واجبه بإخلاص وموضوعية وإتقان ... ويتصدى للفساد بكل قوة، ويحكم على أي قضية مهما كان نوعها وشأنها بحياد ونزاهة لأنه قاض عادل ولو كان مع نفسه.. ولأنه ثائر، والثائر يتصف بصفات «الصدق والصراحة والشجاعة والوضوح والرؤية الشاملة»[٢٤]. فهو لا يجبن ولا يضعف، اجتماعي مجبول بالتعاون مع أبناء الوطن.. ينظر إلى كل مشكلة في واقعها بمنهج علمي سديد وهو يحلل أسبابها ونتائجها ... فأي أمر - كما قال رحمه الله - «يبدأ بفكرة؛ بتصور، ثم يبدأ بالتطبيق ... (فليس) أي عمل هو الأنموذج؛ في الحياة يوجد دائمًا تطوير، خلال الممارسة تظهر صور أفضل»[٢٥]. و «إذا كانت الموضوعية تفرض مسافة بين الواقع والطموح، فإن الموضوعية نفسها تفرض دفع هذا الواقع وتطويره نحو

(٢٠) قيم فكرية إنسانية ٢٥-٤٣.
(٢١) المرجع السابق ٢٦.
(٢٢) حافظ الأسد - رمز قومي تاريخي عظيم - ٢٣.
(٢٣) خطاب القائد الراحل أمام مجلس الشعب للمرحلة الدستورية الثانية ١٢/٣/١٩٨٥م.
(٢٤) الثورة والثائر ٦.
(٢٥) حافظ الأسد - رمز قومي تاريخي عظيم - ٢٣.

الطموح بإمكانات الواقع»[26]؛ وإذا «لجأ الإنسان إلى عقله فلا شيء مستحيل، ولا توجد مشكلة لا حل لها إذا كان المرء عمليًا وموضوعيًا، ويستطيع أن يقول الحق»[27].

فالمواطنة بهذه الخصائص التي أسسها القائد التاريخي انتماء عقلي واع وموضوعي ينتهي إلى إقامة الحق والعدل؛ لتنمو الشخصية الوطنية والإنسانية مجبولة بحب المساواة، ونيل الحقوق المستندة إلى الكفاءة والموضوعية.. فالوطن بصفة المواطنة هذه إنما هو صورة خلاّقة وحيوية لظاهرة الجماعة المتوازنة والمتعاونة التي تشعر بأن الوطن جزء من كينونتها تدافع عنه بروحها، وتسيجه بنور عيونها، وتبنيه بدمائها. فالمواطنة لم تعد قلقًا وعبئًا ثقيلاً، بل صارت وجوداً يشترك أبناؤها بالمقدار نفسه من الحقوق والواجبات.. ليس هناك غلبة لأحد على أحد، ولا لفئة على أخرى .. فلم يعد هناك أحد يستغل ابن بجدته أو يجعله أجيرًا ذليلاً في معمله أو مزرعته؛ فالعبودية رحلت إلى الأبد.

فالمواطنة . وفق تصور القائد الخالد . فعل حيوي عادل يمارس في الذات وفق حوار دائم فيها؛ وبين الذات والآخر على صعيد المجتمع على أساس الاحترام البناء.. لأن كل أمر مضبوط بنظام العقل الحر الواعي، وبنظام الحق والعدل.. فالقانون يسوي بين الناس في المواطنة.. و«الأفكار الباطلة لابد أن تندثر مع الزمن»[28]. و«عندما نحسن الدفاع عن الحق والعدل فلابد أن يسودا»[29]. و«لاشيء يستقر إلا الحق في نهاية الأمر»[30]. وفضلاً عن هذا كله فقد ركز كثيرًا على مفهوم حقوق الإنسان في وطنه فقال: «حقوق الإنسان ليست مجرد كلمات يقولها إنسان، أو يعبر عنها حقوق الإنسان: هي صيغة أو مفهوم اقتصادي وثقافي وسياسي وعسكري، وغير ذلك»[31].

ولما كان المواطن رمز الصدق والشجاعة والنضال، فإن كل ثائر فيه صادق في كلامه، مستقيم في سلوكه، وإذا كانت هناك فرص للخيانة فهي ضيقة[32]... أمّا

(٢٦) حافظ الأسد . رمز قومي تاريخي عظيم . ٩١.
(٢٧) الإرادة والمستحيل ٢١ وانظر قيم فكرية إنسانية ١٤١و ١٦٥.
(٢٨) قيم فكرية إنسانية ١٤١.
(٢٩) قيم فكرية إنسانية ١٤١.
(٣٠) قيم فكرية إنسانية ١٣٩-١٤٠.
(٣١) قيم فكرية إنسانية ١٤١.
(٣٢) أنظر قيم فكرية إنسانية ٢٧-٣١ والثورة والثائر ١١-١٤.

الأصل فالمواطن متشبع بالقيم السامية[33]. ومعبأ بقضايا الوطن[34]، ولا سيما من كان قائدًا وثائرًا فيه.. فالقائد الثوري أول من يضحي وآخر من يستفيد؛ ولذلك احتل الثائر الشهيد المنزلة العليا في الدنيا والآخرة، والشهادة ليست إلا «استمرارًا للحياة والوجه الأنصع والأرحب لها»[35].... فالشهادة «قيمة القيم وذمة الذمم»[36] و«إنَّ اللحظة التي يبلغ فيها المرء أعلى مراتب الإنسانية هي تلك اللحظة التي يسير فيها نحو الشهادة، وهو قانع ببداهتها»[37]. و«من لا يستطيع أن يدافع عن الوطن بكفاءة يجب أن يذهب»[38]. «لأن الوطن لن يكون منيعًا بغير الشهادة»[39].

فحين يضحي الشهيد بنفسه يحيا الآخرون حياة حرة كريمة، وحينما جسدت الشهادة خلوده أشعرت الآخرين بوجودهم الحر الكريم... فهو «أشرف من أحب الوطن وأعطاه، وأشرف من أحب الشعب وأعطاه؛ وأشرف من أحب القيم الفاضلة وأعطاها»[40]. وفي سبيل قضية الوطن ترخص كل تضحية[41] عند كل مواطن؛ بنفسه لأنه عاهد وطنه وأمته وشعبه فصدق[42]، وكان مشعل نور تهتدي به الأجيال في كل وقت[43].

هكذا مجد القائد الخالد الشهادة والشهداء، وجعلهم «أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر»[44]. تجاوزوا مفهوم الوطنية والقومية ليصبحوا «أحياء في ضمير القيم الخلقية والحضارية والإنسانية»[45].

لهذا من حق الشهداء علينا أن «نحني الهامات خشوعًا وإجلالاً تحية لأرواحهم» ومن «حقهم علينا أن نسلك دربهم الذي سلكوه»[46].

(33) انظر خطابه في مجلس الشعب 1985/3/12م.
(34) انظر قيم فكرية إنسانية 24.
(35) الشهادة والشهداء ص90 ـ د. اسكندر لوقا ـ مؤسسة الشبيبة (رقم1)
(36) الشهادة والشهداء ص7 ـ د. اسكندر لوقا ـ مؤسسة الشبيبة (رقم1)
(37) الشهادة والشهداء ص7 ـ د. اسكندر لوقا ـ مؤسسة الشبيبة (رقم1)
(38) قيم فكرية إنسانية 29.
(39) الشهادة والشهداء ص9.
(40) الشهادة والشهداء ص18.
(41) الشهادة والشهداء ص9.
(42) الشهادة والشهداء ص12.
(43) الشهادة والشهداء ص13.
(44) الشهادة والشهداء ص11.
(45) الشهادة والشهداء ص16.
(46) الشهادة والشهداء ص15.

وهكذا عاشت فكرة الشهادة في فكر القائد الخالد، أزهرت في تربة الوطن؛ ونمت في أريج القيم؛ وخلدت في ضمير البشرية لذلك كم كان يرغب في أن يكون بين عداد الشهداء من أبناء الوطن، وأن الإنسان الوطني الحق هو من يموت في الأزمنة المناسبة إذا استطاع.. لهذا كان قد خاطب أعضاء الجبهة الوطنية التقدمية بقوله: «آمل ألا تنتهي حياتي إلا بالشهادة»[٤٧].

فالمواطنة ـ وفق تصور القائد الخالد ـ تزداد درجة في السمو والنبل والوفاء والوعي والمسؤولية والنزاهة، وتزداد ألقاً وبهاءً وحرية إرادة، وقدرة اختيار حينما يتوجها صاحبها بالشهادة... أما المرتزقة، الذين يعيشون جرياً وراء الشهوات فإننا غرّتهم الحياة الدنيا، فأصبحوا قليلي الهمّة، ضعاف المروءة؛ عاجزي العقل، فهم منحرفون في ذواتهم، منبوذون صغار في الدنيا والآخرة وإن استشعروا في ذواتهم العظمة والرفعة... لأنهم لم يفكروا لحظة بالشهادة من أجل الوطن واستخفوا بمن يضحي بنفسه في سبيله...

وإذا كان أكبر طموح لهؤلاء المرتزقة الجري وراء اللذات من طعام وشراب وشهوات فإن التاريخ كفيل بكشف أمثالهم من ذوي النفوس المريضة الضعيفة التي آثرت منافعها الذاتية المحدودة والحقيرة على حب الوطن.. فأمثال هؤلاء داسوا كرامة الوطن، وجعلوه مادة لأطماعهم وشهواتهم...

ولهذا شن القائد الخالد ـ رحمه الله ـ حملة عنيفة على كل المرتزقة، ولما كان التاريخ كفيلاً بفضح أمثالهم[٤٨] فإن الممارسة الفعلية تثبت أن «المرتزق لايضحي، وليس جاهزاً لأن يستشهد من أجل قضية، وعندما يموت المرتزق يموت خطأ»[٤٩].

تلك هي خصائص المواطنة وشروطها ـ في تصور فكر القائد الخالد حافظ الأسد ـ جعلها متكاملة في سماتها فلا تنفك سمة عن الأخرى؛ وتتأثر بأختها عند كل مواطن حر شريف...

لهذا ربط العدل والمساواة والتضحية والصبر والعقل والإرادة بالحرية؛ فالمواطنة إباء وكبرياء لأنها الوجه الأكمل للحرية المنظمة المنتمية الفاعلة... فالمواطن المنتمي إلى أرضه وشعبه وتراثه ولغته وقيمه صاحب قضية الحرية المسؤولة؛ وعليه أن يمارس حريته كاملة في ظل نظام شعبي

(٤٧) الشهادة والشهداء ص٢١.
(٤٨) انظر الثورة والثائر ص١٦.
(٤٩) الثورة والثائر ١٨.

يلبي طموحاته ورغباته.. فأي مواطن نزيه صادق حر كريم ينعتق في إطار الرغبة والأنانية والشهوية بإرادته المطلقة من موقف الفرد المنفلت إلى موقف الفعل الجماعي الملتزم طواعية وبإرادة صادقة بقيم الجماعة ونظمها .... لأن هذه النظم كفيلة بتحقيق رغباته؛ والحفاظ على حريته دون أن تصبح عدوانًا على أحد... ودون أن تصبح قتلاً لإبداعه أو أن تجعله مجرد تابع لها..

لهذا كله كانت الحرية مرتبطة بمفهوم المواطنة الجماعية، وإذا أراد الإنسان تحقيق إبداعه الذاتي وتطويره ينبغي ألا يكون ذلك اعتداء على الآخرين وحرية الوطن وقدسيته... فالتفاعل الحر يصبح في صميم الجماعة الوطنية ضرورة مشروعة وملحة.. ومن هنا حققت الحركة التصحيحية هذا المفهوم الشمولي للحرية الوطنية بالسعي الدؤوب إلى إيجاد دستور ناظم لحياة المواطنين.. وإذا كانت «الحياة تقدم لنا كل يوم شيئًا جديدًا» فعلى المرء أينما كان موقعه ومنزلته «أن يتقيد بنظام»[50]...

وبهذا انتقلت أقوال القائد الراحل من حالة الإرادة الثورية التي تأسست في ثورة الثامن من آذار إلى حالة الشرعية الدستورية للوطن والمواطنين.. ومن ثم نظمت الحياة العامة بانتخاب مجلس الشعب، ومن بعد تحقق مفهوم للحرية المنظمة للوطن في تجليات أوسع وأشمل تصل إلى كل بلدة وقرية فتحقق نظام الإدارة المحلية الذي يتيح للهيئات الصغرى في كل بقاع الوطن التعبير عن إرادتها بملء الحرية...

ومن ثم توجت على الصعيد السياسي بتشكيل الجبهة الوطنية التقدمية؛ ليثبت القائد الخالد مفهوم التعددية السياسية وفق نظام ارتضته الأحزاب الداخلة فيه؛ بعد أن اتفقت عليه...

ولعل كل متأمل للمرحلة التاريخية التي تحققت فيها هذه الأنظمة المؤسساتية إنما تؤكد وعيًا مبكرًا بمفهوم حرية المواطن، واختياره الطوعي لأي حزب ينضم إليه... ومن ثم غدت الحرية مناخًا نوعيًا لتشبع فكر القائد الخالد بها، لهذا قال: «نحن لانخشى الحرية، وإنما نخشى فقدان الحرية»[51] فالحرية عطاء؛ واحترام للآخر قائم على التعاون والمساواة، لا على اغتيال هذه الحرية.

إنَّ نظام الحياة الديمقراطية الشعبية

(٥٠) الثورة والثائر٥١.

(٥١) حافظ الأسد: الرؤى الاستراتيجية للبناء الوطني والنضالي القومي - ص٦٢ - سلسلة الثقافة - ١١ - مؤسسة الشبيبة -١٩٩٩م.

ما كان ليتحقق لولا الوعي الفذ للقائد الخالد؛ فقد أدرك بحسه الوقاد، ورؤيته الحادة أن تقدم الوطن، ونهوضه وارتقاءه لا يمكن أن يتحقق إلا إذا استحق المواطن حريته، ومارسها كاملة في شكل منظم بعيد عن العبثية والفوضى والنزوات الفردية... ولا يمكن للوطن أن يبلغ مصاف الشعوب الأخرى ما دامت حياة أبنائه في كل أرض منه قائمة على إرث فئوي طائفي، وعلى تشتت مبعثر يتشظى إلى حالات قاتلة ومخيفة سواء على صعيد الأفراد أم الكتل الجماعية والحزبية وغيرها.

إنَّ **القائد الخالد** ارتفع بمفهوم الحرية المنظمة إلى حالة وطنية مجمّعة ومتقدمة بالقياس إلى كل ما كان يمارس قبل ذلك... وإذا كانت حالة الحرية المنتظمة في مؤسسات نقابية وشعبية قد شابها بعض الانحراف فليس العيب في النظام نفسه، بل العيب في كل من يمارس هذا النظام، وهو ما نبه عليه القائد الراحل ... فالشعب يمارس سلطاته بنفسه، ومؤسساته تلبي له ذلك كله، وهل الديمقراطية إلا «أن يحكم الشعب نفسه بنفسه»[٥٢]، كما قال أرسطو في يوم ما..

والحرية بمفهومها الجماعي المنظم ممارسة وطنية، و«الوحدة الوطنية معناها ألا يبقى مواطن خارجها»[٥٣]...

هكذا كان يؤكد الرئيس الخالد حافظ الأسد جوهر المواطنة وبناء الوطن؛ فقال: «فلنستمر في بناء الإنسان المؤمن بوطنه؛ الصوفي في حب أرضه، العاشق لمجد بلاده»[٥٤].

ومن هنا نستشف أن الوطنية والمواطنة تظل مشوهة الخصائص والكمال إن لم ترتبط بالانتماء القومي وبعده الإسلامي .. لأن الانتماء القومي هو الوجود الوطني الأرحب؛ إذ قال . رحمه الله .: «إنَّ من لم يمارس ذاته القومية لا يمارس وجوده كاملاً»[٥٥]. لهذا ربط بين الوطن الصغير (سورية) والوطن الكبير (الأمة العربية) برباط وثيق فقال: «حتى تكون الأمة العربية بخير وقوية يجب أن تكون سورية بخير وقوية»[٥٦]. وقال: «إنَّ شعبنا في سورية هو شعب عربي أصيل ينهل من تراثه وتاريخه مستمدًا لا ينضب من المثل والقيم السامية»[٥٧]. لهذا فإن نضال أي جزء من أرض الأمة إنما هو نضال قومي مشترك

(٥٢) حافظ الأسد: الرؤى الاستراتيجية للبناء الوطني والنضالي القومي. ص٥٣.
(٥٣) قيم فكرية إنسانية ٧٢.
(٥٤) قيم فكرية إنسانية ٨٩.
(٥٥) الإرادة والمستحيل ٩ وانظر قيم فكرية إنسانية ٧٢.
(٥٦) الإرادة والمستحيل ١٠.
(٥٧) حافظ الأسد: الرؤى الاستراتيجية ٦٨.

فقال: «إذن فلنناضل لمحو آثار الاستعمار من عموم وطننا العربي؛ ولنمح من أرضنا العربية في مغربها ومشرقها كل أثر لهذا الاستعمار»[٥٨].

وإذا كانت حرية الأمة العربية ضرورة للأوطان الصغرى فإن وحدتها أكثر ضرورة لها، لأن الوحدة ضمان لها من الغزو الخارجي فقال: «وحدة العرب في قوتهم، وأن حرية العرب في وحدتهم»[٥٩].

فالعلاقة بين الذات الوطنية والذات القومية علاقة مصيرية وحتمية تستند إلى التفاعل والاتفاق الحر البعيد عن التنابذ والافتراق ... والمنزَّه عن العصبية والعنصرية والوهم والاعتداء والتكبر والقهر والظلم للشعوب الأخرى... فالانتماء القومي تجسيد وقائي دفاعي إنساني لكل جزء من أجزاء الأرض العربية؛ ولا يطمع في أرض الآخر.

ومن هنا يغدو الدفاع الوطني عن الذات جزءًا لا يتجزأ من الدفاع القومي، مهما عانى فيه المواطن العربي من حالات الضعف والإخفاق والاستعباد والاستعمار. وليس أمامه إلا الصمود في وجه أطماع الصهاينة والطامعين في أرض العرب... مهما ضخمت مصاعبه، ومرَّ بظروف صعبة.. لذلك قال القائد الخالد: «فالتسليم ليس خيارنا... وإذا كنا قد مررنا بظروف صعبة، ومازلنا نمر بها فيجب ألا يتسرب الضعف إلى نفوسنا أبدًا»[٦٠].

هكذا تجلت قضية المواطنة في فكر القائد الخالد حافظ الأسد وأقواله وسلوكه على صعيد الذات الوطنية والقومية ... فكانت ترتقي بكل أشكالها وماهيتها لتصبح جزءًا من الوطن والأمة... ولتؤكد أنها كينونة مستمرة في حركة التاريخ ترتبط بالمواقف، بمثل ما ترتبط بالوجود.. وتجسد إرادة الخير المطلق في التضحية والإيثار، وبناء القيم النبيلة المكثفة بالشهادة والصدق والإخلاص والعدل....

فالمواطنة انتماء حرٌّ واعٍ ومسؤول وموضوعي للذات الفردية التي اكتسبت نزوعًا إنسانيًا رفيعًا.. ليست قائمة على الوهم والعنصرية والتعصب، بل متجذرة في التاريخ والتراث والقيم الخالدة والأصيلة ... هكذا صورها الراحل الخالد وهكذا اصطبغت بها أحداث التاريخ...

(٥٨) الإرادة والمستحيل ١١ وانظر حافظ الأسد: رمز قومي تاريخي عظيم ١٠٠.
(٥٩) حافظ الأسد: رمز قومي تاريخي عظيم٥٧.
(٦٠) حافظ الأسد: رمز قومي تاريخي عظيم ١٢٧.

فلسفة التنمية الاجتماعية
في فكر القائد
الخالد حافظ الأسد

د. أديب عقيل

للقيادة دورٌ اجتماعيٌ رئيسيٌ يقومُ بهِ فردٌ (القائدُ) أثناء تفاعلهِ مع غيرهِ من أفرادِ الجماعةِ ويتسمُ هذا الدورُ بأنَّ مَنْ يقومُ بهِ يكونُ له القوةُ والقدرةُ على التأثيرِ في الآخرين وتوجيهِ سلوكِهم في سبيل بلوغِ هدفِ الجماعة. والقيادةُ سلوكٌ يقومُ بهِ القائدُ للمساعدةِ على بلوغِ أهدافِ الجماعةِ وتحريكِها نحو الأهدافِ وتحسينِ تفاعلِها الاجتماعي وتماسكِها وتيسيرِ أمورِها.

---

* د. أديب عقيل: باحث من سورية، دكتوراه في علم الاجتماع.

فالقائدُ من يمتلكُ القدرةَ المعرفيةَ المعمقةَ والشموليةَ بحيثُ يستطيعُ أن يرى ما يحدثُ في إطارِ تطورِهِ المستقبليِّ التاريخي، فلا تبعدُهُ الحوادثُ المتلاحقةُ أو المتشابكةُ عن رؤيةِ آفاقِ المستقبلِ بوضوحٍ.

من خلالِ تناولِنا لفلسفةِ التنميةِ الاجتماعيةِ لفكرِ القائدِ المعلمِ السيدِ الرئيسِ حافظ الأسد نجدُ المبادرةَ والمثابرةَ والطموحَ والتفاعلَ والرؤيةَ المستقبليةَ والتمسكَ بالقيمِ الروحيةِ والإنسانيةِ والمعاييرِ الاجتماعيةِ والتواضعِ، أنَّ القائدَ عندما يكونُ فوقَ مستوى المديحِ فإنَّ اكتفاءَ البعضِ بالتسابقِ في المديحِ لايفي القائدَ حقَّهُ بل يأخذُ من هذا الحقِ. إنَّ مديحَنا للقائدِ يتجلى قبلَ كلِّ شيءٍ بأن نعودَ أنفسَنا على أن نتحلى ببعضِ مزاياه، وإن نساعده بما يقومُ بهِ وان نكونَ جميعًا عونًا لهُ بدلاً من ان يكونَ بعضُنا عبئًا عليهِ، علينا أن نقتديَ بهِ، ونستبدلَ الكثيرَ من الكلامِ بالكثيرِ من الفعلِ، وأن نقرنَ القولَ بالعملِ في جميعِ نشاطاتِنا. ومن يتتبع سيرةَ حياةِ السيدِ الرئيسِ المناضلِ حافظ الأسدِ، سيلتقي بما لايحصى من الأمثلةِ التي تمنحُ التجسيدَ الكاملَ لملكةِ اجتماعِ العقلِ بالعاطفةِ. وهنا يكمنُ السرُّ الأخلاقيُّ فيهِ الذي يجعلُه يفكرُ دومًا كيف ستكونُ قراراتُهُ المصيريةُ منطلقةً من مصالحِ الجماهيرِ ومحققةً لها.

أولاً- الإيمانُ بقيمةِ الإنسانِ العربي:

لقد نظرَ القائد الخالد إلى الإنسانِ العربي نظرةً عميقةً وأعطاهُ ما يستحقُهُ من تقديرٍ، وطالبَهُ بما يستطيعُ من واجباتٍ، تمكّنُهُ من حياةٍ تليقُ بإنسانيتِهِ وكرامتِهِ الإنسانيةِ، فاعتبَر الإنسانَ غايةَ الحياةِ وهو منطلقُ الحياة وأكدَ على الدورِ التنموي للإنسانِ «يقول أن الثروةَ تنميةٌ، والتنميةُ عاملُها الإنسانُ وأن أهمَّ ما نملكُهُ من عناصرِ القوةِ هو الإنسان» لذلك «نولي الإنسانَ في قطرِنا الأهميةَ الأولى لأنهُ غايةُ كلِ تنمية» لقد أكدَ القائد الخالد على المساواةِ بين الجنسين، وانصفَ المرأةَ وأكدَ على مشاركتِها في كافةِ الفعالياتِ الاجتماعيةِ والسياسةِ والاقتصادية.

إذ «لامجالَ للقولِ أننا نعدلُ الرجلَ ونحنُ نظلمُ المرأة، أو نعدلُ المرأةَ ونحنُ نظلمُ الرجل إنهما شريكان متضامنان في تنشئة الأسرةِ الفاضلة»

يقولُ القائد الخالدُ إن «المرأة في بلادنا تستحقُ أعمقَ التقديرِ والاحترام، وهي جديرةٌ بأن تلقى التعاونَ التامَ والمؤازرةَ الكاملةَ منا جميعًا.».

وحولَ ظاهرةِ العنصريةِ أكدَ القائد الخالد منافاتَها للكرامةِ الإنسانيةِ فهي «عارٌ للبشريةِ لايقبلُ أحرارُ العالمِ باستمرارِهِ» ويدعو إلى محاربةِ العنصريةِ

فيقولُ «المعركةُ ضدَ العنصرية، اينما وجدت، وهي معركةُ البشريةِ كافةً»

ثانيًا- الإيمانُ بالحريةِ وتحقيقِ الذات:

مبدأُ المساواةِ بين الناس من المبادئ الأساسية، فكلُّ الشرائعِ الدينية، اعتبرت ذلك أساسًا للحياةِ والعدلِ والإنصاف، معتبرًا «حرية الفرد هامةٌ جدًا وأساسيةٌ وكلنا نعملُ من أجلِها ونبحثُ عنها»

«حريةُ الفردِ ترتبطُ بحريةِ المجتمع»

هذه الحريةُ لكافةِ أبناءِ الوطنِ دون النظرِ إلى الجنسِ، وأن الأفضليّة تُمنحُ لمن يعطي أكثرَ لهذا الوطنِ، ويكونُ أكثر إخلاصًا لهُ.

ومُنحتْ حريةُ الاجتماعِ، وحقُ الاتصالِ، واجتماعِ الفردِ مع مَنْ يشاء، والتحدثِ أو المناقشة بما يريدُ، أو البحثِ في أمرٍ معين، وهذا ذو أهميةٍ في تكوينِ الرأيِ العامِ وتحقيقِ العدالةِ الاجتماعية، يقولُ القائدُ الخالد «إن الإنسانَ الحر هو الإنسان القادرُ على العطاء، فالحريةُ التي يمارسُها الإنسانُ هي التي توفرُ إمكانَ العطاءِ المتبادلِ بينَهُ وبينَ الحياة، وبالتالي فإن توفيرَ الحريةِ يعني الإنسانَ والحياةَ معًا» وهكذا ربطَ القائدُ بين التماسك والتفاعلِ الاجتماعي مقرونًا بالحريةِ والعطاء.

ثالثًا- الأيمانُ بالديمقراطية:

الإنسانُ هو المخلوقُ الوحيدُ القادرُ على التعلمِ والتأقلمِ والتكيفِ والتطور وهو مَنْ أوجدَ فكرةَ الديمقراطية وطوّرَها، والمجتمعُ هو الإطارُ الاجتماعيُ الأوسعُ للديمقراطية. وقدأكدَ القائد الخالد على العلاقةِ المتبادلةِ بين الإنسانِ والمجتمع، ورأى أن عمليةَ التغيرِ الاجتماعي يجب أن تبدأ بتغييرِ الإنسانِ نفسه. بإيجادِ الإنسانِ العاقل، الإنسانِ الواعي، ويقولُ في ذلكَ «إن العملَ الجماعيَ ينميْ المبادرةَ الفرديةَ، وهذه بدورِها تنمي العملَ الجماعي»

لقد كان القائد الخالداولُ زعيمٍ عربيٍ يرسي معالمَ الديمقراطيةِ الحديثةِ من خلالِ المنظماتِ الشعبيةِ والمهنيةِ. هناك منظماتٌ للطلائعِ والشبيبةِ، والعمالِ، والفلاحين الخ وتقومُ هذه المنظماتُ بالإعدادِ الفكري والمهني. بالإضافةِ إلى أنَّ هناكَ حزبًا وجبهةً وطنيةً تقدمية لقد فهمَ القائد الخالد الديمقراطيةَ وفق تطورها التاريخي يقولُ في ذلك «كانت الديمقراطيةُ مفهومًا متطورًا متجددًا فإن الديمقراطية التي اختارَها شعبُنا ليست إطارًا جامدًا، بل هي موضوعٌ حيٌ يتطورُ ويتجددُ وفق ظروفِنا السياسيةِ والاقتصادية والاجتماعية والثقافية».

والمضمونُ الأساسيُ الذي أكدَ عليه، القائد الخالد حافظُ الأسد يرتكزُ على «فكرةِ الإرادةِ الشعبية» بديلاً لإرادة الأقلية،

وتحقيق المساواة وترسيخ الديمقراطية الشعبية، من أجل نفي مظاهر التمايز الطبقي والاستغلال، وتحقيق العدالة والمساواة وبناء مجتمع جديد يحققُ الإنسانُ فيه وجودَه الحرَ وفعلَه الحرَ ووعيَه الحرَ لتحقيقِ الشخصيةِ الإنسانية.

وقد أشار القائد الخالد إلى جوهر الديمقراطية بقوله «إن الديمقراطيةَ لاتعني الفوضى. إنها «التنظيمُ» وهي «تعني توفيرَ أفضلِ الظروف» واعتبرَها السبيلَ الوحيدَ لتحقيقِ كرامةِ الإنسانِ وعزتِه. مشيرًا إلى خصوصيةِ الأمةِ العربية «لكل أمة تراثُها... تاريخُها وبالتالي ثقافتُها وروحيتُها ومفاهيمُها وأخلاقُها» وبذلك لكلِ مجتمع ديمقراطيةٌ، ولاتوجد صيغة ديمقراطية بعينِها تُفرَض على الشعبِ ليقول «إن الصيغةَ الديمقراطية ليستْ سلعةً تستوردُ من هذا البلد أو ذلك».

رابعًا- محاربةُ الجهلِ والتخلف:

من أخطر ما كان يعانيه المجتمعُ الفقرُ والمرضُ والجهلُ والتخلفُ، وقد رأى القائد الخالد أن هذه العوائقَ مردُها إلى السيطرة الاستعمارية الطويلة التي عانى منها الشعبُ طوال فترة زمنية سابقة وأشارَ إلى الوسائل والطرق لتجاوزِ هذا الواقعِ المؤلم ويقولُ في ذلك «الوعي والإرادةُ وحدهما قادران على تخليصِ الإنسانِ من هذه الأمراض»

ونتيجة لذلك اهتمَ بالتعليم، وبالثقافة، وبالتنمية الاجتماعية، وأدركَ أن المواطنَ المثقفَ المتعلمَ، المستنيرَ هو في النهاية مواطنٌ مبدعٌ، وهو مواطنٌ يستطيعُ أن يحقق لمجتمعهِ التقدمَ المنشودَ، والتجاربُ تثبتُ كلَّ يومٍ أنه لاخيرَ في أمةٍ لاتمنحُ مواطنيها حقَ الثقافةِ والتعلمُ. والمواطنُ الجاهلُ لايمكنُ أن يساعدَ أو يسهمَ في عمليةِ التطورِ بمختلفِ أشكاله. فالثقافةُ والتعلمُ أصبحا خبزَ الناسِ اليومي وحقًا لكلِ مواطنٍ، وهذا الكلامُ ليس نظريًا، وإنما تجسدَ على أرضِ الواقعِ الفعلي وذلك بإلزاميةِ التعليمِ الابتدائي ومجانيةِ التعليمِ وانتشارِ المدارسِ والمراكزِ الثقافية والمسارح..إلخ. ويرفضُ القائد الخالد رؤيةَ الفكرِ الرجعي السلفيةَ الجامدةَ للتراث، ويتميزُ بفهمِه الجدلي الصحيحِ لهُ في علاقتهِ بالماضي والحاضرِ والمستقبل، أنه يدعو إلى «أن نناضلَ جميعًا للتخلصِ من كلِ براثنِ الماضي التي أعاقتْ حركةَ النموِ بمختلفِ وجوهِه لدى إنساننا في هذا القطرِ ولدى إنساننا العربي، رجلاً كان أم امرأة».

خامسًا- تعزيزُ القيمِ الروحيةِ الساميةِ في نفوسِ أبناءِ الأمةِ والتمسكُ بالقيمِ الحميدةِ والفضائلِ والأفعالِ الخيرة.

أ- التعايشُ بين الدياناتِ السماوية:

القائد الخالد في تأكيده على الوحدة الوطنية انطلق من خلال واقع اجتماعي يتمثلُ في تعايش الطوائف المتعددة في هذا البلد، والآن في سورية تعيشُ الطوائفُ المختلفةُ في ظلِ وحدةٍ وطنية ينفتحُ بعضُها على بعضٍ ولكلِ طائفة معتقداتُها وطقوسُها وشعائرُها الخاصة. ورفضَ الرئيسُ الأسدُ التطرفَ الديني باسم الدين ومازال يرعى بكلِ الإيمانِ المسلمين والمسيحيين، إلى هذا يوجهُ القائد الخالد قائلاً «إرادةُ الخيرِ هي إرادةُ اللّه، وإرادةُ اللّه فوق كلِ إرادة» وأن المواطنَ الصالحَ هو «المؤمن بربهِ وشعبه وأمتهِ»

ب- أهميةُ القيمِ التربويةِ وحاجةُ المجتمعِ الماسةِ إلى القيم

«فلامعنى لمجتمعٍ لاقيمَ له يدافعُ عنها» فالقيمُ هي طعمُ الحياة، ودعا إلى التمسكِ بالقيمِ والمثلِ يقولُ في ذلكَ «نشددُ على التمسكِ بالمبادئِ والقيمِ والتشبث بها، لأنها تقينا الزللَ وتوفرُ لنا المناعةَ ضدَ السقوطِ في مزالقِ الأوهامِ المدمرة، ولانتلهى بالقشورِ ونهملُ اللب» وخاطبَ المعلمينَ بقوله «اغرسوا في نفوسِ التلاميذِ والطلبةِ القيمَ الوطنيةَ والقوميةَ».

ج- المحبةُ والتعاون:

هَدَفَ القائد الخالد إلى القضاءِ على جميعِ أشكالِ التسلطِ والاستغلالِ، وذلك من خلالِ إتاحةِ الفرصِ وتعزيزِ التعاون والمساعدةِ لتحقيقِ كافةِ أشكالِ التعاونِ المشترك والعملِ الجماعي فـ «لتكن العلاقةُ بيننا كمواطنين علاقةَ محبةٍ وتعاطف، وهذه علاقةُ قوةٍ للفردِ والوطن»

وتبقى الحياةُ الاجتماعيةُ القائمةُ على الحبِ والتعاونِ والتضحيةِ من صميم فكرِ القائدِ المعلمِ يتجسدُ قولاً وعملاً يقولُ مخاطبًا المعلمين:

«انشروا الحبَ في مدارسِنا ومعاهدِنا ينتشرُ في كلِ أنحاءِ الوطن، عززوا في مدارسِنا ومعاهدِنا حبَ الوطنِ يتعززُ في نفوسِ المواطنين جميعًا» بذلك يؤكدُ على التعاونِ الهادفِ والفعالِ لمصلحةِ الفردِ والمجتمع.

د- التنظيم الاجتماعي:

أكد القائد الخالد على دورِ التنظيمِ والابتعادِ عن السلبيةِ والتهاون والفوضويةِ ويوصي قائلاً: «أوصيكم بالجدِ أوصيكم بمتابعةِ الجُهد، أوصيكم باليقظةِ» «يجب الا نملَّ أن نقاومَ التعب» حتى «نرتقي بعطاءاتِنا على مستوى» تحقيق الأهداف. واعتبر التنظيمَ طريقَ النجاح «الشعبُ المنظمُ هو الشعبُ المدركُ لغاياته وأهدافِه، والقادرُ على السيرِ نحوَها بأسلوبِ التخطيطِ بثبات».

لقد أوجدتْ قيادةُ الوسائلَ والأدواتِ

المناسبة من أجل تنظيم الجماهير في منظمات شعبية ونقابية وتعميق دورها وتعزيز ممارساتها ورفدها بالإمكانات الضرورية وتلبية احتياجاتها المختلفة، ودعمتْ ركائزَها في ظل مقررات مؤتمرات الحزب القائد، والتي أكدتْ على ضرورة تنظيم قطاعات الشعب المختلفة في منظمات شعبية بهدف توعيتها قومياً واشتراكياً، على الطريق الصحيح والسليم نحو البناء والتحرير.

هـ- التفاعلُ الاجتماعي:

أكدَ على أهمية الوحدة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي بين كافة قطاعات المجتمع، واعتبرَ الشعبَ مصدرَ القوة، وعاملَ كل تغيير أو تقدم اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي.

فجميعُ أفراد الشعب يتفاعلون ويتعايشون فالعاملُ والفلاحُ، والمعلمُ، والطالبُ، والمرأة... الخ كلٌ في إطار تنظيمه النقابي يساهمُ في تسيير آلة الدولة والمجتمع. فالشعبُ يقررُ شؤونَه. وفق مصالحه ورغباته وتطلعاته دون أن يستطيعَ أحدٌ أن يفرضَ عليه ما يفعلهُ يقولُ في ذلك: «إنني أولاً وأخيراً أحدُ أبناء هذا الشعب، أعاني ما تعانون، وأشعرُ بما تشعرون، وأعملُ معكم ومن خلالكم لتحقيق الأهداف التي نؤمنُ بها ومن أجلها نكافحُ».

إن التفاعلَ بين الوطنِ والمواطنِ تجلى في مناسبات عديدة في الحرب والسلم، إن قيادتَهُ الحكيمةَ والشجاعةَ التي التحمتْ مع جماهير الشعب الذي بادلَها العطاءَ والبذلَ والتضحية، وتجلى ذلك التفاعلُ في مناسبات عديدة في الحرب والسلم.

و- التضحيةُ ونكرانُ الذات:

إن تماسكَ المجتمع وتطورَهُ يقومُ على مدى التفاني والتضحية. يقولُ في ذلك الأبُ القائدُ: «ما هو أمامَنا من تحديات يستوجبُ منا العملَ الدؤوبَ والمستمرَ. قدراً أكبرَ من التضحية والفداء والبذل والعطاء» وليس بمستغرب على شعبنا العربي فقد «تربت أجيالُ شعبنا على روح الفداء، وتمجيد البطولة واسترخاص كل تضحية في سبيل الوطن» وأكد على أهمية الشهادة وكرَم الشهداء «وبالشهادة تتحررُ الأرضُ المحتلةُ، وبالشهادة ينحسرُ كل مد همجي وبالشهادة تنتصرُ إرادةُ الحياة وتعيشُ الأجيالُ المقبلةُ حرةً في وطن حر» والشعبُ الذي يمتلكُ أبناؤه إرادةَ الشهادة، هو الشعبُ الذي يملكُ حتميةَ النصر» ويقول «ركزوا على قيمة الشهادة، وتمجيد الشهداء» وهناكَ الكثيرُ الكثيرُ من الأمثلة قولاً وعملاً تبينُ أهميةَ القيم الاجتماعية التي أشارَ إليها ودعا إلى ترسيخها من أجل النهوض بالوطن والمواطن وتجاوز التخلف واللحاق بركب الحضارة مع التمسك بالهوية العربية القومية

سادساً- الجبهةُ الداخليةُ:

واقعُ الأمرِ أنه قبلَ الحركة التصحيحية التي قادَها القائدُ المعلمُ كانت سوريةُ تشكو من صراعات تناحرية بين الأحزاب، والقوى الوطنيــة، ولكنّ القــائدَ الخــالد برؤيتــه المستــقبليــة الشـاملة أدركَ خطورةَ هذهِ العلاقةِ التناحرية، والصداميةَ، ونجحَ بعد حوارٍ مطولٍ استمر حوالي عامين أن يصنعَ إطاراً مناسباً لجميعِ هذه القوى، وهو إطارُ الجبهةِ الوطنيةِ التقدمية.

وكان بذلك هو الأسبقُ في تطبيقِ فكرةِ التعدديةِ السياسيةِ لتحقيقِ أوسعَ صورِ المشاركةِ في بناءِ الدولةِ، والمجتمعِ من خلال إيمانهِ الراسخِ بوجود قواسمَ مشتركة يمكنُ أن تلتقي حولها مختلفُ القوى الوطنيــة من أجلِ العمل الوطني والبناء والتنميــة من خلال فهمه العميق لتركيب سورية الاجتماعي. وجد أن هذه الصيغةَ هي الصيغةُ المثلى لكي تكونَ هناك جبهةٌ عـريضةٌ لهـذه الأحـزاب، من خلال الحوارِ الهادفِ والبناءِ بين الأحزاب يمكنُ التوصلُ إلى أفـضلِ الطرقِ لتـحـقـيقِ التنمـيــة الاجتماعية.

وخلاصةُ القولِ إن هذه الصيغة أسهمتْ إسهاماً كبيراً في تعـزيزِ الوحدة الوطنية وتدعـيـمـهـا والتي لولاها لما كـان ممكناً لسورية أن تشغلَ هذا الدورَ الإقليميَ البارزَ والمتقدمَ عبـر سنوات طويلة، ومن ناحيـة ثانيـة فلقـد كـان للقـائد الخـالد شـخصيـاً الفضلُ الأولُ، والأكبـرُ في الانتقـالِ بحـزبِ البعثِ العربي الاشتراكي من حالةِ الانغلاقِ والعــزلة عن الشــعب، وحــالة الانفــراد، والتفـرد بالسلطة إلى حـالةِ الانفـتاحِ على الجماهير، والانفتاحِ على الأحزاب، والقوى الأخرى، والانفتاح أيضاً على الرأي الآخر.

قيل الكثيرُ عن القائد الخالد، واختلفتْ تقييماتُ الأصدقاء والأعداء، إلا أن الجميعَ كـانوا يتفـقـون على أنه صـاحبُ شخصيـة فـريدة ومـؤثرة يكرهُ الأفكارَ الجـامـدةَ أو المجـردةَ، فـالفكرةُ المقـبولةُ لديه هي التي تنطلقُ من فـهمِ الواقعِ والاسـتـفـادةِ من معطياته وتناقضاته، وكانت هذه إحدى أهمِ المنصاتِ والقواسمِ التي أطلقتِ التصحيحَ إلى آفاقهِ العربيةِ والعالميةِ، يقولُ في ذلك باتريك سيل «وكان من مـلامح شخصيـة الأسد ثباتُه الدؤوبُ، فلم يكنْ رجـلاً يسهلُ التـأثير فـيـه، كـان يستطيعُ من الناحيـة التكتيكيـة أن يُظهـرَ مـرونةً وأن يفـاجئَ أعداءَه، غيرَ أنهُ في الأساسيات كان يمكنُ التنبؤُ بموقفه بشكل كلي تقريباً»

وإذا كـان التـواضعُ، والصـلابةُ، ونفـاذُ البـصـيـرة، ونظافـةُ السلوك، والارتقـاءُ الأخـلاقيُ، والإحسـاسُ العـميقُ بالكرامـة الشخصية والقومية، والشجاعةُ في الحق، من السمات الطبيعيـة لدى شخصية السيد الرئيس الأسد التاريخيـة. فلم يكن قـائداً

للبعث وحده، وإنما كان للشعب كله، ماكان لسورية وحدها وإنما كان للعروبة كلها، ما كان لمرحلة معينة من تاريخنا وإنما كان للتاريخ العربي كله.

لقد ترك القائد الخالد بصمات هامة على المسيرة النضالية لجماهير شعبنا منذ حداثة سنه وتطور عطائه النضالي عندما أضحى أبرز القادة في توجيه وتطوير التنمية الاجتماعية والتحريض المستمر لتغيير البنى الموروثة وإعطاء الشعب الدور المباشر ليقود نفسه بنفسه. ونحن نشهد اليوم نتاج هذا العطاء العظيم الذي قدمه الأسد للشعب في كافة الجوانب الاجتماعية منها:

١- توفير التعليم المجاني في كل المراحل. ولكل أبناء الشعب دون تمييز. والعمل على تطوير الوسائل التعليمية وتعزيز البحث العلمي وإدخال المعلوماتية والحاسوب إلى البرامج التعليمية على جميع المستويات.

٢- تنظيم الشعب وتوحيد جهوده عبر منظمات شعبية ومهنية فاعلة حققت المصالح المشتركة لأعضائها وساهمت في تحقيق مشاركة الشعب لتفعيل الديمقراطية الشعبية.

٣- التعددية السياسية في إطار الوحدة الوطنية وتماسك الجبهة الداخلية لقد صنع وحدتنا الوطنية وعمق جذورها ورسخ وجودها.

٤- تحقيق تلاحم العمال والفلاحين مع إخوانهم ورفاقهم في القوات المسلحة الباسلة درع الوطن وحاميه ومع باقي فئات الشعب.

٥- الاعتماد على الذات والإمكانات المتاحة لأن الاعتماد على الذات يحقق الكثير من الأهداف الوطنية لتنفيذ برامج التنمية الطموحة وتوسيعها.

٦- إبراز دور المرأة في حياة الأسرة والمجتمع والعملية الإنتاجية.

٧- مواصلة العمل على تعميق المناخات الديمقراطية في حياة وعمل كافة القطاعات الاجتماعية.

٨- الاعتماد على الشعب بجماهيره العريضة عن طريق تفعيل دورها المباشر.

٩- الانطلاق من الوحدة الوطنية لمجموع أبناء الشعب، لتحقيق تطلعات الجماهير وتعميق مكاسبها.

١٠- إرساء قواعد الديمقراطية الشعبية عبر المؤسسات الحزبية والتنظيمات الشعبية.

من كل ما تقدم، ومن غيره، وهو كثير، نستلهم حجم واتساع المكانة التي تحتلها الجماهير في فكر وقيم القائد العظيم

حافظ الأسد، وندركُ إيمانَهُ المطلقَ بهذه الجماهير بمختلف قطاعاتها.

وبنظرته الثاقبة، وفكره الوضاء رأى القائدُ الخالد أن أخطرَ المزالقِ التي تعترضُ طريقَ سلطة الثورة والحزب الثوري، الابتعادُ عن الجماهير والاستعلاءُ عليها، وفي الوقت نفسه إصدارُ الأوامر وتلقينُ الدروس والمواعظ، وفي مقابل ذلك فإن كسبَ الجماهير يستدعي الانفتاحَ عليها، والتعاملَ معها بروح الشعور بالمسؤولية، يقولُ القائدُ الخالد عن ذلك: «لسنا فرداً في الحكم، ولسنا قوةً عسكريةً، ولسنا عائلةً، ولسنا قبيلةً، وإنما نحن قوةٌ شعبيةٌ حزبيةٌ تمثلُ أوسعَ الجماهير وتجسدُ أوسعَ الجماهير الشعبية ونعبرُ بمواقفنا وسلوكنا عن تطلعات وآمال هذه الجماهير ومن هنا نحن نثقُ بقوتنا، ونثقُ بحاضرنا ومستقبلنا».

فالسلطةُ إذن هي لجماهير الشعب الكادحة المعبأة في منظماتنا النقابية والشعبية والمهنية التي يقودُها حزبُ البعث العربي الاشتراكي وثورتُه المظفرة.

وكانَ القائدُ المعلمُ يؤكدُ دائماً على الأهمية الكبرى للعملية التنظيمية في حياة الجماهير وفي مساهمتها في تحقيق التحول الاشتراكي المتمثل بتدعيم البناء التحتي والفوقي للمجتمع. ويؤمنُ بأن الشعبَ المنظمَ هو المصدرُ الأساسيُ والحقيقيُ للسلطة. وبذلك يقول «أن نضالَكم الطويلَ المريرَ المشرفَ هو الذي جعلكم سادةَ أموركم وقضاياكم، وهو الذي جعلَكم، وأخوتَكم في المنظمات الشعبية الأخرى تأخذون دورَكم الطبيعيَ في قيادة بلدكم وشعبكم على الطريق الذي حددتموه في الوحدة والحرية والاشتراكية».

من أجل ذلك كله نال القائدالخالد منا كل الحب وكل الولاء وكل التقدير فقد كان عقلنا المفكر ودماغنا المدبر. وبقينا معه جميعاً ملتفين حول مسيرته مصطفين خلفَ قيادته معتزين بقدراته ومواهبه فخورين بخصاله و(شمائله) ولسوف يظلُّ شعبُنا العظيم دائماً يتعلمُ في رحاب مدرسته الفكرية والسياسية، لأنها مدرسةُ الوحدة العربية ومدرسةُ الواقعية المبدئية ومدرسةُ الشجاعة العاقلة والحكيمة. ولسوف نظلُ دائماً أوفياءَ للقيم الشريفة والنبيلة التي أرساها للمثل العليا التي رفعَ من شأنها وللأهداف والمبادئ التي نذر نفسَهُ من أجلها.

ولتفخر أمةٌ بقائد يستحضرُ تاريخَها ويستشفُ مستقبلَها ويستلهمُ تراثَها ويستعيدُ حضارتَها ويستردُ حقوقَها ويصنعُ سلامَها، قائدٌ عظيمٌ هو القائدُ الخالد حافظُ الأسد.

الحرب والسلام في فكر القائد الخالد حافظ الأسد

عبد الوهاب زيتون(*)

في وقت تتلبّدُ فيه الغيوم، وتُقرَعُ طبول الحرب، وتشهد الأمة مع سقوط بغداد يوم الأربعاء في الثامن من نيسان لعام ٢٠٠٣م، حملة اجتياحات لمغولٍ جدُد، تعيد إلى الذاكرة اجتياحات مغول هولاكو، وتتار تيمور لنك.. حريٌّ بنا العودة اليوم إلى التاريخ للقياس عليه واستلهام الدروس والعِبَر منه؛ وحريٌّ بنا العودة إلى فكر القائد الخالد حافظ الأسد خصوصًا في مسألتي الحرب والسلام.

---

* عبد الوهاب زيتون: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية البحوث والدراسات.

لقد ارتبط مفهوم الحرب لدى القائد الخالد حافظ الأسد بمفهوم السلام، فأعطاهما مضامين قومية وإنسانية في آن واحد، نابعة من تاريخ أمتنا في مواجهة الغزاة، ومن توجهنا الحضاري الإنساني العريق. فالسلام خيارنا الاستراتيجي الذي لا نحيد عنه أبدًا. والحرب هي طريقنا المشروع في الكفاح الوطني لتحرير الأرض، واستعادة الحقوق، وصنع السلام. وللحرب أسسُها، وفلسفتها ومبادؤها لدى القائد الخالد حافظ الأسد.

١- الحرب ليست غايةً بحدِّ ذاتها: وهذا ما قاله الرئيس حافظ الأسد إلى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون أثناء لقائه به بدمشق يوم الخميس في السابع والعشرين من تشرين الأول لعام ١٩٩٤م:

(لقد قدَّمت أمتنا مئات الألوف من الضحايا والشهداء، لا حبًّا بالحرب، ولا هواية بالقتال، بل دفاعًا عن حقوقها وكرامتها، وذودًا عن أراضيها)... ممَّا دفع بالرئيس الأمريكي بيل كلينتون إلى القول في حينه:

(لقد تعلَّمت من الرئيس حافظ الأسد الكثير، خصوصًا في قضايا المنطقة، ممَّا كنت أجهله).

٢- الحرب محورها قضية عادلة: جوهرها في العلاقة بين حقٍّ مُغتَصَبٍ، وعدو غاصب محتل.

(نحن أصحاب قضية نعرف هدفنا، ونعرف السبيل إليها، ونسلكه بأقدام ثابتة، وبثقة في قدرتنا على بلوغه وتحقيق النصر المؤزَّر. ومن كان هدفه واضحًا وسبيله إلى الهدف محددًا، وامتلك إرادة النضال في سبيل الهدف، فلابدَّ أنَّه منتصر).

(من كلمة الرئيس حافظ الأسد بعيد الجيش يوم ١٩٨١/٨/١م) وفي كلمته بدمشق في المؤتمر الرابع لشبيبة الثورة يوم ١٩٨٥/٤/١٥م:

(نحن أصحاب قضية، وأعداؤنا لا يريدون أن تكون لنا قضية. بل يريدون أن يسلبونا حقًّا في أبسط قضايانا العادلة).

٣- الحرب تنبع من **طبيعة الصراع** بين الأمة العربية والعدو الصهيوني؛ إنها ليست نزاعًا على الحدود، بل هي -في فكر القائد الخالد حافظ الأسد- صراع يستهدف الوجود، وهذا نابع من طبيعة الصهيونية وفلسفتها العنصرية، ممَّا حدَّده فيها الرئيس حافظ الأسد في مواقف كثيرة، منها قوله:

(يجب أن لا ننسى لحظة واحدة أن إسرائيل والصهيونية العالمية تريدان أرضنا من النيل إلى الفرات، فهكذا تقول توراتهم وأن يكون من يعيش وراء النيل والفرات تحت هيمنتهم. إنَّ تصريحاتهم سابقًا، وحاضرًا تؤكد ذلك، فكيف لنا أن نجهل أو نتجاهل للحظة واحدة خطر ما نواجهه وهو موجود في كتبهم المقدَّسة) (من كلمته بدمشق يوم ١٩٩٢/٣/٣١م للسادة العلماء).

٤- والهدف من الحرب عند القائد الخالد حافظ الأسد.

هو في تحـرير المحتـل من الأرض، واستعادة المغتصب من الحقوق، ويكون ذلك عبر التحضير المتقن، والإعداد الدؤوب، مع عدم الاستخفاف بالعدو أو الاستهانة بقدراته، وفي ذلك نقرأ قوله أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٧٣/٧/٥م.. قبل حرب تشرين المجيدة:

(إنَّ المهمة الكبرى التي تواجهنا اليوم هي مهمة تحرير الأرض العربية، وإعادة حقوق شعب فلسطين العربي إليه.

ومن أجل تحقيقها يجب أن نوجه كل إنجازاتنا، وأن تزجَّ كافة طاقاتنا وطاقات الأمة العربية في المعركة المرتقبة. إنَّ الاستهانة بقوة الخصم خطأ فادح، كما أنَّ اليأس من إمكانية مواجهته، والاعتقاد باستحالة التغلب عليه خطأ أفدح).

٥- والحرب في فكر الرئيس الخالد حافظ الأسد ذات بعد قومي، دون تمييز بين أرض، وأرض أخرى عربية؛ ففي كلمته بدمشق يوم السادس عشر من تشرين الثاني لعام ١٩٨٦م نقرأ قوله:

(إنَّ كل شبر في لبنان هو تماماً ككل شبر في سورية، إن كل شبر في أرض فلسطين، هو تماماً ككل شبر في أرض سورية.. إننَّا شعب واحد، ومن أمَّة واحدة، هكذا خلقنا الله، هكذا هو التاريخ، وهكذا هي الجغرافيا، ولن يستطيع أحدٌ، أن يطمس أمامنا هذه الحقيقة).

وقد دعا قواتنا المسلَّحة الباسلة في لبنان في كلمته التوجيهية لها يوم الثالث من آب لعام ١٩٨٢م إلى التمسك بهذه الحقيقة في مواجهة الاجتياح الصهيوني لأراضيه بقوله:

(إنَّ عروبة بيروت أمانة بين أيديكم، فاحفظوا هذه الأمانة، وادفعوا عن نسائها وشيوخها وأطفالها همجية أعداء الإنسانية، واجعلوا معركة بيروت ملحمة مجد دفاعاً عن كرامة الأمة العربية، ودرساً للمتخاذلين الجبناء).

٦- والقضية الفلسطينية لدى القائد الخالد حافظ الأسد كانت شغله الشاغل، والهمَّ الذي لا يعلوه أيُّ همٍّ آخر؛ وهي محور الحرب والسلام لديه، ففي كلمته بدمشق أمام مجلس الشعب يوم الخامس عشر من آذار لعام ١٩٨٣م أعلنها صرخة مدوية بقوله:

(الجولان في وسط سورية، وفلسطين هي الجزء الجنوبي من سورية. السلام والحرب في منطقتنا مرتبطتان بقضية الشعب العربي الفلسطيني ارتباطاً لا انفصام فيه، سورية التي انطلقت من أرضها أول رصاصة باتجاه فلسطين، والتي حاربت وما تزال تحارب من أجل فلسطين سورية هذه ستبقى مع شعب فلسطين، ومع قضية فلسطين رغم أنف المتخاذلين والمستسلمين).

وفي ردَّه على مندوب صحيفة دو باري الفرنسية يوم ١٩٨١/٧/١٣م بقوله: (كانت هناك حلول تعطينا كامل الجولان مقابل التخليِّ عن القضية الفلسطينية، وهذا ما

لم نفعله، ولن نفعله، لأننا ننظر إلى المواطن العربي الفلسطيني، كما ننظر إلى المواطن السوري في الجولان).

٧- **والحرب التحريرية** -في فكر القائد الخالد حافظ الأسد- هي الجسر العظيم الذي تعبر عليه قوافل المناضلين العرب لبناء وحدتهم الكفاحية، كما كان ذلك شأنهم عبر التاريخ في مواجهة كافة الغزاة. وفي ذلك نقرأ قوله في إطار التحضير لحرب تشرين المجيدة بدمشق في التاسع من حزيران لعام ١٩٧٢م:

(على أرضنا الحبيبة امتزج الدم العربي الطهور في معارك الشرف مؤكداً الحقيقة الأزلية، حقيقة وحدة الأمة العربية، ولابدَّ أن تفرض هذه الحقيقة نفسها وتبرز من جديد في صراعنا الطويل مع العدو الصهيوني ... إنَّ العرب سيقفون كتلةً واحدة بغض النظر عن أيِّ خلاف، وسيتجاوزون أيَّ خلاف بينهم في حال احتدام صراع مسلح بين أية دولة عربية وبين إسرائيل، أو بين أية دولة عربية وبين أية قوة أخرى يمكن أن تعتدي على بعض العرب أو على جزء من الأرض العربية).

٨- وانطلاقاً من قومية المعركة، وطبيعة الصراع طرح القائد الخالد حافظ الأسد شعار **التوازن الاستراتيجي** وعمل من أجل تحقيق هذا التوازن بما يكفل حسم هذا الصراع لحساب الأمة العربية على العدو الصهيوني، وفي ذلك نقرأ قوله يوم الرابع والعشرين من كانون الثاني لعام ١٩٨٧م:

(إن الصراع بيننا وبين الصهيونية هو صراع مصيري، وفي مثل هذا الصراع يبدو طبيعياً أن نرفع شعار التوازن الاستراتيجي بيننا وبين العدو، والتوازن الاستراتيجي ليس أن **نوفر** دبَّابة أو مدفعاً مقابل دبَّابة أو غير ذلك من الأسلحة، إنما **هو توازن شامل** لكافة نواحي الحياة المختلفة وعلى أساسه نعمل).

ومن أجل ذلك عمل القائد الخالد حافظ الأسد إلى تحقيق أوسع تضامن عربي كفاحي، وفي ذلك قوله أمام مجلس الشعب يوم الثاني عشر من آذار لعام ١٩٨٥م بدمشق:

(إنَّ خيارنا ونحن نواجه الأخطار هو التصميم على استمرار دعم قدراتنا الدفاعية، وتحقيق التوازن **الاستراتيجي** مع العدو الصهيوني، والسعي الدائم لتحقيق أوسع تضامنٍ عربي ممكن، على أساس مقاومة الامبريالية والصهيونية).

٩- والإنسان هو العامل الحاسم والأهم في الحرب، كما في السلام، ولم يترك القائد الخالد حافظ الأسد مناسبة إلاَّ ودعا فيها إلى بناء الإنسان وإعداده الإعداد الأمثل. وفي ذلك نقرأ قوله:

(إن السكان هم الثروة الكبرى والأهم لدى أية أمَّة، وإن الإنسان هو العامل الحاسم في أي تقدم اقتصادي أو اجتماعي، وهو محور كلِّ خطة للتنمية، وغاية كل إنجاز نحققه في هذا المضمار.. فإذا بُني الإنسانُ البناء السليم وخاصة في

عقله وإرادته، فلا خوف من غزاة، ولا قلق من عدوان، ولا شك في امتلاك ناصية النصر.

..إن العدو يملك ما لا نملك من أسلحة الحرب.. ولكننا نملك ما هو أقوى وأهم.. إننا نملك الحق الساطع والشعب الواسع..

كم هدَّدونا، وكم قالوا: إنَّ دمشق على مدى مدافعهم وأسلحتهم بُعيد غزو لبنان مباشرة، وقد قلت آنذاك إن مدنهم أيضًا هي على مدى أسلحتنا المختلفة. وأهم سلاح كنت أعنيه هو الإنسان المؤمن الواعي المصمِّم على مجابهة العدو).

١٠- **والحرب لدى القائد الخالد حافظ الأسد ذات مضمون حضاري إنساني، وهذا نابع من تقاليدنا العربية والإسلامية معًا.. ففي كلمته في حرب تشرين المجيدة عام ١٩٧٣م:**

(نحن لسنا دعاة قتل وتدمير، بل ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير. إنَّنا نعشق الحرية ونريدها لنا، ولغيرنا، وندافع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته.. نحن دعاة سلام ونعمل من أجل السلام لشعبنا، ولكل شعوب الأرض، .. نحن عُشَّاق حرية، نريد الحرية لشعبنا وأمتنا وللشعوب كافة، وأعداؤنا هم أعداء الحرية وقتلتها على مدى التاريخ).

وفي كلمته في قمة عدم الانحياز بالجزائر يوم ١٩٧٣/٩/٩م:

(إن النضال ضد الصهيونية والأبارتيد يمثل طليعة نضال البشرية وتجسُّد تطلعاتها، وهو في حقيقته العليا واجبٌ كفاحي على الإنسانية جمعاء تجاه ذاتها وتجاه إنسانيتها).

١١- **وهكذا كانت حرب تشرين المجيدةَ ترجمة حقيقية لفكر ونهج القائد الخالد حافظ الأسد الذي قال فيها:**

(في حرب تشرين المجيدة تبدَّت جملة من الحقائق الساطعة بعد أن كادت أباطيل الدعايات الصهيونية المغرضة طيلة ست سنوات ونيف أن تطمسها.. لقد حطَّمت انتصارات قواتنا الباسلة في حرب تشرين وحرب الجولان غطرسة إسرائيل وقضت على أسطورة جيشها الذي لا يُقهر، وهدَّمت نظريتها الزائفة حول الحدود الآمنة.. في حرب تشرين ظهر الإنسان العربي على حقيقته، قويًا شجاعًا، تواجهه الصعاب فيسحقها، تواجهه التحديات فيقهرها. يكره العيش ذليلاً، يعشق الموت عزيزًا؛ ينظر إلى السماء فيراها قرب هامته، وينظر إلى الأرض؛ أرض الوطن التي يعيش فوقها، فيرى فيها دماء آبائه وأجداده أصلاً لعزَّته وكبريائه.. إنَّ الأمَّة التي حاربت في تشرين، تعرف طريقها إلى تشرين آخر).

١٢- **ومن هنا يجب أن ننظر إلى مكانة الأرض، وقدسية الشهادة من أجل الأرض** في فكر القائد الخالد حافظ الأسد، حيث يتسامى الكفاح المسلَّح إلى حقٍّ مشروع؛ وواجب وطني، ويرقى العمل الفدائي

البطولي إلى عمل استشهادي مقدّس، وليس كما تعمل الصهيونية ودعاتها وحماتها من وراء المحيطات إلى مسخ ذلك العمل البطولي بـ (عملية انتحارية أو إرهابية) على حدّ زعمهم؛ من هنا كانت دعوته إلى ثقافة المقاومة التي تنطلق من عقيدة الشهادة وعزيمة الاستشهاد. وقد جعل فيها قمة التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني.. وفي ذلك نقرأ قوله: (هذه هي الشهادة التي أمر بها الإسلام وعظّمها ووصل بها إلى أوسع بقاع الأرض..الشهادة هي قيمة القيم وذمة الذمم، هي خلق الأخلاق وفضيلة الفضائل.. والشهيد هو ذلك الإنسان العظيم الذي عاهد فصدق دعاه الوطن فأسرع، قاتل فاستبسل، قارع العدو فأبدع، ومن أجل أن ينتصر الوطن والأمة قرّر الشهادة واستشهد.. خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية حدث أن منافس رونالد ريغان انتقده قائلاً: إن ريغان انهزم في لبنان.. فأجاب ريغان قائلاً:

ماذا نستطيع أن نفعل في وجه أناس يُضحّون بأجسادهم من أجل أرضهم؟

هذه هي الشهادة التي أمر بها الإسلام وعظّمها ووصل بها إلى أوسع بقاع الأرض).

(من كلمته بدمشق ١٢/٦/١٩٨٥م).

١٣- والحرب في فكر القائد الخالد حافظ الأسد هي مسيرة كفاحية طويلة الأمد، وهي كفاح أمة ومسيرة شعب. لقد أسّس القائد الخالد لثقافة المقاومة وأرسى نهجها، وشدّ أزرها وتمسّك بها خياراً استراتيجياً لتحرير الأرض واستعادة الحقوق والتمسك بالثوابت الوطنية والقومية؛ وفي ذلك نقرأ ما ورد في خطابه أمام مجلس الشعب بدمشق في ذكرى ثورة آذار المجيدة يوم/٨/٣/١٩٩٠م:

(..وجهادنا طويل مديد يلزمه وعاء طويل مديد، فلسنا نحن الذين يجب أن نسأل إلى متى؟

بل العدو هو الذي يجب أن يسأل إلى متى؟).

لقد خاطب شباب المقاومة في لبنان وفي فلسطين؛ خاطب انتفاضة أطفال الحجارة في كلمته إلى الأمة من قصر الفيحاء بدمشق يوم ٨/٣/١٩٨٧م؛ وكأنيٍّ به يخاطبهم اليوم بهذه الكلمات المتوهّجة المضيئة بقوله:

(أنا في كلامي هنا أخاطب في الجانب الأهم أولئك الشباب الذين يصارعون العدو. الشباب في أرض فلسطين وفي الجولان وفي جنوب لبنان.. أقول لهم: هذا هو الطريق الحق.. المهم أنّ الحرب مستمرة، والمهم أن تظلّ كذلك، نمارسها مرّة بالبندقية، ومرّة بالحجارة، مرّة بتظاهرة شعبية، ومرّة بصراع عسكري شامل، ومرّات أخرى بما يتناسب ومعطيات الظروف من الجوانب المختلفة.. أقول لكم أيها الشباب:

أكملوا طريقكم ولا تصغوا إلى كلام

يائس أو وشوشة مهزوم أو صرير مستسلم.. لا يخدعنّكم أيها الشباب في أرض فلسطين ما تسمعونه عن السلام وعملية السلام،فأمريكا وإسرائيل ليستا من دعاته ولا من بناته، وما تريده أمريكا من كل تحرك -في عملية السلام- هو فرض إرادتها على العالم، وفرض الموافقة العربية على مسخ حقوقكم وشطب دوركم النضالي من الخريطة التاريخية العربية، وهذا لن يحصل أبداً، لأننّا سنبقى معكم، مع أنفسنا، مع تاريخنا وجغرافيتنا).

١٤- والحرب لدى القائد الخالد حافظ الأسد هي مواجهة التحدّي بالتحدّي؛ لم ترهبه أساطيل أمريكا، ولم يرضخ قط لسياسة التهديد أو الابتزاز والتدليس. لقد خاطب الأمة في خطابه أمام مجلس الشعب عام ١٩٨٣م كيف تعامل مع تهديدات الرئيس الأمريكي رونالد ريغان:

(الرئيس الأمريكي رونالد ريغان أرسل لي رسالة، وأنا جاوبته برسالة. كانت رسالة ريغان رسالة تهديد؛ ونحن جاوبنا بالتهديد. أمريكا دولة عظمى تملك القدرة على التدمير، وأنا ككل واحد في بلدنا يجب أن يشعر أنه عظيم؛ يجب أن يتمسّك بوطنه وأمته. ويبدو أن سورية -كما أورد ريغان في رسالته- تهدّد الشرعية الدولية، وتسيء فهم السياسة الأمريكية في لبنان والمنطقة.. وكان جوابي إليه: أنتم الذين تغزون لبنان، وأنتم الذين تعتدون على لبنان، وأنتم تسيئون فهم روابطنا المشتركة مع لبنان.. إذا ضربتم فسنضربكم في البرّ والبحر والجو، ولدينا الوسائل الكفيلة بالردّ عليكم).

١٥- والحرب لدى القائد الخالد حافظ الأسد هي حق مشروع، وهي دفاع واجب عن النفس، وردٌّ للعدوان، ومقاومة وطنية مقدّسة للاحتلال.. إنّها ليست إرهابًا، بل الاحتلال الصهيوني الذي تحميه وتدعمه وتغذّيه الولايات المتحدة الأمريكية هو ذروة الإرهاب:

(الولايات المتحدة تتحدث عن الإرهاب، وهي أكبر دولة إرهابية عرفها التاريخ. يجب ألاَّ نسمح بطمس الخط الفاصل بين الإرهاب الذي نرفضه، وبين المقاومة التي يريدون تسميتها إرهابًا، وهي نضال تحرري مشروع، وواجب لطرد المحتل والغاصب. وقد طرحنا فكرة تشكيل لجنة دولية برعاية الأمم المتحدة لتعريف الإرهاب وتحديد الأعمال التي تدخل تحت معنى الإرهاب المرفوض، ولكنهم يرفضون ذلك، لأنهم إرهابيون يمارسون الإرهاب ولا يريدون تعريفًا ولا تحديدًا لمحتوى الإرهاب يمنع ممارساتهم الإرهابية، ويجعلها أكثر انكشافًا أمام العالم).

(من كلمته أمام مجلس الشعب يوم ٢٧ كانون الثاني ١٩٨٧م).

(إنَّ اتهام سورية بالإرهاب مرتبط بموقفها من الاحتلال الصهيوني للأراضي العربية، وإن هذه التهمة هي صناعة أمريكية إسرائيلية صرفة.. وسورية لا يمكن إخضاعها أو تخويفها بتهمة

الإرهاب) (من كلمته يوم السادس من شباط لعام ١٩٩٦م) (وقد ردّ على مندوب التلفزة الأمريكية في مقابلة معه بدمشق يوم الخامس والعشرين من أيلول لعام ١٩٩٦م إزاء تصريحات رئيس مجلس النوّاب الأمريكي نيوت غينغرتش آنذاك التي وصف فيها سورية بالإرهاب، وأنّه يجب عزلها، وليس التفاوض معها حسب غيننغرتش.

أجاب القائد الخالد حافظ الأسد بقوله:

[كيف يمكن أن نتحدّث عن حقوق الإنسان في بلدٍ ما، بينما يوجد من يعتبر الذين شرّدوا من بلادهم وديارهم منذ عشرات العقود، وهم يمارسون حقّهم بالمقاومة من أجل أن يعودوا إلى ديارهم إرهابيين أو مجرمين؟ هؤلاء يستحقّون لدينا التسمية بالمناضلين، وليسوا إرهابيين إطلاقًا].

١٦ ـ الحرب في فكر القائد الخالد حافظ الأسد هي رفض للهزيمة بالمطلق مهما بلغت التضحيات، وهي لغة راسخة بالنصر وإن طال انتظاره، وهذا يستند إلى وضوح في الرؤيا لديه، وامتلاك إرادة نادرة وبصيرة نافذة في إدارة الأحداث، وقهر الصعاب: [إن معركة نخسرها، أو نكسة نصاب بها أو نكسات لا يمكن أن تحدد نهاية الصراع مع العدو؛ بل يجب أن تشكل العامل الحافز لحسم هذا الصراع لحساب قوى الحقّ والخير على قوى الشرّ والظلم والعدوان] [اكتبوا في عقولكم واحفظوا في صدوركم، لا حركة في مواجهة العدو إلاّ إلى الأمام، لاعودة إلى الوراء في مواجهة العدو.. إنهم يريدوننا أن نستسلم، ولكن المسافة الفاصلة بيننا وبين الاستسلام هي أبعد بكثير من المسافة الفاصلة بينهم وبين أبعد الكواكب التي لم تصلها مراكبهم الفضائية والتي لن تصلها أبدًا!] [سنسترد حقوقنا ونستعيد أرضنا المحتلة، ولن نستجديها من أحد، لأن الاستجداء ذل، والذل سينسحب على شعبنا وأجيالنا القادمة، ولن نورث أجيالنا القادمة ذلاً ومهانة بل سنورثهم عزّةً وشرفًا وكرامة].

(من كلمته بدمشق يوم ١٥/٤/١٩٨٥م)

١٧- الحرب في فكر القائد الخالد حافظ الأسد هي ثوابت وقيم ومبادئ لا تراجع عنها: إنها استلهام لدروس التاريخ وعبَره بالقياس عليه بمثل ما نواجهه اليوم، والقائد حافظ الأسد قرأ التاريخ جيدًا، وكان بارعًا في قراءته حكيمًا ثاقبًا في رؤياه، طالبنا دائمًا أن نتعظ ونتعظوا بدروس التاريخ وعبَره. والتاريخ حكم أبدي لا يخطئ قط، وإن تأخّر لبعض الوقت.. لنقرأ قوله في ذلك:

(الحقوق عائدة إلى أصحابها مهما طال عليها الزمن.. هذه شواهد التاريخ حية أمامنا، منها القريب ومنها البعيد تصرخ أمامنا وتنادينا قائلةً:

إنها براهين ساطعة فاقتدوا بها. بلادنا حاصرتها جيوش الصليبية الأوروبية.. فأين

الصعوبة من مواجهة إسرائيل من الصعوبة في مواجهة أوروبة بكاملها آنذاك؟ وُجِدَ بيننا مستسلمون في ذلك الوقت، وكانوا في مواقع حساسة وفي أقطار هامة، ولكن الأمة ككل رفضت الهزيمة ورفضت الاستسلام، وصممت على صنع النصر. كُسِرنا على الأرض، ولكن إرادة النصر ضد تلك القوى العظمى آنذاك لم تُكسَر مرَّة واحدة. إنها أمثلة صارخة من التاريخ أضخم بكثير ممَّا نحن فيه اليوم.

إن القمع الوحشي لا يؤبِّدُ واقعًا يقوم على باطل، وتكسير العظام لا يهدم معنويات الشعب المصمِّم على نيل حقوقه. لماذا قِصَرُ النفس؛ لماذا هذه السرعة في فرض الهزيمة على أنفسنا؟ لا يجوز لأيٍّ كان أن يورِّث الأجيال القادمة هزيمةً ممهورة بصكوك الاستسلام، إذا كنا لا نستطيع استرجاع حقوقنا اليوم، فلا يجوز لأي كان التفريط بهذه الحقوق. فالحق هو الأقوى، والحق الذي يدافع عنه أصحابه هو المنتصر) (من كلمته بدمشق يوم ١٢/٣/١٩٨٧م).

أمَّا ماذا عن السلام في فكر القائد الخالد حافظ الأسد؟

لقد ميَّز القائد الخالد بين السلام الذي يتفق مع الشرعية الدولية، وبين السلام في المفهوم الصهيوني الأمريكي، ممَّا يتمُّ فرضه على العرب، في استسلام كل منهم على حدة، وإشاعة حالة من الاسترخاء لديهم مع فقدان التوازن بين المتفاوضين لحساب الطرف الصهيوني، مع إطالة أمد المفاوضات لتصبح غايةً بحدِّ ذاتها، وأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تتبنَّى اقتراحًا أو فكرة أو مشروعًا للسلام إلاَّ إذا كان ذلك صهيوني المنشأ ويخدم أمن الصهاينة، وأمنهم هو في تفوق الكيان الصهيوني بالمطلق على العرب.

١- لذلك جاء السلام معركة في فكر القائد الخالد حافظ الأسد لا تقل ضراوةً عن معارك القتال:

(إننا نخوض معركة السلام، وهي أصعب بكثير من معاركنا **القتالية**)[١].

أمَّا لماذا السلام هو **معركة**، فقد أجاب الرئيس حافظ الأسد:

(إن الإسرائيليين يلفظون كلمة مفاوضات ويكررونها وكأنها هي الغاية المنشودة)[٢].

وهذا ينبع من السلوكية اليهودية المراوغة عبر التاريخ، مع عدم الالتزام بأي عهد أو وعد أو اتفاق مع الغير، وهو ما قاله القائد الخالد حافظ الأسد في وصفه لاتفاقيات أوسلو في ١٢أيلول لعام ١٩٩٣م بقوله:

(إن كل بند في الاتفاق يحتاج إلى اتفاق)

لقد وصف الرئيس حافظ الأسد في كلمته أمام القمة الإسلامية الثامنة في طهران في العاشر من كانون الأول لعام ١٩٩٧م، الحالة التي آلت إليها عملية

السلام بسبب عدم الالتزام الصهيوني بتعهدات بعضهم البعض بقوله:

(لقد أعلن العرب أن السلام خيارٌ لهم، وقبلت سورية المبادرة الأمريكية للسلام عام ١٩٩١م، والتي قامت على أساس تنفيذ قرارات مجلس الأمن، ومبدأ الأرض مقابل السلام، بما يؤدي إلى الانسحاب الكامل من جميع الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧م، ومن الأراضي العربية اللبنانية التي احتلت لاحقًا، والاعتراف بالحقوق السياسية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني، وعلى هذا الأساس شاركنا في مؤتمر مدريد، وفي المباحثات الثنائية بمشاركة أمريكية في واشنطن.. وبعد مجيء الحكومة الإسرائيلية التي خلفت حكومة رابين واجهنا وضعًا جديدًا يعيد العملية السلمية إلى نقطة الصفر، حيث رفضت تلك الحكومة المرجعية القانونية للعملية السلمية، كما رفضت الإلتزام بما التزمت به الحكومة السابقة.. لقد أوضحنا دائمًا استحالة السلام مع استمرار الاحتلال.. واستحالة استمرار الاحتلال إلى الأبد. إننا عازمون على استمرار العمل والكفاح حتى نستعيد أرضنا كاملة، فالسلام الذي يفرّط في الأرض جزءًا أو كُلاً ليس سلامًا، والسلام الذي يمتهن الكرامة ليس سلامًا، بل هو امتهان للأرض والإنسان.. إن القوة العسكرية مهما عظمت لدى إسرائيل، ومهما عظم الدعم الخارجي لها، لا يمكنها أن تقهر إرادة التحرير، ولا أن تتغلّب على إرادة الصمود لدى شعبنا، ولن تستطيع أن تزرع اليأس والخوف في قلوبنا. إن إرادة السلام تعززها بالتصميم على التحرير واستعادة الحقوق وصيانة الكرامة الوطنية).

(من كلمة السيد الرئيس حافظ الأسد في طهران في العاشر من كانون الأول لعام ١٩٩٧م أمام القمة الإسلامية)

٢- والسلام لدى الرئيس حافظ الأسد هو من مكوِّنات تراثنا الإنساني:

(إن السلام من تقاليدنا وتاريخنا، والسلام هو حالة من الأمن والطمأنينة يتوفر فيها الشرف والكرامة، والعدالة والكبرياء...)[٣].

سنبقى ننشد السلام نطالب بتحقيقه على أسس واضحة: أن تعود إلينا كل الأراضي التي احتلتها إسرائيل، وأن تعود للشعب العربي الفلسطيني كل حقوقه وفي مقدمتها حقه في تقرير المصير، وفي إقامة دولته المستقلة. وأن تتوافر كل الشروط الأخرى التي لا تجعل من السلام المبتغى أو المنشود عامل قوة لإسرائيل، وعامل ضعف للعرب)[٤].

(إسرائيل لا تريد حلاً شاملاً، إنها تريد أن تجري صفقات منفردة مبتورة مع كل طرف عربي على حدة، لأن ذلك يضعها في موضع القوة، فتأخذ مكاسب أكثر)[٥].

٣- والسلام لدى القائد الخالد حافظ الأسد هو مسألة توازن القوى، ولا يكون

إلاَّ من مواقع الندِّ للندِّ، ومن موقع الكرامة الوطنية:

(السلام بين عدوين متحاربين.. إنها مسألة توازن القوى، وإلاَّ فالذي يتحقق في غياب هذا التوازن هو سلام الطرف الأقوى، واستسلام الطرف الأضعف، وإذا كان الأمر كذلك، والمسألة مسألة توازن قوى، فأين موقع هؤلاء العرب المتهافتين من عملية السلام وهم في حالة انعدام الوزن؟)[٦].

وأضاف القائد الخالد حافظ الأسد بقوله:

(إن السلام الذي يتحدَّثون عنه هو السلام الإسرائيلي الذي لا يعني أن تأخذ إسرائيل الأرض فقط، بل أن تأخذ أرض العرب واستسلام العرب.. إن السلام العادل كما يؤكد تاريخ البشرية لا يُنال استجداءً، بل يُنال اقتداراً).

٤- السلام لدى الرئيس حافظ الأسد هوفي رفض بالمطلق لسياسة الهيمنة والاملاءات أيّاً كانت:

(إننا سنقاوم كل من يحاول أن يجعل السلام مصلحة محتكرة له، ولن يستطيع أحدٌ أن يحقّق السلام مع سورية بدون قناعة سورية التي تتمسَّك بمصالحها وحقوقها وفي المقدمة بأرضها المحتلة[٧].

... إذا كان أحد يظنُّ أنه قادر على قسر إرادتنا، واغتصاب حقوقنا وقرارنا فبئس هذا الأحد، لأنَّه خائب جاهل. إذا كان أحدٌ يظنُّ أن المتغيرات الدولية ترضخ الشعوب لمشيئة باطلة وقوة غاشمة، فبئس هذا الأحد، لأنه لم يستعد السيرة البشرية، ولم يستوعب مدلولاتها وعبرها)[٨].

٥- السلام في فكر القائد الخالد حافظ الأسد لا يتفق مع فرض التطبيع مع العدو الصهيوني، كما لا يتفق مع المشاريع (الشرق اوسطية) لتمرير التطبيع:

(فالتطبيع هو في محاولة إسرائيل الانتقال عبر هذا الربط لتكون طرفاً داخل المعادلة العربية، وليست طرفاً خارجها، وهذا يعني أننا نضع داخل البيت من نعرف أنه سيسلب ويسرق كل ما في البيت، ثم وبقنبلة موقوتة سيفجِّرُ البيت على من فيه من أهله)[٩] والشرق أوسطية كما قال فيها القائد الخالد حافظ الأسد:

تؤدي إلى (شطب شيء اسمه العرب، شطب شيء اسمه العروبة، شطب مشاعرنا من داخلنا كأمة؛ شطب هويتنا القومية، والروحية معاً... إنها شكل من أشكال التطبيع... إنَّها سترتب الاقتصاد بما يجعل الطريق سالكاً أكثر نحو كل الأعداء... لدينا موقف من المفاوضات الإقليمية المتعدِّدة الأطراف منذ قبل مؤتمر مدريد)[١٠].

٦- السلام لدى القائد الخالد حافظ الأسد هو ثباتٌ في الموقف، ووضوح في الرؤيا، وثقة بالحاضر، واطمئنان للمستقبل وهو ما أكَّده بقوله:

(إسرائيل تريد أن تحصل من

مفاوضات السلام على أكثر ممَّا هو بيدها الآن.. فإذا كان لابدَّ أن أختار بين أن يبقى الوضع الحالي على ما هو عليه الآن، أو أن نوافق على ما تطلبه اسرائيل، فالخيار المفضَّل لديَّ أنا كمواطن عربي أولاً، وكمسؤول عربي هو هذا الوضع الحالي، وليس السلام ومتطلبات هذا السلام الذي يتطلعُ إليه المفاوضون الإسرائيليون.. إنَّهم يريدون أشياء خارج حدود السلام، يريدون الهيمنة المطلقة على العرب وعلى الوطن العربي.. يريدون مصالحهم مشروعة كانت أم غير مشروعة مع فقدان كرامة الآخرين)(١١).

وبسبب هذا الاطمئنان اللامحدود الذي لازم الرئيس الأسد طيلة حياته، والذي استند إليه دائماً، فإنَّه لم يكن في عجلة من أمره، وهو ما أربك العدو وأدهشُ الصديق في آنٍ واحد...

لم يرضخ القائد الخالد حافظ الأسد للضغوطات، ولم يتنازل عن شبرٍ واحد من الأرض، لم تهزَّه الأعاصير: والأرض لديه هي العرض؛ هي الشرف والكرامة.. (نحن العرب نريد السلام على أساس الشرعية الدولية، وإلاَّ فلنترك، وليتركوا الأمر للمستقبل فلسنا في عجلةٍ من أمرنا)(١٢).

(إنَّنا واثقون أنَّ هذا الذي يحيط اليوم بالوطن العربي هو أمرٌ عارضٌ بمنظار الزمن لن يدوم ولن يطول، وأنَّ أمتنا العربية ستنهض وتواجه كافة المخاطر والتحديات، كما كان ذلك شأنها في مراحل تاريخها الطويل).

(نحن على قناعة تامة أنَّ إسرائيل ليست إلاَّ صورة ممسوخة عن تلك الغزوات التي تعرَّض لها شعبنا وأمتنا عبر تاريخنا الطويل، ولن يكون مصيرها بأحسن من مصير سابقاتها)(١٣).

٧- وبقي القائد الخالد حافظ الأسد ثابتًا راسخًا على مواقفه لم يخضع لأي ابتزاز أو اغراء أو تدليس رافضًا الحلول المجتزأة، رافضاً المساومة على الحقوق..

(إنه موضوع إيمان بحق وبطريق يقتضيه هذا الحق، إيمان بقضية شعب عادلة وبكرامة شعب عادلة، وانطلاقًا من هذه الرؤية لسورية، فإن سورية مطمئنة.. عندما يسقط فرعٌ من هنا، وفرعٌ من هناك فإن هذا السقوط لن يغيِّر في الشجرة العظيمة وجذورها العميقة الراسخة أبدًا؛ وهي قادرة على التعويض عمًّا يسقط من فروع تالفة متآكلة)(١٤).

من هنا كان لقاء القائد الخالد حافظ الأسد في جنيف يوم الأحد في السادس والعشرين من آذار لعام ٢٠٠٠م، استجابةً لدعوة وجَّهها إليه الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون عبر مكالمة هاتفية يوم السابع من آذار لعام ٢٠٠٠م، أكَّد فيها الرئيس الأمريكي كلينتون أنَّ لديه شيئًا هامًّا يودُّ نقله إليه مباشرة لإطلاعه على نتائج الجهود التي بذلها مع باراك رئيس حكومة الكيان الصهيوني آنذاك.. وكما نقل الوزير فاروق الشرع في لقائه بسفراء دول الاتحاد الأوروبي بدمشق ظهر يوم الخميس في الثلاثين من آذار لعام ٢٠٠٠م فقد (بدأ اللقاء بين الرئيس كلينتون، وحافظ الأسد

بشكل ودّي، ولكن عندما نقل الرئيس الأمريكي للرئيس الأسد أنَّ إسرائيل تريد السيادة الكاملة على كامل مياه نهر الأردن وبحيرة طبريا الأمر الذي يشكل تراجعاً حقيقياً عن وديعة رابين وقرارات مجلس الأمن ذات الصلة وخصوصاً القرار ٢٤٢ والقرار ٣٣٨، عندها رفض الرئيس حافظ الأسد ذلك رفضاً قاطعاً، وأكّد أنّه لن يتخلىّ عن أيّ حقّ من حقوق الشعب والوطن مهما طال عليه الزمن. وقد علّق الرئيس الأمريكي بيل كلينتون على ذلك بقوله: (إنّني أحترم وطنية الرئيس حافظ الأسد وضميره في حماية مصالح شعبه وأمته، وإنّني لا أطلب منه اتخاذ قرار ضد مصلحة شعبه).

ذلكم هو القائد الخالد حافظ الأسد، حارس أمجاد الأمة؛ ذلكم هو الرجل العظيم الذي نتعلّم منه الدروس والعبر في الحرب، كما في السلام، وذلكم هو عالمه البطولي الذي نستمد منه الإرادة والعزيمة إلى حيث تكون المواجهة إلى مواقع الحرب.. كما إلى مواقع السلام إنه حافظ الأسد الذي أتقن قراءة أبجدية التاريخ، وسيبقى اسماً لامعاً محفوراً في ذاكرة الأمة والتاريخ؛ وستبقى سورية وفيةً لفكره ونهجه وثوابته وهو ما أكّده سيد الوطن الرئيس بشار الأسد بقوله:

(ما طالب به الرئيس حافظ الأسد أطالب به، لم أنقض ولم أزد عليه شيئاً... الحقوق السورية لم تتبدل، وكذلك الشارع السوري صاحب الحق والأرض لم يتبدل... الرئيس حافظ الأسد لم يتنازل، ونحن اليوم وفي المستقبل لم ولن نتنازل)[١٤].

الهوامش

١- من كلمة الرئيس حافظ الأسد بدمشق يوم ١٩٩٢/٣/١٧م في مأدبة الإفطار.

٢- من حديثه إلى مجلة واشنطن بوست يوم ١٩٩١/٧/٢٨.

٣- من كلمته في هامبورغ بألمانيا يوم ١٩٧٨/٩/١٦م بزيارة رسمية.

٤- من حديثه للتلفزة اليابانية يوم ١٩٨٥/٩/٢٨م.

٥- من حديثه لمجلة نيوزويك الأمريكية يوم ١٩٨٧/٩/١٩م.

٦- من كلمته أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٨٥/٣/١٢م.

٧- من كلمته أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٩٤/٩/١٠.

٨- من كلمته أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٩٢/٣/١٢.

٩- من كلمته أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٨٥/٥/٤م.

١٠- من حديثه لصحيفة الأهرام القاهرية يوم ١٩٩٥/١٠/١١ بدمشق.

١١- من المؤتمر الصحفي بدمشق مع الرئيس حسني مبارك يوم ١٩٩٤/١٢/٢م.

١٢- من كلمته أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٩٢/٣/١٢م.

١٣- من كلمته أمام مجلس الشعب بدمشق يوم ١٩٧٨/٣/١٩م.

١٤- من المؤتمر الصحفي بدمشق مع الرئيس حسني مبارك يوم ١٩٩٤/١٢/٢م.

١٥- من حديث السيد الرئيس بشار الأسد لصحيفة الشرق الأوسط يوم السابع من شباط لعام ٢٠٠١م مع رئيس تحريرها بدمشق.

حوار العدد

حوار مع العماد أول مصطفى طلاس

نائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة

نائب رئيس مجلس الوزراء - وزير الدفاع

إعداد وحوار: عبير عوض (*)

«الكلام عن عظماء الناس أكثر صعوبة ...و بالأخص إن عرفناهم .... رافقناهم عمراً...عشنا معهم طريق الحياة الملأى ....أحببناهم كمايجب أن يحبوا ....قاسمونا الآلام و ظلوا كالمسيح يحملونها كي يتركوا لغيرهم السماء بلا غيوم »

كلمات قدم بها العماد أول مصطفى طلاس لكتاب « كذلك قال الأسد » ليختصر بهذه الكلمات القليلة صعوبة الحديث عن شخصية فريدة كشخصية القائد الخالد حافظ الأسد.

(*)

فالحديث عن القائد الخالد كالحديث عن نور متواصل أوكالحديث عن وطن ممتد بلا حدود .لكن رغم الصعوبة تحدث العماد أول مصطفى طلاس لمجلة المعرفة في الذكرى الثالثة لرحيل القائد الخالد حافظ الأسد في وقفة وفاء وعرفان.

لازمتم القائد الخالد حافظ الأسد وهو طالب في الكلية ،وكنتم الأكثر معرفة له في المراحل اللاحقة ...حبذا لو تكرمتم ببعض الانطباعات عن هذه الملازمة.... ماذا عن حافظ الأسد الطالب والضابط والمسؤول حسبما عايشتم ؟

بدأت رحلتي مع حافظ الأسد في الكلية الحربية يوم كنّاطلاباًنتلقى تدريباتناالعسكرية..كان محبّاً للحوار والمناقشة ..تكوّنت العلاقة بيني وبينه بحكم الانتماء البعثي المشترك ،وأخذت هذه العلاقة بعداً جديداً مع اختيار القيادة لأن نكون معاً في سلاح الجو .ما عرفته عن حافظ الأسد خلال هذه المرحلةأنه كان مثال الطالب الملتزم المعروف بانضباطه العسكريّ وبمناقبيته الأخلاقية العالية ، وبوعيه الوطني والقومي ...؛ إذ كان همه دائما القضايا المصيرية لشعبه وأمته ، وفي مقدمتها قضية فلسطين .. ولعل هذه المواصفات التي تمتع بها حافظ الأسد الطالب هي التي جعلته يحرز قصب السبق على أقرانه في نهايةالدورة ، ليكون فيما بعد طليعة الضباط الطيارين.ولأسباب خاصة تحولت إلى اختصاص المدرعات ،لكن ذلك لم يؤثر على العلاقة الوثيقة التي ربطتني مع حافظ الأسد ....تلك العلاقة التي عززها حبنا للوطن وطموحنا في أن نعيش همومه ، ونكون أمناء على رسالة أبنائه ..في سياق هذه العلاقة وتعميقًا لها كان قرارنا أن نبقى على اتصال دائم وإن افترقنا .لقد كان حافظ الأسد الطالب والضابط والقائد المسؤول مدرسة وطنية ننهل منها ، وُلدَ لأن يكون قائداً بحق،ومعلمًا بحق ، ومهما نسيت فإني لا أنسى موقفه الشجاع والجريء يوم تم نقله للعمل على الطائرات الزراعية في شرم الشيخ حيث بعث ببرقية إلى قائدالقوى الجوية المصرية جاء فيها:«أرجو وضعي في السجن حتى تنتهي الوحدة »، ولدى استدعاء قائد القوى الجوية له واستجوابه عن سبب موقفه هذا رد بجرأة منقطعة النظير :لقد أجريت دورات قتال ليلي في روسيا ،و من الواجب أن أكون في

السرب الليلي، وليس في سرب قتال الحشرات في شرم الشيخ.هكذاكان حافظ الأسد سيرة ومواقف،طالبًا وضابطًا، قائدًا مناضلاً في موقع القرار والمسؤولية،و بعثيًا أمينًا عاش التجربة الوطنية،بكل أبعادها، وأخلص لانتمائه القومي، ولشعبه وأمته.....

هل لكم أن تحدثونا عن حافظ الأسد القائد العسكري والسياسي؟

غالبًا ما يقترن النجاح العسكري بنجاحات سياسية، وما عرف عن الرئيس الراحل حافظ الأسد أنه كان بارعاً في إدارة الأزمات ،و قد اجتمع فيه الإقدام من دون تهوّر، والجرأة مع رباطة الجأش،و قوة العزيمة والتصميم على كسب المعارك سياسية كانت أم عسكرية... وحرب تشرين التحريرية عام /١٩٧٣/ وما تلاها من حرب استنزاف استغرقت قرابة/١٠٠/يوم في جبل الشيخ، ومبادرته بالتدخل العسكري في لبنان منتصف السبعينيات من القرن المنصرم لإيقاف الاقتتال بين أبناء الشعب الواحد، وشعاره :لاحركة في مواجهة العدو إلا إلى الأمام ..كل ذلك شواهد صدق على الإقدام والجرأة لديه....ومن منا لا يذكر قراره السياسي الذي بموجبه انطلقت عملية السلا م في مدريد عام /١٩٩١/، والتي تمخضت عن إقرار مقولته المشهورة :الأرض مقابل السلام،فالأرض أولاً ثم السلام ثانيًا،لأن الأرض مقدمة نتيجتها الطبيعية سلام حقيقي عادل وشامل يعمُّ أرجاءالمنطقة بأكملها، وهوبهذا الطرح قطع الطريق على حكام تل أبيب آنذاك،و حال دون تمرير صفقاتهم الاستسلامية،ضد سورية ،مؤكداً أن المعركة السياسية،لا تقل أهمية عن المعركة العسكرية، ما لم تكن أكثر تعقيداً منها،لأنها: معركة مقارعة،عقيدة وآيديولوجيا سياسية صهيونية تزعم أن لليهود حقًا تاريخيًا في المنطقة ...

كيف ينظر السيد العماد أول إلى عملية الربط بين الإنسان والمكان في فكر القائد الخالد حافظ الأسد؟و إلى أي مدى استطاعت هذه العملية أن تجسد البعد الإنساني لديه؟

يقول القائد الخالد حافظ الأسد: «..الهوية الكاملة هي ارتباط الإنسان بالمكان، وهذا المكان هو الأرض ،و من ارتباط الإنسان بالمكان يتشكل الوطن ، وعبر الوطن الهوية،نمارس إنسانيتنا ..،نستنتج من القول السابق أن علاقة

الإنسان بالمكان هي علاقة ارتباط متكامل ،إذ لا هوية للمكان من دون الإنسان ،ولا قيمة للإنسان من دون مكان يرتبط به ، ويمارس عليه كامل حريته فالمكان الوطن هو الذي يمنح الإنسان إنسانيته ،و لكنه مع ذلك يبقى مجردًا من أية قيمة ما لم يكن للإنسان ارتباط به ..... وحتى هذا الارتباط لا قيمة له إلا في إطار الجماعة القادرة على تنظيم شؤونها، وتولي أمورها، وبعث مكامن الخلق والإبداع لدى أفرادها.و لكي تكتمل عملية الربط بين الإنسان والمكان ويكون لها بعدها الإنساني ،فإنه يتعين على عملية الربط هذه أن تضع في مقدمة اعتباراتها الإنسان نفسه ،بمعنى أن يكون الإنسان الهدف والمنطلق بأن معًا وهو ما كان يسعى إليه دائمًا القائد الخالد حافظ الأسد ،و في ذلك ما يجسد البعد الإنساني لديه ،فكل شيء عنده ينبغي أن يكون من أجل الإنسان وفي خدمته ، ولا معنى لوطن لا يشعر فيه الإنسان بوجوده

بوصفكم تحملون روح الشباب المتوثب دائماً إلى العطاء كيف يمكن أن تحددوا لنا انعكاس العطاء الشبابي على حركة الحياة في سورية ، على امتداد العقود الثلاثة الماضية؟

كما ربط القائد الخالد بين الإنسان والمكان الذي هو الوطن ،كذلك ربط بين بناء الشباب وبناء الوطن ،حيث قال «بناء الشباب يعني بناء الوطن ،و هو ما عد تعبيراً عن موقفه من الأجيال الشابة التي يعول عليها في بناء الحاضر واستشراف المستقبل. واستناداً إلى هذه المعادلة شهدت سورية في خلال العقود الثلاثة الماضية نهضة حضارية رائدة ،قوامها الشباب المتحمس الذي أكسبته المرحلة طاقات هائلة من العطاء ،أرست دعائم انطلاقة نهضوية جديدة في حركة الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية و السياسية ،و كان لها إسهاماتها في بناء جسور التو اصل الحضاري مع المجتمعات الإنسانية الأخرى.

السيد العماد أول، قيل إن مرحلة الرئيس بشار الأسد تشكل امتداداً طبيعياً لمرحلة القائد الخالد حافظ الأسد ... ما تعليقكم على ذلك ؟

أنا أقول :إنهما مرحلة واحدة وإن اختلفت معايير العصر .. فالرئيس الراحل حافظ الأسد أرسى نهجًا جعل من سورية الرقم الأصعب في المعادلة الدولية ، والرئيس بشار الأسد يتحرك اليوم من

وحي ذلك النهج، ولكن بمنطق العصر ومستجداته ، وفي إطار شعار«التطوير والتحديث»

كلمة أخيرة يود السيد العماد أول أن يوجهها عبر مجلة المعرفة؟!

أود أن أتوجه عبر مجلتكم التي تعنى بالثقافة والأدب إلى رموز الكلمة في سورية والوطن العربي ،حاثًا إياهم على متابعة رسالتهم الفكرية والأدبية كما تبتغيها الطليعة المثقفة الواعية ،و كما تريدها جماهير الأمة....فالكلمة رسالة والمعرفة جوهرها، وعلى من يصوغها أن يدرك أنها السبيل إلى رقي الأمم وازدهارها إن أحسن التعامل معها.... وبالمعرفة جوهر الكلمة (الرسالة) يقول القائد الخالد حافظ الأسد: «..نستكشف الأبعاد الحقيقية للقيم النضالية الحياتية كالوطنية والكرامة والغيرية والشهادة،، ونعرف كيف نجسدها ونضعها في مكانها الصحيح ،«هي مقياس لمدى أهمية الحياة الحقيقية التي يحتاجها الإنسان».

❖ ❖ ❖

الدراسات والبحوث

الأمم المتحــدة
والنزاعات المسلحة في العالم

موسى الزعبي(*)

يستطيع كل واحد اليوم أن يتأكد من وجود العديد من النزاعات المسلحة عبر العالم، وعجز الدول والمنظمات الدولية أن تجد حلولاً لها. وهذه النزاعات، هي نزاعات دولية مسلحة، مثل تلك التي يتجابه فيها الهند مع باكستان، وكذلك الشعب الفلسطيني مع الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وهناك النزاعات الداخلية في أغلب الأحيان، كما في أفغانستان وفي سيراليون، وفي الشيشان، وهناك أيضاً، نزاعات داخلية وأخرى دولية معمرة، كما في الكونغو - كينشاسا... إلخ.

* موسى الزعبي: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب: عضو جمعية البحوث والدراسات.

ويلح الرأي العام، في كل مكان على وضع حد لهذه النزاعات، بما في ذلك المطالبة باللجوء إلى القوة أحيانًا لكن ليس من السهل وضع نهاية لنزاع مسلح، بهذه البساطة فالدول بعيدة عن تحقيق هذه المشاريع نفسها في هذه الدوافع، من أجل حماية مواقعها الاقتصادية أو الاستراتيجية أو من أجل أسباب داخلية سياسية. كما تخشى الدول في جميع الأحوال، أن تجد نفسها وقد تورطت في نزاعات مسلحة قد تدوم طويلاً، وأن تؤدي تطوراتها إلى وقوعها في مآزق، وبالتالي تخشى أن تواجه مصاعب سواء على المستوى الداخلي، كما على المستوى الخارجي.

ولاتتمنى الدول أن تتعرض لأخطار أيًا كانت سواء على المستوى الاقتصادي أو المالي، وكذلك الأمر فيما يتعلق بحياة الأشخاص المدنيين أو العسكريين ممن قبلت التورط في نزاعات مسلحة. وتكون الأسباب السياسية والداخلية هي التي تفسر «خطر الصفر» المشهور(١)، في أغلب الأحيان والذي نشره الأمين العام للأمم المتحدة في نهاية العام (٢٠٠٠) ويفهم منه منذئذ، أن الدول تنفر من التدخل لوحدها، وتعتقد كل دولة، أنه أكثر فائدة، العمل على تدخل منظمة دولية، بالاعتقاد أن ذلك يقلل من الأخطار، حتى الحدود الدنيا تمامًا. لكن تعتمد طاقة المنظمات الدولية لوضع حد للنزاعات المسلحة، على اتفاق والتزام الدول الأعضاء بشكل كبير جداً. ويكشف تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، عن ضعف كبير في نظام الأمم المتحدة، في هذا المجال، وعن تكتم الدول الأعضاء. ويقتضي التقرير حلولاً عاجلة للعديد من المشاكل التي كشف عنها ويمكن للمشاورات والارادة السياسية لدى الدول الأعضاء أن تتحقق.

وتبقى الأمم المتحدة اليوم، المنظمة الدولية الوحيدة، التي يسمح لها القانون الدولي بالتدخل في بعض الشروط، وذلك طبقًا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

ويتطلب نمط فعالية تدخل الأمم المتحدة، معالجة ضعف الوسائل في المعدات، وفي النواحي المالية والعسكرية، بالتأكيد، وتبقى المشاكل السياسية التي يثيرها البحث عن فعالية نظام الأمم المتحدة، مع ذلك مُرعبة. ويلاحظ كل واحد، الأخطار التي تحط بثقلها - تمامًا، على قابلية الثقة بمنظمة الأمم المتحدة - وقواعد القانون الدولي. . وتدخُّل منظمة حلف شمال الأطلسي - في كوسوفو - يجب أن يكون مُقررًا إذا لم يتم تجاهل الجرائم ضد الإنسانية، وانتهاك حقوق الإنسان فيها. وتكمن المصاعب، لسوء الحظ، في غياب الاتفاق على قواعد وشروط وإعداد مبدأ التدخل ليصبح

شرعيًا. ويشهد على ذلك مواجهة مجلس الأمن لهذه المصاعب - في بعض الأحيان . ويوضح عجز الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن أمام الوصول إلى إتفاق ما حول القيام بتدخل ما يوضح تمامًا، وفي آن واحد،الصعوبات أمام الدول الأعضاء هؤلاء وعلى نحو خاص، البعض منهم، لمواجهة الحلول ، وقيادة المنظمات الدولية. يضاف إلى ذلك، فلا يمكن لأية دولة - أو مجموعة دول أن تفرض الحل وحدها، وفرضه على الآخرين، مهما تكن رفعتها، أو تفوقها، منذ أن يصبح التدخل موجهًا من قبل المنظمة الدولية.

ولاتسمح موازين القوى، بين الدول، في بعض النزاعات، أن تضع حتى على جدول أعمالها، عملية التدخل. وهذه هي حال القضية الفلسطينية، والكيان الصهيوني، بحيث تقف الولايات المتحدة في وجه أي قرار لا يرضى عنه الكيان الصهيوني، يصدر عن مجلس الأمن ويأخذ صفة الإجبار، أو شبه الأجبار أو الحزم. في حين تقوم الولايات المتحدة نفسها ولوحدها، بأعمال تقررها حسب هواها، ودون أي مستند أو شرع قانوني، كما هو الحال في تعيينها مناطق حظر جوي في شمالي العراق وجنوبه، مخالفة بذلك، جميع الأعراف والقوانين الدولية. مع ذلك، فهناك بعض المواضيع التي تمس الاستقرار الإقليمي، تقع في قلب الدوافع، التي تقود، إلى مثل هذا الشكل أم ذاك من التدخل. كما أن المصالح الاستراتيجية، وحتى الاقتصادية تكون في أحيان أخرى، هي التي تشكل قلب الاهتمام وروحه.

فعلى سبيل المثال. فإن الاتفاق الذي تحقق في مجلس الأمن بشأن التدخل في موضوع الكويت، كان استثنائيًا، وفي ظروف استثنائية، بهذا الصدد، حيث اقتضت مصالح قوى الهيمنة ذلك في تلك الحقبة. ومع انتقال العالم إلى نظام دولي جديد، بعد تفكك الاتحاد السوفيتي. وهكذا، لاحظنا صعوبات وعقبات في تقليد مثل ذلك الاتفاق، في حالات عديدة، مثال ذلك، النزاعات التي مزقت يوغوسلافيا الاتحادية، والشيشان، وفي أفغانستان، الكونغو، السودان، وعلى رأس كل ذلك ما يسمى بقضية الشرق الأوسط - وعربدة الكيان الصهيوني، بدعم من حليفه الاستراتيجي الولايات المتحدة، وعجز الأنظمة العربية، مما يتسبب في عجز منظمة الأمم المتحدة أمام توجيه تدخلات فعالة، لتطبيق القرارات المتخذة بهذا الشأن أم ذاك.

يضاف إلى ذلك، غياب الإرادة السياسية من طرف العديد من الدول ويتوضح ذلك، كما يلاحظ، في تعقيد النزاعات، وتناقضات المصالح، وفي

التوازنات، والتحالفات الوطنية. وكذلك الدولية والإقليمية، عندما تصبح منظمة الأمم المتحدة، مصابة بالشلل. مع ذلك، يجب أن نأسف، لكن دون فقدان الرؤية التي تبقى مفيدة للاستمرار من أجل التبصر والتعقل وإيجاد الحلول العملية القابلة لوضع حد للنزاعات المسلحة. ومما لا شك فيه يمكن أن يتعرض المجتمع الدولي لحلول طوباوية أو مثالية في بعض الأحيان، لكن يجب عدم المبالغة، بهذا الخطر الذي يتربص بجميع هذه الحلول - وكذلك بالذين يحاولون وضع التوقعات للأوضاع في أحوال معقدة، كما هو الأمر بالنسبة للنزاعات المسلحة، لدرجة تمنعهم، وقبل كل شيء، من توجيه أصابع الاتهام، إلى عدم كفاية الأمم المتحدة ومسؤوليات الدول الأعضاء في الظروف الحالية، وبالتالي تحقيق الإصلاحات واتخاذ الإجراءات الضرورية.

ومهما تكن الصعوبات، فإن من الضروري، دراسة أسباب النزاعات والظروف التي تحيط بها - والشروط المناسبة جميعها لإيجاد الحلول القابلة لأن تضع حدًّا لذلك.

فإيجاد الحلول للنزاعات المسلحة، بتدخل منظمات دولية، ليس لها من خط لتصبح ثابتة، إلا إذا اعتمدت على إزالة أسباب النزاع نفسه. وكما لوحظ، من قبل، منذ زمن بعيد، تدخل المنظمات الدولية في كثير من النزاعات المسلحة وإيجاد الحلول لها. في الوقت نفسه، فقد تعوّد الرأي العام الدولي، على تدخل مجلس الأمن، أكثر من تدخلات منظمة حلف شمال الأطلسي أو سواها من المنظمات الإقليمية. لكن يطرح تكاثر التدخلات ومداها، والشروط التي تنفذ فيها. وهناك العديد من الأسئلة التي يجب فيها على رجال القانون أن يوضحوها.

مع ذلك، لم تفقد عمليات المحافظة على السلام، من قبل منظمة الأمم المتحدة اليوم من فائدتها، ولا من أمورها الراهنة وتداخلاتها المتميزة بنشاطات أكثر. وهي منذ بعض الوقت، منظمة ليس فقط من قبل مجلس الأمن، وفي شروط وضع جداول عمل وغير ذلك، بل أيضًا من قبل منظمات أخرى، مثل منظمة حلف شمالي الأطلسي، أو من قبل مجموعة المراقبين التابعين للمجلس الاقتصادي للتنمية الأفريقية في الغرب الأفريقي (ECOMOG). وتطالب بعض الدول الأوروبية وغير الأوروبية، أن تزود نفسها بوسائل مؤسساتية وقوات عسكرية تسمح لها بالتحرك، في كل مرة تصبح ضرورية.

ويكتسي، تدخل المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة، بالتأكيد، صيغًا متنوعة، وأحيانًا قديمة. لكن، تأخذ بالحساب، في

الوقت نفسه التحولات الحديثة، أو الجارية في العلاقات الدولية وقواعد القانون الدولي. غير أننا نشهد اليوم وعلى الدوام، عبر هذه التدخلات، ولادة قواعد جديدة، أو على الأقل، قراءة جديدة لقواعد ومبادئ أساسية مثل السيادة المطلقة.

لقد حدثت تدخلات المنظمات الدولية، في عمليات المحافظة على السلام، ومنذ زمن بعيد. ويطرح تطفل المنظمات الإقليمية في النزاعات المسلحة في الواقع، سؤالاً، حول معرفة فيما إذا كان الأمر، يتعلق بالوسيلة الأفضل من أجل إقامة السلام، وكيف يمكن لاستراتيجيات الأمن الإقليمي اكتساب استراتيجيات - أو استبدال استراتيجيات أمن جماعي بأخرى.

وباعتبار أن التدخلات، تطرح مشكلة إطار هذه التدخلات، وتثير المشاكل الكبرى التي تثيرها تدخلات المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة، فإنه من المناسب، إجراء فحص للقواعد المطبقة على النزاعات المسلحة وكذلك تطبيق القواعد المرتبطة بالحماية الدولية لحقوق الإنسان.

وتثير تدخلات المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة، السؤال المكرر حول المسؤولية الدولية، فهل يجب على الدول الأعضاء التخلص من مسؤولياتها، وذلك باللجوء إلى المنظمات الدولية، من أجل وضع حد للنزاعات المسلحة؟. فهناك العديد من المناطق في العالم، قد عرفت، منذ أمد ليس ببعيد، أو أنها تعرف أيضًا، اليوم، نزاعات مسلحة شديدة ومأساوية، على نحو خاص. ومع الأخذ بالاعتبار أهمية المشاكل السياسية والقانونية، من بين الأمور الأخرى، التي تعتبر كونها ستصبح مخصصة لنزاعات مسلحة كطاولة مستديرة وأخيرًا تلعب المنظمات الدولية دورًا، ليس فقط، لوضع حد للنزاعات المسلحة، بل في الوقت نفسه، تقوم بتعزيز السلام. والمصاعب كثيرة أو عديدة، كما يلاحظ ذلك فيما يسمى بقضية الشرق الأوسط، ووقوف الولايات المتحدة إلى جانب الكيان الصهيوني، في جميع المجالات، ويمكن تجنب المآسي في موضوع الإجراءات الاحتياطية تجاه النزاعات المسلحة، بكل وضوح، وفيما إذا كانت قد عولجت بصورة ملائمة، من قبل الدول الأعضاء في المنظمات الدولية، كما نشير إلى ذلك، العديد من المنظمات غير الحكومية. لكن تغلب المصالح الوطنية في استراتيجيات قوى الهيمنة، لا يسهل عمليات تحقيق اتفاق الدول الضروري لإقامة وسائل قانونية عملياتية.

لقد عرف العقد الأخير من القرن العشرين، عددًا هامًا من النزاعات المسلحة[٢] الداخلية والدولية. فما من

منطقة في العالم، من أفريقيا إلى آسيا، مرورًا بأوروبا وأمريكا اللاتينية، لم تعرف مثل تلك النزاعات. وكانت تقارير الأمين العام للأمم المتحدة، مخصصة لهذه المواضيع في الأعوام (١٩٩٢) و(١٩٩٩)[٣]. وكان تنوع النزاعات واضحًا في أوروبا، وفي أفريقيا خاصة وهي تحدث في الوقت الذي جعل الحكام في العديد من القوى العظمى تعتقد أن شعوب العالم سوف تدخل في عصر من الحرية والديمقراطية.

وكان انهيار النظام السوفيتي، ومهما تكن الأسباب. كان الأمل المشروع الذي يمكن أن يتسبب في ولادة أمل بالحرية والديمقراطية، بالنسبة لشعوب أوروبا الشرقية، وكبداية لعصر من السلام والتضامن المتزايد في المجموعة الدولية.

والحالة هذا، فقد أمل البعض، بأن يفتح انهيار النظام السوفيتي الطريق أمام إمكانيات مفترضة لتلاحم المجتمع الدولي، بل أيضًا تحطم مجموع ما حافظ عليه ذلك النظام، حتى ذلك الوقت، باستخدام القوة أغلب الأحيان.. بعبارة أخرى، يعني أن ذلك الانهيار، كان حاملاً لتوقعات التحرير وشهيات الهيمنة - في آن واحد -. لكن ما يحدث قد بددً تلك الآمال.

والحالة هذه - فلا يوجب الأمل - بأفضل تلاحم في المجتمع الدولي - على أثر انهيار النظام السوفيتي، لا يوجب نسيان خطر تأثير بعض القوى العظمى، خصوصًا الولايات المتحدة، على العلاقات الدولية. حيث يرى كل واحد صعوبة التقدم في حل، دون تدخل الولايات المتحدة، في النزاعات المسلحة المعاصرة.

لكن، أصبح دور الولايات المتحدة لصالح تطبيق القانون الدولي وحقوق الإنسان محل خلاف. وقد لوحظ ذلك، في قضية ما يسمى بالشرق الأوسط، وانحياز الولايات المتحدة السافر للكيان الصهيوني. وكذلك الحال. في النزاعات المسلحة المتولدة عن تحطم يوغسلافية الإتحادية السابقة، حيث ثبت في كل مكان من العالم، أن موقف الولايات المتحدة من النزاعات المسلحة محدد ومرتبط بفكرة فيما إذا كان لها مصلحة أكثر عند تطبيق قواعد القانون الدولي، أو بهدف الحماية الدولية لحقوق الإنسان، في كل مكان من العالم.

في الواقع، يمكن التساؤل، إذا كان الأمل بالسلام والتضامن الناشئ، على أثر انهيار الاتحاد السوفيتي، وبروز نظام دولي جديد، يستند على فكرة أن هذا النظام - سيترجم بالضرورة، ببروز أنظمة ديمقراطية على حالة من الحق والعدل. لكن مع الأسف، يشير كل شيء إلى العكس. على الرغم من وجود مجال من الحرية، ومن بناء جار لأنظمة تسلطية من جديد، ومن هيمنة قوة وحيدة تستخدم العنف

والقوى والدمار لحماية مصالحها الاستراتيجية، لا بل إن هذه القوة المهيمنة أعني الولايات المتحدة، لم تعد تلتزم بالشرعية الدولية ومتطلباتها.

وتظهر التجارب التاريخية، أن تعاقب الأنظمة الاستبدادية، نادرًا ما تفضي، وبصعوبة كبيرة، إلى إقامة دولة القانون، لأن القوى السياسة في مثل تلك الحالات، والملائمة لهذا التطور، تكون قد سحقت من قبل الأنظمة التسلطية، مما يزيد في صعوبة اقامة أنظمة ديمقراطية. مع ذلك، ومهما يكن نصيب الحقيقة التي تكشف عن الربط بين العديد من النزاعات المسلحة وبداية النظام الدولي الجديد، يبقى التوضيح ناقصًا. إذ على عكس الخطابات التي أعلنت عن بداية عصر من الديمقراطية والسلام، فإننا نشهد، بل لازلنا نشهد، استمرار أنظمة استبدادية في العديد من دول العالم، أكثر مما كنا نأمل من تحولات لإقامة ديمقراطيات ذات واجهات ناجمة عن اصطلاحات لفتح الطريق أمام التعددية السياسية والاجتماعية والإقتصادية، الضرورية لبناء ديمقراطيا تمثيلية.

ففي معظم بلدان الجنوب، كانت الأنظمة الاستبدادية قد تزعزعت على أثر فشل تلك الأنظمة سياسيًا واجتماعيًا وإقتصاديًا، نتيجة فشل التنمية بها وكذلك عملية تطور الدولة التسلطية باتجاه المشاركة الجماهيرية. وقد أثرت الدول الاستبدادية تأثيرًا شديدًا في كل مكان، حيث عاثت فسادًا وإفسادًا، في جميع أنواع النشاطات، خلال مدة طويلة، وأصبح لذلك نتائج ثقيلة لأعلى درجة بالنسبة للمستقبل. كما أن القوى الديمقراطية الحقيقية، لاتزال جنينية، أو هشة في أغلب دول العالم الثالث، من أجل بناء دولة القانون، كما لم تستطع قوى المعارضة للأنظمة الاستبدادية فرض أنظمة ديمقراطية في معظم البلدان النامية، بحيث يصبح باستطاعتها أن تسمح بالتمثيل السلمي للقوى، دون اللجوء للعنف. من أجل التحول الديمقراطي.

ولقد أشار الأمين العام للأمم المتحدة، كوفي أنان وهو على حق تمامًا، أنه: « في الوقت الحاضر، ينتج أكثر من ٩٠٪ من النزاعات المسلحة، ليس بين الدول، بل داخل البلدان نفسها ولدرجة أن أضحت الحروب الدولية، نادرة الحدوث نسبيًا...»[٤]

ويرجع سبب معظم هذه النزاعات المسلحة الجارية في البلدان النامية، خصوصًا افريقيا وفي آسيا، إلى عجز الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أمام حل المشاكل التي تنجم عن تطور المجتمعات، وفي عدم الاستجابة لتطلعات الجماهير في تلك البلدان[٥]

لكن، ولما كانت معظم النزاعات المسلحة المعاصرة، هي نزاعات داخلية، فإنها تتسبب بآلاف وأحيانًا بملايين القتلى، وبما يساوي أو يزيد عما ينتج عن الحروب الدولية. ويمكن لهذه النزاعات الداخلية أن تزداد سوءًا، وتتحول إلى نزاعات دولية، في كل لحظة، سواء لأنها تزيد من انعدام الأمن وعدم الاستقرار لدى الدول المجاورة أو المناطق القريبة. أولأنها قد تتسبب في مساعدة طرف ما، بطريقة مباشرة من قبل الدول المجاورة أحيانًا، أو حتى من قبل الدول الأبعد. وتظهر مثل هذه الحالات في العديد من نزاعات الدول الأفريقية بشكل خاص[٦]. كما في «منطقة البحيرات الكبرى، فهناك تدخل للعديد من الدول في النزاع في الكونغو» زائير سابقًا».

وفي بعض الأحيان، تشن دولتان حربًا، على أراضي دولة أخرى، كما في الكونغو «أوغاندا - رواندا» و«التدخلات في أنجولا». وفي آسيا، يمكن ملاحظة تدخلات الدول المجاورة في النزاعات المسلحة، في أفغانستان، وبعض الجمهوريات التي نتجت عن تفكك الاتحاد السوفياتي السابق. أيضًا، فعندما يلاحظ مجمل النزاعات المسلحة والجزء المتزايد من الحروب الأهلية، والتي تتعرض لخطر الانزلاق إلى نزاعات دولية، فإنه يستنتج أنه إذا كان تغيير الظروف، فهذا التغيير، ليس لإزالة أسباب النزاع، وفي تقليل الأخطار، أن يتحول إلى نزاع أوسع. وأخطار هذه الحروب التي تحط بثقلها على السلام والأمن الدوليين. وأن الذي تغير، ليس في طبيعة الأنظمة السياسية لدول المواجهة بدرجة ما، والتي تبقى في مجملها شمولية. لكن ماتغير هو توازن القوى. فبعد انهيار النظام السوفياتي، فإننا نشهد انتصار رأس المال واقتصاد السوق على النطاق العالمي، وقاد فشل السياسات المسماة سياسة التنمية إلى اضعاف مجموعة الـ (٧٧).

فهل يجب الخلط بين انهيار النظام السوفياتي، مع انتصار رأس المال، ومع انتصار «مايسمى بالعالم الحر»؟ في الواقع يتعلق الأمر هنا، ليس بالتقدم الاقتصادي،أو بالتطور نحو الديموقراطية، من طبيعة، تقود إلى خفض النزاعات المسلحة، أو تداركها، بل بتحولات التوازن الذي استقر بعد الحرب العالمية الثانية، وخلال مجرى ستينيات (١٩٦٠) سبعينيات (١٩٧٠). وأصبح المجال مفتوحًا أيضًا، وهو هدف الصراعات التي تتحول غالبًا إلى نزاعات مسلحة.

وكانت النزاعات تُسوّى أو تخنق في نطاق كل قطب نفوذ قبل انهيار النفوذ السوفياتي، وضعف مجموعة الـ (٧٧). ثم فتح المجال أمام دور متزايد للبعض من

المنظمات الدولية، مثل منظمة الأمم المتحدة، وحلف شمالي الأطلسي، ومنظمة الأمن والتعاون الأوربي، والمنظمات الأقليمية الأخرى، لتسوية بعض النزاعات، وذلك بعد نهاية عصر ثنائي القطب وضعف مجموعة الـ (٧٧).

وقَدّم هذا التحول في النظام الدولي، على أنه إصلاح مستقبلي على الديموقراطية وعلى نطاق دولي، وأثار آمالاً عريضة لدى الرأي العام. لكن يستعجل الرأي العام أيضًا من أجل الطلب بالتدخل بدلاً من الإدانات في حال فشل التدخل أو الامتناع عنه في حقبة النزاعات المسلحة.

الواقع، فإن جميع ماينتج عن تدخل المنظمة الدولية في النزاعات المسلحة، يكمن في الأمل في رفع الحصار عن اتخاذ القرارات في مجلس الأمن، بحيث تقوم بعض دول الهيمنة باستخدام حق النقض من أجل حماية زبائنها من الخضوع للشرعية الدولية، كما تفعل الولايات المتحدة، أمام كل مايتعلق بتصرفات الكيان الصهيوني من أعمال وحشية تجاه الشعب الفلسطيني.

ويأمل البعض مع ذلك، بإعداد سياسات أخرى، ونحو سير عمل أفضل للمنظمات الدولية، في حال تدخلها في النزاعات المسلحة، بطريقة جديدة.

إذا أصبح هناك وضع دولي جديد، لكن لاشيء يسمح بالاعتقاد أن النزاعات ستصبح بعد الآن قليلة أم مزالة.

بالتأكيد، إن الفكرة التقليدية التي بحسبها، يؤدي الاتحاد للقوة، هي دومًا حاضرة كضرورة لضمان السلام والأمن الدوليين في المجتمع الدولي. هذا الهدف هو مركزي الآن في ميثاق الأمم المتحدة. لكن يجب على القواعد التي تسمح بضمان السلام،مواجهة عوائق العالم المجرأ مما يجعل لضربة بالصدفة فعاليتها المؤثرة.

وسوف لن يكون تدخل منظمة الأمم المتحدة، ومنظمة حلف شمالي الأطلسي أو سواهما، ممكنًا، بدون هذه التحولات والنتائج التي تنتج عنها، بشأن اتخاذ القرار في مجلس الأمن وفي المنظمات الأخرى.

وأصبح يوجد، تغير في إشكاليات تدخل المنظمة الدولية في النزاعات المسلحة، بعد الآن، على النطاق الدولي، كما في المستوى الإقليمي. ويتعلق هذا التغير بالشروط التي يجب أن تتحقق من أجل اتخاذ قرار يؤدي إلى تدخل المنظمة الدولية في المقام الأول.

لكن، تكمن شروط تدخل المنظمة الدولية في نزاع مسلح، أن تكون حيادية بالنسبة للمشاكل التي تفرض التدخل في النزاعات، ومهما تكن التحولات على توازن القوى. إذ لايمكن للمنظمات الدولية التدخل إلا طبقًا لقواعد القانون المقبول لدى المجتمع الدولي، ككل دافع قانوني.

وتثير شرعية تدخل المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة مباشرة، سؤالاً عن النوعيات القانونية الرئيسة، لهذا النوع من التدخل. وهل تبدلت الإشكالية الشرعية لهذا التدخل، عند تدخل المنظمة الدولية في نزاع مسلح؟

يمكن أن يبدو الجواب سهلاً، لكن تدخل منظمة الأمم المتحدة، هو تدخل جماعي، على الدوام، يتحقق في التضامن الذي يسمح بفسح المجال لظهوره. وتؤثر الشرعية التي تنجم عنه، على موضوع الشرعية، ويعترف بها شرعًا وقانونًا. ومابين العلاقات أو النواحي القانونية والأخرى الشرعية علاقات تجاور، تتساند بحسبها، وتتبع طرقًا متشابهة أو متعارضة.

وفي الحالة التي يتم فيها تدخل المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة، يُطرح التعبيران ـ الشرعية والقانونية ـ بطريقة مترابطة تمامًا، ولهذا يدرسان معًا، مهما تكن الاختلافات التي تناسب ملاحظة كل واحد من المفاهيم.

١) شروط تدخل المنظمات الدولية:

لاتتدخل المنظمات الدولية في الشروط نفسها، التي بحسبها، عندما يتعلق بمساعدة إنسانية، أو التدخل للفصل بين المتحاربين، أو في فرض حل على أحد أطراف النزاع. ومن المعروف أيضًا، أن التدخل المسلح، يتطلب تجمع شروط أخرى، مثل التدخل السلمي. وكذلك، فإن شروط تدخل منظمة دولية إقليمية يمكنها أن تكون مختلفة تمامًا عن تدخل منظمة الأمم المتحدة.

بالتأكيد، كل نزاع مسلح، يمثل خصوصيات يجب أخذها بعين الاعتبار من قبل المنظمات الدولية، ليكون للتدخل بعض الحظ من النجاح. لكن أن لاتؤدي خصوصية كل نزاع إلى استبعاد كل رؤيا لمجمل المشاكل أو تحليل شامل لها، إذا تطلب الأخذ بعين الاعتبار العوامل الخاصة، والتي يجب أن تكون مدرجة مع الشروط التي يجب أن تكون مجتمعة لتنفيذ التدخل. ويطرح تدخل منظمة دولية ما، في هذا التوقع، وعلى ضوء التجربة، أولاً، مشكلة صياغة الإتفاق بين الدول الأعضاء، من أجل اختيار نوع التدخل وتثبيت الشروط التي يجب أن تجري فيها.

لكن، يتطلب الزعم بالتدخل لوضع حد للنزاع، ليس فقط تهيئة منظمة دولية ملائمة، لكن أيضًا وسائل تقنية ومالية.

١ -١- اتفاق الدول: يتطلب تدخل منظمة دولية، أن يكون قرار التدخل متخذًا طبقًا للوضع. والمبدأ في ذلك تقليدي إذ يمكن التخيل بصورة سيئة، بأن تتخذ منظمة دولية قرارًا بالتدخل دون الحصول على الأغلبية المطلوبة في ذلك القرار.

لكن، تنفيذ التدخل من قبل منظمة

دولية معقد أكثر، ويؤدي إلى ظهور مشاكل فيما يتعلق باحترام النظام أو ميثاق المنظمة.

فلم يكن تدخل مجلس الأمن لوضع حد للحرب الكورية عام (١٩٥٠) ممكنًا، إلا على أثر مايمكن اعتباره خطأً تكتيكيًا من قبل الاتحاد السوفياتي، الذي رفض المشاركة في اجتماعات مجلس الأمن، وهو الشرط الذي جرى فيه تبني القرار، والمسمى «الإتحاد من أجل المحافظة على السلام» أو قرار آشيسون (ACHESON)، طبقًا للسلطات المسنودة للجمعية العامة للأمم المتحدة، لأن مجلس الأمن قد مُنِعَ من ممارسة حق النقض، من أجل اتخاذ الإجراءات الضرورية للمحافظة على السلام، من قبل العديد من الدول، وذلك بتاريخ الـ (٣) من تشرين الثاني عام (١٩٥٠).

لكن لم يكن تحقيق الاتفاق من أجل اقرار التدخل لشن حرب الخليج الثانية وتدمير العراق بقرار من مجلس الأمن، سهلاً، إلا على أثر انهيار الاتحاد السوفياتي، وتراجع حركة بلدان عدم الانحياز، مما سهل على الولايات المتحدة تحقيق ذلك التحالف[٧] والواقع، فإن تحقيق الاتفاق بين أعضاء مجلس الأمن، مرتبط بالظروف وسياق الأزمة، كما في حالة حرب الخليج. وقد سهلت عدة شروط، والتي كانت صعبة التحقيق في الماضي، وهي صعبة أن تؤخذ ثانية في أزمات أخرى،سهلت الاتفاق في الواقع، يتعلق الأمر بذريعة عدوان متميز من قبل دولة عضو في الأمم المتحدة (العراق) ضد دولة أخرى (الكويت)، باحتلال أرضها والإعلان عن إلحاقها. في الوقت نفسه، كانت هناك محاولات أخرى تبحث عن وسيلة لتفادي شن الحرب، أكثر من البحث عن شنها. من قبل العديد من الدول لكن الولايات المتحدة، قد رفضتها لخدمة استراتيجيتها.

إذن كانت هناك أسبابًا أخرى، لشن تلك الحرب، بحيث أن تؤخذ بعين الاعتبار، من أجل فهم الموافقة التي تحققت لشن تلك الحرب في الخليج.

إن ما جعل تشكيل ذلك التحالف، واللجوء إلى استخدام القوة المفرطة ممكنًا بقرارات صادرة عن مجلس الأمن، هو تصميم الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب الرهان النفطي، وخدمة المصالح الاستراتيجية للشركات الأمريكية، وكذلك هو التواجد العسكري المستقبلي للولايات المتحدة في المنطقة. ولكن، فقد سمح مجلس الأمن باللجوء إلى استخدام القوة، لكن دون أن يقود الحرب بنفسه، وهذا ماسمح للأمين العام للأمم المتحدة أن يصرح بأن الأمر لايتعلق بحرب منظمة

الأمم المتحدة. والواقع، أن لجنة الأركان العامة - المنصوص عنها في المادة (٤٧) من الميثاق - لم تمارس دورها مطلقًا، وهذا يعني أن الدول تريد أن تبقى سيدة اللعبة. ففي حرب الخليج الثانية، كانت قوات الأمم، تحت قيادة الولايات المتحدة، وليس الأمم المتحدة. تتخذ القرارات وتنفذها حسب مصالحها، مع أن مجرد استخدام القوة، يجب أن يخضع (التفويض) من مجلس الأمن.

وكما هو معروف أيضًا، لم يحدث الاتفاق في العديد من النزاعات المسلحة ليس للولايات المتحدة مصلحة في شن حرب فيها، كما هو الحال في رواندا أو الصومال، حيث لم تستطع المنظمات الدولية أو الإقليمية تجنب الإبادات الجماعية[٨].

وهناك العديد من الأمثلة، لا يأتي تدخل الأمم المتحدة إلا متأخرًا، وقد لايحدث ذلك مطلقًا، على الرغم من المذابح المرتكبة، كما هو الأمر بالنسبة للشعب الفلسطيني، وحماية الولايات المتحدة للكيان الصهيوني، وعدم السماح للهيئات الدولية، وعلى رأسها مجلس الأمن الدولي، التدخل من أجل الوصول إلى حل عادل للقضية الفلسطينية وتطبيق الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة بهذا الشأن.

إذن، يمكن التأكيد، أن الاتفاق في نطاق الأمم المتحدة، هو نتيجة لنفوذ وتأثير الولايات المتحدة على هذه المنظمة. فإنه واضح، دون شك، أن الولايات المتحدة تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل قرارات حلف الأطلسي، ودورًا أكثر أهمية في تنفيذ هذه القرارات[٩]. لكن عندما تقرر الدول الأعضاء العمل على التدخل، فإن تأثير دولة ما سوف لن يقود لنوع من اختفاء تأثير دول أخرى. لكن المساواة القانونية للدول في نطاق المنظمة الدولية، لاتعني مطلقًا بأنها تزن الثقل نفسه في اتخاذ القرارات. حيث تؤدي علاقة القوة بين الدول الأعضاء، فيما بينهم، بالتأكيد، إلى دعم مشاريع الدول الأكثر جدارة في تغلب مواقفها. وفي الوقت الحاضر، تمثل موافقة الولايات المتحدة على التدخل في النزاعات المسلحة، مجالاً واسعًا، ولاغنى عنها. وإن وزنها حاسم لصياغة القرار بذلك. وتطبع العقبة أمام علاقات القوة بين الأعضاء، بعلامتها في تدخل المنظمة. لكن، كما أنه لتحقيق شرعية تدخل المنظمات الدولية، فالدول الأعضاء الأقوى بحاجة للدعم أحيانًا، بما في ذلك الولايات المتحدة، حتى ولو بالحضور الرمزي كغطاء للعمل على قبول سياستها، من قبل الدول الأخرى.

فلا يمكن مقارنة الأدوار السياسية والعسكرية للولايات المتحدة. بتلك الأدوار

للقوى الأخرى، في حرب الخليج الثانية. فذلك الدور، بحيث لم يشكل تحقيق التحالف نجاحًا للولايات المتحدة وحسب وتحقيق طموحاتها الاستراتيجية والعسكرية، عن طريق تحقيق تواجدها الدائم في جميع دول الخليج العربية، بل حولت الإدراك العقلي لهذا التدخل، بأن أعطت صورة احتلالها العسكر ي للمناطق الحساسة في المنطقة، على أنه عون لهذه الدول لدى الرأي العام، حتى إذا لم يشكل اتفاق الدول الأعضاء بالضرورة، الترجمة لتصورها وتحقيق جميع أهدافها.

وعندما يتم الاتفاق، يقتضي اختيار المنظمة الأكثر ملاءمة للتدخل، ويتنوع اختيار المنظمة، حسب سير عمل وطراز التدخل، وحسبما يتم الاتفاق عليه. وعندما لاتستطيع الدول الأعضاء وضع اتفاق، إلا على أشكال التدخل السلمي، وعندها لاتطرح مظاهر الاحتياط للمحافظة على السلام أو تعزيزه المشاكل نفسها، إلا تلك التي يطرحها التدخل من أجل فرض السلام[١٠]. إنه من الواضح، بأنه أكثر سهولة تحقيق الإتفاق لتدخل سلمي، أكثر من التدخل العسكري، خصوصًا إذا كانت أطراف النزاع لم تتوصل إلى اتفاق فيما بينها.

٢-١- خيار المنظمة الدولية: السؤال الأول الذي يطرح نفسه، هو ذلك، فيما إذا كان المجتمع الدولي بفضل التحرك وحده في نطاق منظمة دولية. إذ يتوضح التطور الذي يمكن به التقدير فيما يتعلق بالتدخل لوضع نهاية للنزاعات المسلحة، بناء على التحولات في المجتمع الدولي، فالدول تشمئز من التدخل وحدها، وتفضل القيام بذلك في نطاق منظمة دولية، ودون اعتبار لوزن الحجة الشرعية في اختيار شكل التدخل، في الوقت الحاضر، وإنه من المناسب تقدير صيغ هذه الإشكالية.

فعندما يهدد نزاع ما السلام، أو يهدد أمن الجوار، انطلاقًا من تعريض استقرار المنطقة للخطر، عندما يتم التساؤل من قبل الدول الأكثر اهتمامًا، وبالتالي القوى العظمى، كيف يمكن التوصل للحل. وهل يجب تنسيق جميع هذه الأشكال من العمل، من أجل هذه النهاية المميزة من التدخل والمتعددة الأشكال لدولة ما أو مجموعة دول، أو من قبل منظمات دولية عديدة؟

يعتمد الجواب على طبيعة النزاع، وخصوصًا علاقات أطراف النزاع على الدو ل والمنظمات الدولية القابلة للتدخل. وتبحث كل دولة، عند التدخل، وحدها، أو مع دول أخرى، تبحث قبل كل شيء، عن كيفية بلوغ أهدافها القومية، ثم الدولية، في نطاق منظمة دولية، ويمكن لدولة ما أن تزعم بأن لديها الجدارة وحدها والقدرة على التدخل واستعادة السلام مع الأخذ

بالاعتبار نفوذها على أطراف النزاع. وهذا الطراز من التدخل متميز على الرغم من تحولات المجتمع الدولي، الذي يجعل من تدخل دولة لوحدها أمرًا صعبًا. مع ذلك، لايمكن إهمال مثل هذا السيناريو. ولنذكر هنا دور الولايات المتحدة في تدخلها لحل النزاع في قضية ما يسمى بالشرق الأوسط، واستبعادها لجميع المنظمات الدولية للعب أي دور كان.

لكن يجعل التعقيد في النزاعات المسلحة، ودوامها مدة طويلة، وتورط قوى متنوعة ومتعددة، يجعل الجهود الفردية معرضة للفشل في أغلب الأحيان، لأن بعض القوى تراقب عن كثب، بأن حل النزاع قد يترجم بتوازن جديد للمصالح، ولأنها ستكون غير ملائمة بالنسبة لها، فتفضل هذه أن لا تتدخل مباشرة، وأحيانًا أخرى، يحدث أن تتوصل بعض المنظمات إلى اتفاقيات، كما جرى في اتفاقيات دايتون الموقعة في باريس بتاريخ الـ (١٤) من كانون الأول (١٩٩٥) تحت جناح الولايات المتحدة بصورة رئيسة، وبالاتفاق مع الاتحاد الأوربي، من أجل وضع حد للأعمال العدائية في نزاعات البوسنة وفي كوسوفو، والوصول إلى اتفاق بتنسيق عدد من الطرق «الدبلوماسية، وثنائية الجانب، والضغوط الدبلوماسية، وتدخل الاتحاد الأوربي،ومنظمة حلف شمال الأطلسي، ومجلس الأمن...».

مع ذلك، فقد ولدت اتفاقيات رامبوي، المتعلقة بكوسوفو، ميتة في آخر الأمر عام (١٩٩٩)، وذلك نتيجة تدخل بعض القوى، ومنظمات دولية خصوصًا الاتحاد الأوربي. لكن، رفضت هذه الاتفاقيات من قبل الصرب في آخر الأمر، بتاريخ آذار (١٩٩٩). ولم يستطع مجلس الأمن إيجاد اتفاق بين الأعضاء الدائمين من أجل التدخل العسكري[11]. ثم تدخل حلف شمالي الأطلسي، مبتدئًا بقصف الأهداف العسكرية، والأهداف التي اعتقد أنها استراتيجية، وذلك اعتبارًا من (٢٣) آذار (١٩٩٩). وهكذا جرى التنسيق بين الطرق المتقاربة الكثيرة للحل ولتذليل الصعوبات للوصول للحل. وهنا، فإن التوفيق السلمي بين المصالح، غير مؤكد غالبًا، والنتيجة فإن ترابط المجتمع الدولي كرهان مأمول، على أثر انهيار الاتحاد السوفياتي لم يكن سوى كلام فارغ.

وكذلك ـ تخشى بعض قوى الهيمنة من الفوضى والخسارات في الحياة الانسانية أحيانًا ـ مما يؤدي إلى الإتهام، الذي يوجه سياسة هذه القوى، سواء على المستوى الداخلي أم الدولي، كما كان عليه دور الولايات المتحدة في هاييتي[12] أو في الصومال[13] ودور فرنسا في رواندا، وفي عملية توركواز[14] لهذا، لم تعد الولايات المتحدة، تحبذ التدخل لوحدها في

النزاعات الهامة التي تتطلب تدخلاً طويل المدى، كما حدث معها في فيتنام، وحتى في الصومال.

كذلك، فإنه بالحصول على تدخل منظمة دولية، يتم تجنب عزلة الدولة التي ستتدخل وحدها. وكذلك تزيد من عداوة الدولة المتدخلة على الأرض التي يدور عليها النزاع المسلح. كل ذلك، مع الأمل، الأخذ بالحساب المصالح المختلفة للدول المتدخلة، وعلى نحو أفضل.

في الوقت نفسه، فإن تدخل منظمة دولية يقتضي تحضيرًا طويلاً وتحولاً في استراتيجية الدول الأعضاء، مما يطرح مشاكل على المستوى الوطني والدولي، وتنعكس على شكل انتقادات، يعبر عنها بعجز المنظمات الدولية أو عدم فعاليتها.

وفي نزاع نفسه يمكن لعدة منظمات دولية أن تتدخل، إذ ليس هنالك من مبادىء دولية لتقسيم الأدوار، على الرغم من المادة (٥٢) من ميثاق الأمم المتحدة، التي بحسبها، يمكن أن تلعب منظمة الأمم المتحدة، والمنظمات الإقليمية أدوارًا هامة، مقسمة فيما بينها، أو لواحدة منها.

ولوحظ أيضًا أن الجامعة العربية، أو المؤتمر الإسلامي، لم يتدخلا في النزاع في الخليج العربي/، بسبب الانقسامات في تلك المنظمات حول المواضيع.. وكذلك الحال بالنسبة لمنظمة الوحدة الإفريقية، العاجزة عن التحرك في النزاعات المسلحة الإفريقية العديدة[١٥]، وكذلك الأمر عجز منظمة الدول الأمريكية، عن التدخل في النزاعات المسلحة بين دول أمريكا اللاتينية[١٦]. وينتج عن عجز هذه المنظمات، صعوبات، أمام تجميع شروط اتفاق بين هذه الدول، وهي كاشفة لتداخل المصالح المتناقضة بين الدول الأعضاء في هذه المنظمات، وتلك من خارجها. ولانذيع سرًا إذا قلنا أن الولايات المتحدة، قد ساعدت كابيلا على الانتصار على موبوتو، وارتكابه المجازر في بلاده. وهنا، هل يجب التمييز بين التدخلات الخاصة بالمنظمات الأقليمية عن تلك الخاصة بالمنظمات الدولية؟.

فعندما لا تتفق الأطراف صاحبة العلاقة، يصبح الاختيار غير سهل. وهنا لا بد من الاعتبار أن ميثاق الأمم المتحدة، هو وحده الذي يقدم أساسًا قانونيًا عالميًا مقبولاً من أجل اللجوء للقوة»[١٧].

في الواقع، تتمنى الدول وحدها، أو ضمن المنظمات الدولية، أحيانًا، تدخلاً من قبل منظمات إقليمية، حيث تكون في وضع مناسب أحيانًا من الناحية العملية للعب دور هام، سواء من ناحية في مجال التحذير أو الدبلوماسية الوقائية[١٨].

وهناك أمل بإقامة (شراكة حقيقية) بين المنظمات الإقليمية ومنظمة الأمم المتحدة،

تقوم على الالتزام بالمهمات الأكثر عقلانية والأكثر اقتصادية حسب صيغة الفصل الثامن من ميثاق الأمم المتحدة.

ويمكن أن يؤدي ذلك إلى جعلها مؤسساتية، أي العلاقات بين منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية الدولية[19]. لكن تبقى الرغبة السياسية للدول غير كافية. من أجل بلوغ الأهداف المعلنة. وإن ما هو جديد، ويثير الاهتمام، في آن واحد، هو ضرورة تحقيق اتفاق بين الدول من أجل العمل الفعال للمنظمات الدولية العامة أو الإقليمية، وصعوبة تحقيق ذلك.

وهناك محاولات عديدة في هذا المجال، مثل تشكيل مجموعة (الكانتادور) في أمريكا اللاتينية، ومجموعة الاتصال في الإتحاد الأوربي، مرورًا بالجهود المبذولة من قبل منظمة الوحدة الإفريقية، ومنظمة الدول الأمريكية لتسوية العديد من النزاعات، لكن غالبًا ما تكون دون جدوى، فعلى سبيل المثال، اتفاق الجزائر في (١٨) حزيران (٢٠٠٠)، تحت إشراف منظمة الوحدة الإفريقية ومنظمة الأمم المتحدة، من أجل وضع حد للنزاع بين اثيوبيا وأرتيريا».

ومهما تكن أهمية الاتفاقيات، لا يعتمد اختيار منظمة دولية، لتجنيب نزاع مسلح وإعادة السلام أو تعزيزه، لا يعتمد فقط على الرغبة السياسية، واتفاق الدول الأعضاء من أجل التدخل، بل يعتمد أيضًا، على وجود الوسائل التقنية والعسكرية والمالية، ويعتمد اختيار منظمة ما إذن، أيضًا، على علاقات القوة، ليس فقط بين الدول الأعضاء، بل أيضًا على جميع المشهد الدولي.

٣-١) – ضرورة الوسائل التقنية والمالية:

تبين مراقبة معظم النزاعات المسلحة المعاصرة أو الجارية، أن طبيعة وانفراس وأهمية وتنوع القوى المتواجدة، تجعل تدخل المنظمات الدولية، صعبًا جدًا، فما من دولة أو منظمة دولية يمكنها مواجهة التدخل جديًا، إذا لم تملك الوسائل التقنية والمالية المناسبة.

حيث لا تسمح القدرة العسكرية لأحد أطراف النزاع، في بعض الحالات، كما هو الأمر بالنسبة للنزاع الفلسطيني الصهيوني، أو في الشيشان، لا تسمح التحالفات القائمة، كثيرًا أو قليلاً بوضع التدخل على جدول أعمال المنظمة الدولية. وما من منظمة دولية، تواجه التدخل، إذا كان تدخلها لا يقلل من الخسائر، فكيف يواجه التدخل المسلح من منظمة دولية ضد قوى نووية؟

والحالة الأخرى، طراز النزاع، والتنافر الذي يمكن أن يحدثه على المستوى الدولي، أو عجزه في فرض غياب خيار قابل للتصديق للقوى الديموقراطية، على الأرض «كما في الجزائر، وفي السودان، وفي

أفغانستان... الخ» ويبدو استبعاد كل تدخل مسلح من قبل منظمة دولية حسب الحالة.

وعندما يصبح التدخل محل ترحيب، يجب على الدول الأعضاء في المنظمة، وضع الوسائل التقنية والمالية والعسكرية والإنسانية المناسبة، تحت تصرف الدول الأعضاء. هذه الوسائل ضرورية لجعل التدخل قابلاً للتصديق، ومن أجل وضع حد للنزاع وتحقيق الأهداف المعنية، أيضًا، فهل يجب امتلاك هذه المصادر وقبول نشرها في مصلحة الجماعة؟

هذا هو ما يطالب به المبعوثون الخاصون المتنوعون، ومن قبل ممثلي الأمين العام للأمم المتحدة على أرض النزاعات. وكل يعرف إذن، أهمية منظمة حلف شمالي الأطلسي، وكذلك الولايات المتحدة، كونهما المنظمات الوحيدتان اللتان تملكان الوسائل التقنية العسكرية القادرة على تحقيق التدخل بفعالية، وقابلية لجلب أطراف النزاع إلى تحقيق وقف اطلاق النار[20].

وإن ما هو غير كاف في الرغبة بالتدخل من قبل المنظمات الدولية، هو أن على هذه المنظمات، التزود بوسائل مؤسساتية، تسمح لها باتخاذ القرارات من أجل توقف النزاعات واحتوائها، وبناء السلام أو فرضه.

وتشير الاستراتيجيات المطبقة في كوسوفو، كما في الخليج العربي، أو في مناطق أخرى، إلى أن الدول الأعضاء، في منظمة حلف شمال الأطلسي، تحافظ في جدول أعمالها على سياسات التدخل المسلح، على الدوام.

ويرتسم في أوربا اليوم (واقع) يقبل بلعب دور لا يحمل ظلالاً حول التفوق التقني والعسكري للولايات المتحدة، بدون اختفاء الخصومة القديمة بين فكرة دفاع أوربي، تعتمد على إقامة منظمة عسكرية مستقلة أوربية، مع تسوية نفوذ الولايات المتحدة على استراتيجيات وقرارات التدخل. ويرتسم في أوربا. نوع من التسوية (الواقعية) تقبل بلعب دور لا يحمل ظلالاً حول التفوق التقني والعسكري للولايات المتحدة، وبحيث تشعر تلك بحدود تدخلها في لحظة ما تمامًا. وكما كتب (برتراند بادي) و(ماري كلود): (إن الألعاب المعقدة جدًا، والممثلون عديدون جدًا، من أجل أن يفرض واحد وحده، نفسه، في كل مكان بطريقة حاسمة وملائمة، وفي الاعتقاد بأنه يرغب فيها»[21].

لكن، من أجل أن تكون مثل هذه التسوية قابلة للحياة، وتتوافق مع الواقع، يجب على الأوربيين، أن يسلحوا أنفسهم. وكما يشير جورج (روبرتسون) الوزير البريطاني السابق للدفاع، الذي أصبح الأمين العام لحلف شمالي الأطلسي: «ستصبح أوربا، دون قدرة عسكرية، نمرًا من ورق». إذ إن الفجوة تتزايد بين القدرات

العسكرية للولايات المتحدة وتلك الأوروبية في الوقت الحاضر. وهي لا تسمح بالمواجهة، على المدى المتوسط، للوصول إلى استقلال ذاتي في القرار، في المؤسسات وفي السياسة الخارجية. وفي الأمن المشترك. نصوصًا إذا كان الأمر يتعلق بنزاعات تكون فيه المصالح الاقتصادية والاستراتيجية الأمريكية جوهرية.

وطبقًا لتقرير صادر عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن، بتاريخ الـ (٢١) تشرين أول (الاتفاق الأمريكي في مجال الدفاع (٢٧٦.٢) مليار دولار، للعام (١٩٩٩)، ومن المتوقع أن يصل إلى (٣٠٠.٥) مليار دولار عام (٢٠٠١)، ثم (٣٢٠.٨) في عام (٢٠٠٢)، وهكذا، في حين لم يتجاوز الانفاق الأوربي (١٤٠) مليار دولار لعام (١٩٩٩).

يضاف إلى ذلك، فالأمريكيون، يهتمون بشكل كبير لتحديث المعدات، خصوصًا في مجال الطيران، من وجهة نظر فعالية هذا الانفاق، وفيما يتعلق بقدرات التدخل الأمريكي[٢٢].

وهكذا، يستخلص المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، «تبقى قدرة أوربا على القيام بعمليات مستقلة دولية رئيسية، توقعًا بعيدًا».

وإذا كان الأمر كذلك، فهل هذا الدور المهيمن الأمريكي للولايات المتحدة، يرتسم دون شك على النظام الدولي الجديد.

والحالة هذه، لم ينتج عن هيمنة الولايات المتحدة، لا السلام ولا الرفاه، إذا استمر واقع الحال، لأن هذه الهيمنة، هي مصدر النزعة الاستبدادية، على الرغم من أنه جرى الاعتقاد، أن انهيار الاتحاد السوفياتي سيكون حاملاً للحرية. وإنه يجب تحسين القدرات العسكرية للمنظمات الدولية بهدف الوصول إلى أفضل فعالية لعملياتها، بحيث يجب أن لا تعمل على نسيان أن التدخل يتسبب في إخفاق الحصول على الأهداف الأكثر أهمية، فيما إذا لم تصبح مقبولة ومشروعة من قبل المجموعة الإقليمية والدولية. وإنه من المقنع إذن، القيام بفحص المواضيع المشروعة والقانونية لتدخلات المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة.

٢ - شرعية وقانوية تدخلات المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة:

لا يمكن أن تدرس المواضيع الشرعية والقانونية بشأن تدخلات المنظمات الدولية، دون بعض التوضيحات المسبقة من أجل تحديد وعرض عبارات المشاكل التي تبدو أكثر أهمية.

هناك، سلسلتان من الملاحظات. تتعلق الأولى بتنوع تدخلات المنظمات الدولية التي تتضاعف طبقًا لتنوع المنظمات الدولية المتدخلة. ويؤثر هذا النوع بالضرورة على الحجج التي تجعل التدخل مشروعًا، أو تعطيه أساسًا قانونيًا لتلك الأفعال، أما

الثانية، فهي ترسم الأسباب التي تقودنا إلى تجميع الأسئلة المتنوعة، مثل الشرعية والقانونية.

٣ - تنوع تدخل المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة:

لا يمكن لتدخلات المنظمات الدولية في النزاعات المسلحة، أن تصبح محل إجلال وبالطريقة نفسها، إذا كان الأمر يتعلق بتدخل سلمي، أو التدخل باللجوء للقوة المسلحة.

كذلك، فالتدخلات السلمية، متنوعة جداً، بحيث لا يمكن للتقديرات أن تكون منطبقة مع الواقع، مثل الإشراف على انتظام الانتخابات في بعض البلدان أو القيام بتقصي دولي لأحداث جرت، أو توجيه المساعدات والإعانات الإنسانية... الخ.

ويمكن للنزاعات المسلحة أن تفسح المجال أمام جميع هذه الأشكال من التدخل. يضاف إلى ذلك، تجري جميع هذه التدخلات باتفاق الدول المهيمنة، حتى إذا لم تكن هذه الدول متحمسة للتدخل في الأرض التي تدور عليها الأزمة.

كما أن المظهر السلمي لهذه التدخلات، واتفاق الدول الإقليمية، من الأمور المطلوبة بقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة[٢٣]. إذ يدل التقدم في القانون الدولي الإنساني[٢٤]، والحماية الدولية لحقوق الإنسان، جميعها، على النظام الدولي، أو على الأقل، على تطور وتحول، يسمحان بدعم جدي للشرعية والقانونية لهذه التدخلات في النزاعات المسلحة. كما تطرح التدخلات السلمية، بالتأكيد للمنظمات الدولية، مشاكل ليست خالية من النقد. وتبقى عمليات الإهمال التي يتعرض لها السكان في بعض النزاعات المسلحة، وغياب التدخلات الإنسانية، أو وصولها على نحو متأخر في بعض منها، وردود الفعل غير المتوازنة طبقًا للمناطق، وحسب المناطق، وطبقًا للدوافع، التي تظهره الأمثلة المشهوره: «وزنين واجرائين»، و«الكيل بمكيالين)، بحيث تبقي التدخلات الإنسانية غير مؤكدة. كما يبقى الاتفاق بين الدول هشًا. ولا يمكن تجاهل أن هذا الحق في التدخل الإنساني، هو حق الضحايا قبل كل شيء، والذي يفرض على الدول الإقليمية، قانونًا دوليًا، واجبارًا على التضامن، والالتزام به.

وإذا لم تُستَجب الإغاثة، في بعض النزاعات، عنها يطرح سؤال حول مسؤولية دول المنظمات الدولية التي تمتلك الوسائل لمثل هذا التدخل[٢٥] ففي الوقت الحاضر، يوجه الاتهام، في تقرير صادر عن الأمم المتحدة[٢٦] إلى مسؤولية الأمم المتحدة لعدم تحركها لوقف المذابح التي ترتكب ضد الشعب الفلسطيني على أيدي النازيين الجدد، مثل شارون ومن معه. كذلك ارتكاب المجازر في رواندا[٢٧].

١-٢) شرعية تدخلات المنظمات الدولية:

الشرعية بمعناها الاشتقاقي (Etymologique)، هي تكريس القانون، إذن، ليس عن طريق الصدفة، أن تتقارب الشرعية مع القانون. لكن تقع الشرعية، على بعض المسافة من القانون، من أجل أن تقارب شيئًا فشيئًا مع الأخلاق والعقل.

فعندما تتدخل دولة ما في نزاع وحدها، متابعة مصلحة وطنية، تبدو كمبرر أساسي لتدخلها، ينظر إلى تدخلها، كإبراز لقوتها، بهدف تحقيق أهداف خاصة، منذ ذلك الوقت، وتتوافق مع مصالح المجتمع الدولي وقتيًا. وينتج عن ذلك مصاعب كبيرة للعمل على قبول مثل هذا التدخل، والحصول على تضامن دولي.

وعلى العكس، يبدو تدخل المنظمة الدولية مباشرة، كرد على أهداف متقاسمة، مشتركة مع دول عديدة. وهي أيضًا مقبولة بشكل أفضل كأهداف جماعية، مخصصة لإرضاء مصالح الجميع. وبطريقة ضمنية، أو جلية، يبدو تدخل منظمة دولية، مطابقًا للأخلاق أكثر، لأنه يفترض أنه لا ينبع من مصلحة وطنية حيث يفترض أنه خاص، وحتى أناني.

وسيكون تدخل المنظمة الدولية مدعومًا أكثر، عندما يكون مفروضًا بالأخلاق الدولية، وهي نفسها، تعتبر كتركيب لقيم يستند إليها المجتمع الدولي. وإن الاعتماد على الأخلاق الدولية والقيم الاجتماعية التي تشكلها هي المظهر الأول للشرعية التي يقوم عليها تدخل المنظمة الدولية.

وتدعو الشرعية الدولية إلى الديموقراطية، وإلى حقوق الإنسان أيضًا، وإلى تطبيق القانون الدولي. ويلعب وجود شخصية قانونية خاصة في المنظمة، دورًا لتعزيز شرعية التدخل. وإن تطابق الأخلاق، مع القيم الاجتماعية والدعوة إلى الحق، وشخصية المنظمات، تبدو اليوم كأعمدة يستند إليها التدخل.

٢-١-١) - تطابق تدخل المنظمات الدولية مع الأخلاق، وقيم المجتمع الدولي:

كل نظام سياسي أو قانوني، بحاجة للعمل، بحاجة لقبوله من قبل أولئك الذين يوجه إليهم النظام السياسي أو القانوني. والمنظمة الدولية بحاجة للعمل على قبول سياستها وقراراتها بصورة خاصة، تلك التي تترجم بالتدخلات فهي بحاجة إلى خطاب لتجعل التدخلات شرعية.

أحد أزمات عملية الشرعية هذه، هي خروجها على القانون. فهذا الزمن هو الزمن الذي تتوجه فيه المنظمات للرأي العام بشكل واسع من أجل الحصول على دعمها، وهو الذي يدعو إلى التمسك بالقيم التي تبدو له، على أنها الأفضل، المزروعة في المجتمعات.

ويعتبر عمل المنظمات الدولية، في

الأغلب، كتأكيد لتطلعات المجتمع الدولي، حسب الفرضية هذه، لأن المنظمة تتحرك باسم جميع الدول الأعضاء الذين هم جزء منها. وهي تسمو على المصالح الفردية، وتمحي الأهداف الخاصة. وتضع المصالح المشتركة لجميع الأعضاء، في المقام الأول، مشيرة في الوقت نفسه، كم سيكون من غير المعقول، معارضتها، وتسمح تدخل منظمة دولية، في تحقيق الشرعية الجماعية أيضًا.

وكما كتبت (ماري – كلود سموت (MariE-Claude Smouts) عن (مفهوم الشرعية الجماعية، بوصف الوظيفة السياسية الأساسية للمنظمة الدولية: «تتضمن حكمًا، باسم المجتمع، يصنف ما هو صحيح، وما هو غير صحيح، ويطري ويعيب، فهو يجعل قرارًا شرعيًا، وآخر، غير شرعي، أو ادعاء». ويسمح ضمان المنظمة الدولية، بتخفيف التكلفة السياسية لهذه العمليات أمام الرأي العام، والعملية التي تصبح مشروعة، ستكون أقوى وأوسع، بحيث سيصبح التدخل ودعمه، ودعم منظمة الأمم المتحدة، مبحوثًا عنه، عندما تختار الدول، تدخل منظمة دولية إقليمية.

أما أن يصبح المجتمع الدولي أخرسًا، بسبب المكاسب الشخصية، فهذه أنانية: إذ يمجد العقل، والإحساس المشترك، كالعقائد الدينية وأنبيائها، الفلسفات الكبرى، تمجد كلها، هذه الأنواع من العروض المتوافقة مع الوعي الجماعي. وتأتي قوة هذه القيم من التلاحم المفترض أو الحقيقي بين قطاعات واسعة من المجتمع الدولي[٢٨]. هذه القيم، هي نتاج العقائد الدينية، منذ زمن بعيد، ومن قبل الاتجاهات الفلسفية الكبرى التي طبعت العالم بعلاماتها.

وتلعب فكرة جعل التدخل عملية مشروعة من قبل الأخلاق، دورًا مضاعفًا فهي تشير إلى أن المنظمة ترد على الميل الجماعي، الذي يفترض وجود أداة، أو نوعًا من التبرير، أو ذراع مسلح، والمشاركة في إنقاذ ما هو أفضل في العالم. فهي تعزل مرتكب المخالفة، الذي يبدو عندئذ على أنه خارج على القانون، والعدو العام للمجتمع الدولي.

لكن، تظهر هناك شكوك حول قصدية بعض التدخلات، فعلى سبيل المثال، تظاهر مئات الآلاف، في بلدان عديدة، أثناء احتلال الكويت من قبل العراق، وإصدار مجلس الأمن القرارات العديدة بهذا الشأن، معتبرين أن ما قام به ذلك التحالف، ما هو إلا عدوان أمريكي – غربي، ضد العراق، باعتبار مجلس الأمن أداة توضع لخدمة مصالح الولايات المتحدة والغرب. ويتساءل المتظاهرون، لماذا لا يطبق على الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، ما طبق على العراق؟

وتتناقض السياسات الدولية للقوى

الأعظم، خصوصًا الولايات المتحدة، مع الدعم الذي تقدمه هذه القوى إلى بعض الأنظمة القمعية، في العديد من البلدان.

٢-١-٢) - الإقرار الشرعي للتدخل عن طريق الدعوة إلى الديموقراطية وحقوق الإنسان والقانون الدولي:

تقوم المنظمة المتدخلة، بالدعوة إلى تطبيق القانون، من أجل الإقرار بشرعية تدخلها. كما يجري التدخل المنظم باسم الديموقراطية، بعبارة أخرى، استعادة النظام ديموقراطيًا، ويجري كل شيء، حيث تزود المنظمة الدولية المتدخلة بالقدرة على التدخل الذي يتطلب مبدأ الاقرار الشرعي الديموقراطي في النظام الدولي.

بالتأكيد، يجري تأكيد هذا المبدأ في الوثائق الدولية أكثر فأكثر[٢٩] وما من دولة تتجرأ على مخالفته بشكل صريح لكن يبدو من الصعب اعتبار أنه يوجد طراز ديموقراطي، يفرض القانون الدولي فيه احترامه.

وأصبح التمسك بحقوق الإنسان، أثناء مجرى السنوات الأخيرة، من أجل جعل التدخل مشروعًا من[٣٠]..

ويحق للأمين العام للأمم المتحدة، أن يوضح: «أن الحروب الدولية؟ قد أصبحت نادرة نسبيًا، وفقدت دوافع التدخل المستخدمة مبرراتها تقليديًا، لتكون، ولتصبح، الاعتبارات الإنسانية، وحقوق الإنسان أكثر ما تذكر، لتبرير التدخل بالقوة في النزاعات الداخلية[٣١].

وهناك أيضًا، تشكل الانتهاكات الفظة لحقوق الإنسان، مصدرًا للنزاعات المسلحة، وعلاقة فشل لطراز ممارسة السيادة المطلقة، وإدراك للدولة، بأن لها الحق، أن تقوم بكل شيء داخل حدودها، ويجب أن لا تتوقف الأبعاد الدولية لحقوق الإنسان، لتصبح محدودة، بل يجب أن تطبق على جميع الجنس البشري، ولكل واحد الحق بأن يطالب بها، ويتضمن البعد الشامل لحقوق الإنسان، وظيفة التضامن بين الناس، دون اعتبار للحدود بين الدول، وهنا، يطرح السؤال، فيما إذا كانت التعويذة لحقوق الإنسان والفظة، تسمح بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول، وكيف يمكن التوفيق بين السيادة المطلقة للدولة، ووظيفة التضامن التي تفترض الشمولية لحقوق الإنسان؟

هذا السؤال، هو في قلب العديد من النزاعات المسلحة، وكذلك تدخُّل المنظمات الدولية بهذا الشأن. والجواب، لا يمكن أن يعطى بالنسبة لجميع النزاعات. وأبعد من السؤال، معرفة، من هي المنظمة ذات الصلاحية، أو ما هي حتى أن يصبح التدخل أكثر شرعية، ويجب التساؤل، حول العلاقة بين السيادة المطلقة للدول، وحق الشعوب في أن تلزم نفسها بذلك.

من وجهة نظر تاريخية: للسيادة المطلقة للدولة، هدف، هو حماية السكان، ضد كل ما يمكن أن يسبب اعتداءً على وجودهم.

بعبارة أخرى إنه لا يمكن للسيادة المطلقة، أن تكون مواجهة، على نحو تجريدي، فالدولة نفسها، هي، مرتبطة بوجود السكان، وبشكل ينتظمون على أرض[٣١] بشكل لا ينفصل. وسوف لن تعرف الدولة ممارسة سيادتها المطلقة دون ضرورة الأخذ بالحساب، حق الشعب، عندئذ. ومن وجهة النظر هذه، فإن الانتهاك الفظ لحقوق الإنسان من قبل دولة ما، يبدو كانحراف في ممارسة حق السيادة، وان الدولة التي تعتبر مسؤولة، لا يمكنها عندئذ إلا أن تفتخر بذلك، لكن يبدو هذا التبرير أكثر صلة بالموضوع من أجل التدخل السلمي، أكثر من كونه تبريراً للجوء للقوة.

ومهما يكن تطور الحماية الدولية لحقوق الإنسان، فلا يبدو ممكناً التأكيد أنه توجد اليوم قاعدة للقانون الدولي تسمح للمنظمات الدولية باللجوء للقوة من أجل وضع حد لانتهاك حقوق الإنسان، خارج الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، ولا يحدد القانون الدولي، الشروط التي يمكن فيها للتضامن الدولي الوصول إلى مثل ذلك التدخل، حتى فيما يتعلق بالتدخلات السلمية. فالتدخل هو مشروع، عن طريق المثل الأعلى للديموقراطية، وحقوق الإنسان، ويجب أن لا تكون المنظمة التي تتدخل خرساء، إلا عن طريق هذه النهاية. بعبارة أخرى، فكل مناورة، أو عملية، لجعل هذه الأفكار، كأدوات ستكون شؤماً عملياً لاقامة الشرعية للتدخل.

وتظهر مصاعب أمام جعل قابلية الثقة بالتدخل باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان، عندما لا تكون الدول الأعضاء في المنظمة نفسها، ليست دولاً قانونية. كما أن الممارسات العملية غير المتلاحمة للتدخل، التي تتوصل إلى الاعتراف بأن مبدأ «الوزنين والاجرائين» المشهور ليس طبيعيًا لتعزيز شرعية التدخل من قبل المنظمات الدولية.

ومهما تكن شرعية تدخل التحالف المشكل من قبل الولايات المتحدة من أجل انسحاب القوات العراقية من الكويت، فإن غياب تصديق العقوبات ضد الكيان الصهيوني، يجعل هذه الشرعية انتقائية، وبأن حماية المصالح النفطية والاستراتيجية هي الهم الرئيسي الأقوى في تطبيق القرار رقم (٦٧٨) الصادر عن مجلس الأمن ضد العراق[٣٢].

ويمكن التساؤل أيضًا، فيما إذا كانت المشاكل في البوسنة وفي كوسوفو، متعلقة باستقرار البلقان وحسب، أو فيما إذا كانت ضرورية لاستراتيجية الولايات المتحدة، التي أدت إلى اتخاذ ذلك القرار بتدخل منظمة حلف شمالي الأطلسي لأنها هي الأهداف الحقيقية.

ويفهم عندئذ لماذا لاتضع القوى المتدخلة في جدول أعمال سياساتها التي ستترجم على الأرض، قاعدة حق الشعوب

في التصرف بنفسها، وفي تقرير مصيرها. وبأنها ستأخذ أبعادًا، تجاه الأنظمة الشمولية عندئذ تتوافق مع مساعدات للقوى الديمقراطية التمثيلية.

٣-١-٢) - شخصيات قانونية للمنظمة وشرعية التدخل: يؤدي التدخل الموجه من قبل منظمة متميزة قانونيًا في كل دولة عضو، إلى التفكير أن المجتمع هو الذي يتدخل، وليس هذه الدولة أو تلك. ويلعب وجود شخصية قانونية، بأن يعزى للمنظمة دورًا جوهريًا في بناء هذه الرؤيا. **هذه الرؤيا هي بدورها،** أساسية لبناء شرعية التدخل، لأنها تسمح بإعداد فصل بين المصالح وأهداف الدول الأعضاء وأهداف المنظمة.

وإنه من المعروف، أن منح الشخصية المعنوية، إلى منظمة يسمح بالتمييز بالإرث وبالأفعال وخصوصًا شخصية كل عضو، وكذلك الجوهر الجماعي. وهذا التمييز في الشخصية، ينظم كذلك مسافة بين الأعضاء والمجتمع. وهذه المسافة تؤدي إلى الاعتقاد أن قرارات المنظمة ليست تلك الخاصة بالأعضاء، وتعمل على نسيان، أن بعض الأعضاء يلعبون دورًا حاسمًا في تشكيلها.

ويُفترض في قرارات المنظمات بأنها تهدف لمتابعة المصالح العامة، حتى عندما يشغل أحد أعضائها موقفًا مهيمنًا في تحديد الاستراتيجيات كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة في حلف شمالي الأطلسي. وإلا فسيتم الاعتقاد بأن استراتيجية حلف شمالي الأطلسي هي تلك الاستراتيجية الأمريكية.

٢ - ٢) - قانونية تدخلات المنظمات: توطيد القانونية عامل أساس في قرار وسلوك التدخل في النزاعات المسلحة. ويتجلى العمل على تدخل المنظمات الدولية، عندما يقود انتهاك القانون الدولي إلى تخريب الأهداف التي يُدعى على أنها متابعة البحث عن الشرعية. وتتغذى القانونية والشرعية الواحدة من الأخرى[٢٤]. إذن من الضروري أن يتموضع موضوع الشرعية في الأمور الخاصة بتدخلات المنظمات الدولية.

ويساهم القانون في إقامة الشرعية، ويسمح التدخل بتعزيز مراتب أنصارها. وإنه من المفيد تقديم تدخل المنظمة الدولية كعمل يتطابق مع القانون الدولي، وحتى كنتيجة ضرورية للالتزامات المتولدة عن هذا القانون.

ومن هذا المنظور، هناك مكان للبحث عن الانسجام بين شرعية التدخل وقانونيته في الواقع يوجد العديد من تدخلات المنظمة الدولية، خصوصًا الأمم المتحدة، بهدف استخدام القانون من أجل التقليل من النزاعات أو وضع حد لها.

٢-٢-١) - مجريات التدخلات العسكرية تتدخل المنظمات كالدول، في النزاعات المسلحة تحت أشكال مختلفة. ونقصد هنا اللجوء للقوة بصورة خاصة، حيث يفترض غياب الإتفاق أو معارضة الدولة التي يدور النزاع عليها على الأرض.

وانه من المناسب أيضًا، الأخذ بعين الاعتبار واقع أن بعض الدول تستعجل، أو تكون على عجلة من أمرها، من أجل أن تصبح مستعدة للتدخل من أجل احتلال موقع بين المنظمات الدولية، أو القيام بإجراءات تؤدي إلى افساد إمكانيات الوصول للحل سلميًا.

وفي مثل هذه الأحوال يمكن بالتأكيد مناقشة توسع الاجراءات القسرية بحيث لايعطي ميثاق الأمم المتحدة أي تحديد في ذلك ضمنيًا [٣٥]، لكن يمكن الاعتقاد أن هذه الاجراءات تتضمن استخدام القوة المسلحة على أراضي الدولة المستهدفة[٣٦].

وعندما تبحث المنظمات الدولية عن وضع حد لنزاع مسلح ما، تحاول الدول الأعضاء الاتفاق على الإجراءات التي تبدو لها أكثر ملاءمة. وتطلب المنظمات الدولية، في أغلب الأحيان، احترام الاتفاقيات الدولية الملائمة، خصوصًا المادة (٣) المشتركة مع المادة(٤) من اتفاقيات جنيف عام (١٩٤٩) وكذلك البروتوكولات (٢٩١) لعام (١٩٧٧) ويبقى التساؤل الأخير. إذا كان التدخل جائزًا، حسب القانون الدولي، عندما يتفق على اللجوء للقوة المسلحة. والسؤال الذي يطرح اليوم، هو التالي: هل للمجتمع الدولي الحق باللجوء للقوة لوضع حد للمذابح - عندما تقوم دولة ما، أو مجموعة مسلحة معارضة بأعمال قاتلة على نطاق واسع، والتي ينتج عنهاانتهاكات انها كانت شديدة لحقوق الانسان، مثل مذابح السكان؟ لايسمح القانون الدولي بجواب ايجابي حتى إذا صُدِم بعض الرأي العام من مثل هذا الاستنتاج.

فقد اكتسبت القرارات (٤٣/١٣١) و (٤٥/١٠٠) الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ (٨) كانون أول (١٩٨٨) و (١٤) كانون أول (١٩٩٠) والتي أقرت المساعدة الإنسانية للضحايا، لهذا تكون قد اكتسبت صفة الإجبار «إعادة التأكيد على سيادة الدول المعنية، والدور الأول الذي يرجع لها في مبادرة المنظمة والتنسيق ومباشرة المساعدة الإنسانية على أراضيها الخاصة».

والحالة هذه، عندما توجد الموافقة أو القبول، من قبل الدولة أو الحكومة الشرعية، فاللجوء للقوة، ليس ضد القانون الدولي، ويكون «حق التدخل قد اختير بصورة سيئة» ولايمكن أن يصبح حق اللجوء للقوة معدًا على أساس هذه القرارات.

ولاشيء يسمح في قرارات مجلس الأمن أو الجمعية العامة أن تنهي وجود حق التدخل، والحالة هذه لاتوجد منظمات دولية أخرى سوى منظمة الأمم المتحدة من أجل أن توجه عملية محتملة لتشكيل قاعدة عامة، مثل تلك المنسوبة على أنها جائرة لأنها تتدخل في شؤون المجتمع الدولي.

عندئذٍ يمكن التساؤل إذا كان مضمار اللجوء للقوة لوضع حد لانتهاك حقوق الانسان، قد أُعِدّ بممارسة حديثة للدول،. وبهذا الخصوص فالتقيد بالتدخل المسلح للدول أو المنظمات الدولية لاتسمح برد ايجابي لسببين: يتعلق الأول بواقع أن التدخلات المسلحة تقود الى خارج الفصل السابع من الميثاق، وهي نادرة لعدد من النزاعات ويمكن أن تشير إلى تدخلات الدول، مدانة من قبل محكمة العدل الدولية(٣٧).

فقد أدانت محكمة العدل الدولية، الولايات المتحدة صراحة عام (١٩٨٦) بسبب بعض التدخلات التي جرت ضد نيكاراغوا مسجلة بذلك أنها «قد انتهكت عدة مبادىء للقانون الدولي» وإن العمل الذي يتم النظر يجب أن يكون محدداً لغايات إنسانية.

٢-٢-٢) - وهل يُحوّل تدخل منظمة دولية ما الشروط ذات العلاقة إلى شروط شرعية؟: إنه لتدخل منظمة دولية ما، على الأخص منظمة الأمم المتحدة، ومهما يكن عدم كفايتها - لها أثر حاسم على الفهم لدى الرأي العام - وعلى الفاعلين المتنوعين، على المسرح الدولي.

وعندما تصبح الشرعية مقبولة بشكل واسع، يمكن التخيل أنه لايمكن أن يصبح دون أثر حاسم على قانونية التدخلات. وفي إخضاع السؤال للفحص يصبح الجواب صعباً. وإنه من المناسب بالتأكيد التحقق تماماً، أن شرعية التدخل، في كوسوفو مثلاً، من قبل منظمة حلف شمالي الأطلسي قدأقيمت على مسرح العمليات ومن حيث المبدأ إذا تدخلت الولايات المتحدة وحدها في كوسوفو على سبيل المثال، فلن يوجد هنالك أي سبب لتعديل الاستنتاجات السابقة التي بحسبها، لن يُسمح باللجوء للقوة ضد دولة ما، إلا في حالة الدفاع المشروع، أو في نطاق الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة.

ففي حالة كوسوفو، يتعلق الأمر بتدخل حلف شمالي الأطلسي كونه ليس له أية صفة قانونية لا من حيث قانونيته الخاصة، ولا من حيث القانون الدولي العام للتدخل في كوسوفو. فما من عضو في حلف شمالي الأطلسي قد خضع لعدوان من قبل الصرب فلا يملك حلف الشمال الأطلسي حق التدخل مقارناً بما لمجلس

الأمن في نطاق الفصل السابع، أو الجمعية العامة.

إذن، ليس لشرعية تدخل حلف شمالي الأطلسي المسلح، من سند قانوني وإذا وجد ذلك، فليس إلا عن طريق شرعيته التي حصل عليها في نطاق المجتمع الدولي، خصوصًا إذا تم القبول أن الحماية الدولية لحقوق الانسان، لا تسمح بذلك.

إذن، يجب عدم تجاهل نتائج تأكيد شرعية تدخل حلف شمالي الأطلسي لأن ذلك سيعني أن الشرعية لا تتضمن «أن تتغذى» بقاعدة تقيم الشرعية (فورًا» من (الناحية القانونية). وإذا تدخلت منظمة دولية شرعيًا خارج الفصل السابع، يخلق ذلك فورًا القاعدة التي تجعله شرعيًا. وهذا يعني أن السيادة المطلقة للدول، هي أقل أمام تدخل مُوَجهٌ من قبل منظمة دولية لأنه إذا أصبح ذلك، أسهل مسموحًا عن طريق الأخلاق فإن التشابه مع الأخلاق سيحل محل القانون الدولي.

مراجع البحث

1- LE RAPPORT BRAHIMI EST LE RAPPORT COMMANDÉ PAR LE SECR'ETAIRÉ GÉNERAL DES NATION-UNIES.

2- LA GUERRE ETANT UN MODE PARMI D'AUTRES DE RESOLUTION DES CONFLITS ENTRE ETRTS.

3 - ON OENSE ICI PAR EXEMPLE AU BOMBARDEMENT DE L' AMBASSADE DECHINE Á BELGRADE EN (1999).

4 - ON PENCE ICI ÁLA REACTION DES PAYS ARABES LORS PU CONFLIS GÉNÉRÉ PAR L'ANNEXION DU KOWEIT PAR L' IRAK.

5 - PURLICATIONS DES NATIONS UNIES. DÉPARTEMENT DE L' INFORMATION.

6 - LES RAPPORTS DE BOUTROS GHALI, AGENDA POUR LA PAIX.

7 - LE CONSEIL DE SÉCURITÉ ADOPTÉ ON GRAND NOMBRE DE RESOLUTIONS POUR CONDAMNER L' IRAK.

8 - SUR LE SITE INTERNET DES NATIONS - UNIGE LERAPRORT SUR LE RWANDA.

9 - POURTANT LES U.S.A N' ETAIENT PAS CONVAINCUS DE L' INTÉRÊT POUR EUX.

10 - SUR L' EXISTENCE DE MOYNES TECHNIQUES ET MATERIELS.

11 - LA SOLUTION QU' ELLE POURRAIT

26 - CONSEIL DE SECUR'TE S/1999/1257. 16 DECEMBRE 1999.

27 - SUR LECONFLIT DU RWANDA. LES OPÉRATIONS DE MAINTIÉN DE LA PAIS DES NATIONS - UNIES. P 325.

28 - BERTRAND BADIE ET MARIE - CLAUDE SMOUTS. LE RETOURNEMENT DU MONDE.

29 - ZAKI LAI'D. "L'ORDRE MONDIAL RELACHÉ.

30 - DECLARATION D'HELSINKI (CONFERENCE POUR LA SÉCURITÉ ET LA COOPERATION.

31 - KOFI ANNAN RAPPORT ANNUEL 1999. P(23).

32 - DEPUIS LA GUERRE DU GOLFE (1990/91) L'INTERVENTION EST JUSTIFIEE PAR LAVIOLATION DE DROITS DE L'HOMME.

33 - L'INGÉRENCE PORTANT SUR LES AFEAIRES DES AUTRES EST DONC PAR DEFINITION CONTRAIRE AU DROIT.

34 - DISCUSSION COMPLETE DE CETTE qUETION ET LES REFERENCES SURLE DROIT D'INGERENCE-1996.

35 - MARIO BETTATI, LE DROIT D'INGERANCE. 1996.

36 - DROIT D'INGERANCG OU OBLIGATION DE REACTION.1992.

37 - L' AGENDA POUR LA PAIX.

PRECONISER ÊTRE SOUPçONNÉE DE NED - COLONIALISME OU DIMPERIALISME.

12 - LE MONDE DIPLOMATIQUE JANVIER - FEVRIER (2000).

13 - LES OPÉRATIONS DE MAINTIEN DE LA PAIS DES NATIONSUNIES. 3 EMG EDITION. 806 PAGES. NEW YORK 1996.

14 -IBID P 395 ETSUIVANTES

15 - IBID P 337 ETSUIVANTES NOTAMMENT LARESOLUTION DECONSEIL DE SELURI'TE 929/ 1994.

16- ANDRÉ LINARD AMÉRiqUE CENTRALE. 1995.

17 - KOFI ANNAN RAPPORT ANNUEL 1999. P(25).

18 - KOFI ANNAN RAPPORT 1998. P(14).

19 - KOFI ANNAN RAPPORT 1998 P(3).

20 - LE MONDE (qUOTIDIEN 25 MARS 2000. P (3).

21 - LE MONDE (4) NOVEMBRE (1999) INTERVIEW DU NOUVEAU SECRÉTAIRE GENERAL DL'OTAN (P.3)

22 - LE MONDE 23 OCTOBER 2001.

23 - RESOLUTION DE L'ASSEMBLÉE GENERALE DE L'ONU.

24 - 43/131 ADOPTÉE PAR L'(A.G) LE 08/12/1988.

25 - LE MONDE (qUOTIDIEN) 30 SEPTEMBRE ET(9) OCTOBRE (1999).

«ذرائعية الإرهاب الأميركي»

سمير صالح(*)

يطرح موضوع الارهاب ثلاث إشكاليات نظرية ومنهجية، تتعلق الأولى بغموض وتعقيد مفهوم الارهاب، وترتبط الثانية باختلاف الرأي حوله، ووجود مفهومين للإرهاب، إحداهما سلبية والأخرى إيجابية. ومصدر الإشكالية الثالثة هو الاختلاف على كيفية التعامل مع ظاهرة الارهاب.

وقد يعود سبب الصعوبة في التحديد، إلى حقيقة أن الارهاب يتضمن مجموعة عوامل وعناصر متداخله في المضامين ومستويات التحليل والعلاقات حتى ضمن المفهوم الأميركي «للإرهاب» في آلياته التسويقية.

---

* سمير صالح: باحث من سورية . يهتم بالدراسات السياسية . له عدة أبحاث منشورة في الدوريات العربية . .

فرغم أن الإرهاب يمتلك تاريخًا موغلاً في القدم، وخلف تراثًا متراكمًا عبر التاريخ إلا أن تعريفًا قاطعًا له مازال أمرًا إشكاليًا، حيث مازال التعريف ينوس ويتذبذب تبعًا لخارطة منتجه السياسية والفكرية، فقد فشلت جهود الساسة في الوصول إلى اتفاق جامع لتعريف الإرهاب، وكان هذا الفشل تعبيرًا واضحًا عن تعارض المصالح والمواقف السياسية.

يرى الفقيه القانوني «سوتيل» الإرهاب على أنه: «العمل الإجرامي المقترف عن طريق العنف من أجل هدف محدد». بينما الفقيه الفرنسي «جورج لافاسير» يعرف الإرهاب بأنه: «الاستخدام العمدي والمنظم لوسائل من شأنها إثارة الرعب بقصد تحقيق بعض الأهداف»[1].

حين نشير إلى إشكاليات الموضوع فلأنه وإن يلامس مشكلة حساسة من أدق مشاكل المجتمعات الإنسانية المعاصرة إلا أنه في المقابل تتجلى فيه تلك الاندفاعات اللامتناهية للخلافات في وجهات النظر والتعريفات المتباينة التي تنطلق من الأرضية الفكرية والإيديولوجية والسياسية التي تحكم منتجي هذا المفهوم، والتي تسود وجهات نظرهم المختلفة مفاهيم متعارضة ومتناقضة، حيث لاتزال قضية وضع تعريف متفق عليه لظاهرة الإرهاب واحدة من الإشكاليات الدولية المعاصرة، على الرغم من الظهورات المتقطعة لبعض الاتفاقيات الدولية التي تحاول أن تحدد ماهية الإرهاب.

ففي عام ١٩٣٧ وفي عصبة الأمم تمّ تهيئة اتفاقيتين الأولى: تتعلق بمنع وقمع الإرهاب ووصفه: «بأنه من الأعمال الإجرامية الموجهة ضد دولة ويكون هدفها أو من شأنها إثارة الفزع والرعب لدى شخصيات معينة، أو لدى جماعات من الناس أو لدى الجمهور.

والثانية تتعلق بإنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة المتهمين ولكن الاتفاقيتين لم تنفذا لعدم مصادقة الدول عليهما[2].

أما منظمة الأمم المتحدة فقد قررت منذ عام ١٩٧٢ إنشاء لجنة خاصة بالإرهاب تفرعت عنها ثلاث لجان اقتصرت مهام إحداها على وضع تعريف واضح للإرهاب، ولم تنجح في وضع تعريف محدد للإرهاب.

وفي كانون الأول ١٩٧٧ أصدرت قرارًا آخر يدين الأعمال الإرهابية ويدعو للتعاون بين الدول لمكافحته مع التأكيد على أن لكل شعب مستعمر الحق بالاستقلال وحرية الكفاح المشروع ضد المستعمرين والعنصريين وكل أشكال السيطرة الأجنبية.

الأمر الذي يفضي بنا إلى إثارة السؤال: هل مفهوم الإرهاب يتعلق ببنيته وموقعه

كونه ظاهرة مركبة؟ تحتوي في داخلها العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية، وتتعلق بالسيادة الوطنية والهيمنة الخارجية، بالثقافة المحلية، وبالثقافات الأجنبية وتحديات الهوية الوطنية، وبحق الشعوب في تقرير مصيرها والدفاع عن استقلالها الوطني، وهو في بعض جوانبه استعمال لحق الدفاع الإنساني والشرعي في مواجهة الاحتلال، مقاومة تجد سندها القانوني فيما يقرره ميثاق الأمم المتحدة، بينما أكثر الدول التي حققت الرفاهية والنمو جراء استغلال أراضي وخيرات الآخرين فقد ظلت حريصة على تجنب وضع تعريف للإرهاب حتى لاتمنح الشرعية لحركات التحرر الوطني التي تقاوم الاستعمار والاحتلال والعنصرية والتمييز.

لذلك يزداد حجم السؤال الذي يبحث عن تمييز الإرهاب كفعل مجرد، وعنف عبثي يذهب إلى الإجرام والقتل لمجرد القتل وإشاعة الخوف تكريساً لمصالح أفراد أو عصابات أو دول، والذي يندرج في سياقه عصابات الجريمة المنظمة، وغسل الأموال وبارونات المخدرات، وجماعات التطرف واليمين المتطرف، والتعصب الداخلي في الدولة القطرية التي تخرج عن الإجماع وعن الديمقراطية لفرض مواقفها على المجتمع بكامله.

الأمر الذي يتطلب البحث عن الشروط الخاصة المنتجة والمحددة لهذا الإرهاب، والتي تؤكدها أفعال التطرف والإنغلاق وممارساتها العبثية المجنونة، وبين الكفاح المسلح المشروع والعادل للشعوب والذي يستخدم العنف وسيلة لدرء عنفٍ آخر، أكثر قوة وهيمنة، ويتمثل في فرض الاحتلال، وسرقة الأرض، وما يمارسه هذا الاحتلال من عدوان واستغلال على حقوق الشعوب الخاضعة للاحتلال، ومن محاولات خنقهم وفرض الوصاية عليهم وعلى حياتهم كلها.

وإذا كان لامناص من المقارنة فإنه يمكن القول إن الإرهاب في الحالة الأولى لاوجود له إلا من منظور يعطفه على علاقات استباحية تفضي إلى التطرف ومحاولات الإبادة والقتل. وفي الثانية فإن المنظور يذهب إلى المحاولات النضالية المشروعة لرفض الأمر الواقع، ومحاولات النفي والإلغاء، التهميش والاغتصاب، في تضحيات متعددة الأشكال لاستعادة الأرض والحقوق.

ولعل النظر من هذا الموقع، موقع التمييز، الذي يأخذ في الاعتبار الخاصيات الكامنة في كلا الحالتين، والفروق الجوهرية بينهما، يظهر أن مايصطلح عليه «بالإرهاب» ينبغي ألا يطمس الفارق الهائل بين كل منهما، على

الرغم من اشتراكهما في صفات شكلية توحد بينهما ظاهريًا من خلال ممارسة العنف، إلا أن الاختلاف يبقى جوهريًا.

فميثاق الأمم المتحدة (دستور العلاقات الدولية في مادته ٥١) منح الشعوب حق الدفاع المشروع ضد أي عدوان ترتكبه دولة أو قوة مسلحة أخرى: «ليس في هذا الميثاق مايضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات في الدفاع عن نفسها، إذا اعتدت قوة مسلحة، على أحد أعضاء «الأمم المتحدة» أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي، والتدابير التي اتخذها الأعضاء استعمالاً لحق الدفاع عن النفس، تبلغ إلى المجلس فورًا، ولاتؤثر تلك التدابير بأي حال فيما للمجلس بمقتضى سلطته ومسؤولياته المتحدة من أحكام هذا الميثاق، وفي الحق في أن يتخذ في أي وقت مايرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولي أو إعادته إلى نصابه»[٣].

وتتبدى خطورة عدم التفريق بين المقاومة والإرهاب من خلال القفز على اتفاقيات جنيف الأولى لعام ١٩٧٧ والملحق باتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، التي تسبغ الشرعية على المقاومة الوطنية، باعتبارها ضد التسلط والاحتلال الأجنبي، سيما المادة «١» فقرة «٤» كذلك المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ والتي نصت على ضرورة:

١- وجود تنظيم ذي قيادة مسؤولة عن أعمال مرؤوسيها.

٢- حمل السلاح علنًا.

٣- التزام قوانين الحرب وعاداتها.

وقد تم تخفيض هذه الشروط في المادة «٤٤» من ملحق جنيف الأول حيث قضت بمجرد «التزام المقاتلين بتمييز أنفسهم عن السكان المدنيين أثناء اشتباكهم في هجوم، أو في عملية تجهز لهجوم، وفي حالات عدم قدرة المقاتل على تمييز نفسه، فإنه يبقى عندئذ محتفظًا بوضع المقاتل «الشرعي» شريطة أن يحمل السلاح علنًا أثناء أي اشتباك عسكري»[٤].

وقد كان للدول التي تعاني من هذا الخلط الواضح والتهمة الجوالة «للإرهاب» موقف محدد من خلال مشروع دول عدم الانحياز لمجلس الأمن حيث اعتبرت هذه الدول: «أن جميع أعمال العنف والقمع التي تمارسها الدول الاستعمارية والعنصرية ضد الشعوب المناضلة من أجل حريتها واستقلالها يعد عملاً إرهابيًا» ودان مشروع دول عدم الانحياز بصدد الإرهاب قيام بعض الدول بمساعدة التنظيمات الفاشية التي تمارس الإرهاب ضد دول أخرى، كما دانت أعمال العنف التي يرتكبها أفراد أو مجموعات والتي تؤدي إلى تعريض حياة الأبرياء للخطر، وأكدت على التمييز بين أعمال الإرهاب والمقاومة المشروعة التي

يلجأ إليها الوطنيون لتحرير بلادهم عملاً بالمواثيق الدولية وقرارات هيئة الأمم المتحدة[٥].

الإرهاب في الذهنية الأميركية:

لعل الإشارة إلى أن تاريخ الولايات المتحدة الأميركية والذي بدأ تشكله مع وصول «الآباء الرواد» من انجلترا إلى «العالم الجديد» الذي كان حتى القرن الرابع عشر مأهولاً على نطاق واسع ويمتلئ بحضارات غنية هو التاريخ المبكر للإرهاب، حيث تم ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية لعشرات الملايين من شعوب «العالم الجديد» وهدم حضاراته في أعظم مجازر عرفتها البشرية، لهي إشارة ذات دلالة، على طبيعة الذهنية الأميركية البراغماتية والنفعية في استغلالها لمفهوم الإرهاب. ورغم تعدد تعاريف الإرهاب وتنوع ممارساته، فإنه من المثير للدهشة لمن يتتبع المفاهيم الأميركية، ومن يدقق في دعاويها ومنطلقاتها بشأن الإرهاب، يجد أن الحقيقة تخالف «الصورة» في الكثير من التفاصيل وأن الحلقة المفرغة التي تحاول تجيير هذه التعاريف بعضها ببعض، لتؤول إلى قاسم مشترك يسود العالم، هي حلقة القوة السياسية المهيمنة، ومعضلة نموذجها الأحادي، على الرغم من أن النموذج الأميركي من أكثر النماذج إثارة للجدل، سيما أنه ينطلق من «التقويض والإنشاء»؟ إنشاء جماعات ونماذج إرهابية متطرفة، وأنظمة ديكتاتورية فاشية، تتحرك بغطاء أميركي واسع، يمنحها حرية الحركة ويضفي عليها رداء الشرعية، وبعد استنفاد أهدافها، يتم العمل على محاربتها وتقويضها تحت شعارات الإرهاب والتطرف وحقوق الإنسان؟.

والتغاضي بل ومباركة إرهاب الأنظمة الفاشية التي تربطها علاقة انسجام مع مصالح الولايات المتحدة والتي تجد تعبيراتها الأكثر صفاقة في علاقة التعاون والتحالف الاستراتيجي مع الكيان الصهيوني ذي التاريخ الحافل بالإرهاب والمجازر الدموية.

وثمة مفارقة أشد عبثًا أن الكيان الصهيوني أول من أعاد الاعتبار لمقولة «الإرهاب» وذهب إلى توصيف المقاومين الفلسطينيين «بالمخربين» وأعمال المقاومة الفلسطينية «بالإرهاب والتخريب»، وتبنت أمريكا ووسائل إعلامها هذا المفهوم وعملت على ترويجه، وعلى المستوى الرسمي عملت على تسويق هذا الاستخدام والتوسع فيه ليشمل دولاً عربية وإسلامية تتعارض مواقفها مع الولايات المتحدة الأميركية.

والحالة الأميركية التي اتخذت من ١١ أيلول عنوانًا ناجزًا لفرض مفاهيمها الخاصة على العالم الذي احتشد لتأييد

الحملة ضد نتائج أيلول، وكان باعثه الأساسي لذلك أخلاقي وقانوني وإنساني، قبل الباعث الاصطفائي الأميركي في تحديداته النظرية لمفهوم الإرهاب، والذي يذهب لتشكيل مصفوفة فكرية غاية في التشابك والتعقيد، الانغلاق والتعصب، وهو مايشكل في معنى من المعاني «إرهاب دولة» سعت الولايات المتحدة من خلاله وبقوة لاحدود لها إلى فرض رؤيتها الوحيدة الجانب «من ليس معنا فهو ضدنا» على الكون بأسره، ونموذج مهيمن لإعادة تشكيل العلاقات السياسية، أو محرضًا من محرضات حدوثها، لاسيما أنه لايوجد تعريف واضح لمفهوم الإرهاب الأميركي نفسه، فمن يكون اليوم باحثًا عن الحرية حتى ضمن المصفوفة الأميركية، قد يصبح غدًا مع اختلاف المصالح «إرهابيًا» مطاردًا!؟.

فقبل عشرين عامًا وأكثر دخل الرئيس الأميركي السابق «رونالد ريغان» على أساس برنامج تحتل قضية الإرهاب رأس أولوياته، وبعد أن أصبح رئيسًا للولايات المتحدة أنشأ لجنة عليا أشرف عليها «جورج بوش» الأب، وكانت هذه اللجنة مكلفة بقضية الإرهاب، ثم إن هذه اللجنة توصلت «عام ١٩٨١» إلى توصيات وقرارات تم اعتمادها [٦].

وبالتوازي مع ذلك كانت الأمم المتحدة على عهد أمينها العام الأسبق «بيريز دي كويلار» قد قامت بإحالة موضوع الإرهاب إلى اللجنة السياسية التي خصصت لها مجموعة دولية رفيعة المستوى توصلت إلى صياغة نصوص لمجموعة اتفاقيات دولية، لاتزال معروضة أمام مجلس الأمن لإقرارها واعتمادها بواسطة المجتمع الدولي [٧].

وقد عملت الإدارة الأميركية برئاسة «ريغان» في مطلع الثمانينات، على إطلاق حملة دولية ضد «الإرهاب» معتبرة أن اقتلاع الإرهاب ومواجهته، مهمة رئيسية تسبق في الأولوية الدفاع عن حقوق الإنسان، حسب تعبير ألكسندر هيغ وزير خارجية ريغان، أو اعتبار الإرهاب خطرًا وتهديدًا للديمقراطية والحضارة الغربية حسب تعبير وليام كيسي مدير المخابرات الأميركية (السي. إي. إيه) وقتها عقد ويليام كيسي في عام ١٩٨٤ أكثر من مئتي مؤتمر وندوة بحثية حول مقاومة الإرهاب، شارك فيها خبراء أمن وعلماء سياسة ومفكرون وعلماء استخبار اتيون [٨].

وتزامن النشاط الأميركي لإشاعة الرعب والفزع من «فزاعة الإرهاب الدولي» مع تصاعد العمليات الإرهابية التي ارتكبها الكيان الصهيوني ضد الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين المحتلة، وضد المدنيين اللبنانيين وإحراق الجنوب

اللبناني بقذائفه. آنذاك طرحت الإدارة الأميركية مفهومًا لما كانت تعتبره إرهابًا، مغلفًا بالنفاق الإيديولوجي والتضليل المعرفي والانحياز السياسي، ويخدم في الأساس المصالح الصهيونية، ففي المفهوم الأميركي الذي روجته الدبلوماسية الأميركية وكرسه الإعلام الأميركي، اعتبر إرهابًا كل من أعمال المقاومة المسلحة «للعدوان الصهيوني» في فلسطين المحتلة، وعلى الأراضي اللبنانية، أو استهدف أية منشآت أو مصالح أو أفراد أميركيين في أي منطقة في العالم؟

وكان الرأي السائد في تعريف الإرهاب: «الإرهاب هو كل فعل يقوم به شخص يقتل آخرين في ظروف مخالفة للقانون، أو يسبب له ضررًا جسديًا أو يخطفه أو يحاول القيام بفعل كهذا فإنه يرتكب جريمة ذات بعد دولي»[9].

إضافة لتعريف مكتب التحقيقات الفيدرالي F.B.I الذي يأخذ بالحد القانوني الظاهري ويرى أن الإرهاب: «الاستخدام غير القانوني للقوة، والعنف ضد البشر، أو ممتلكاتهم بغرض إجبار الحكومة، أوالمجتمع على تحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية معينة»[10].

ومع ذلك لاتزال كل محاولة جدية لمناقشة جوهر الإرهاب، سواء بالعودة إلى تحديده أو تعريفه أو بالتحليل النقدي لأهدافه وسبل مواجهته، تصطدم بالنزعة الاستحواذية الأميركية المتنامية، حيث تتنصل الولايات المتحدة من المطالبات الدولية لإيجاد صيغ واضحة ومحددة لمفهوم الإرهاب وتعريفه، وسبل مواجهته، بل وأكثر من ذلك فقد جعلت من هذه المطالبات رهينة لما هو أميركي.

يشير الدكتور بطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة السابق في دراسة له عن الإرهاب أنه عندما احتفلت المنظمة الدولية بمرور خمسين عامًا على إنشائها في أكتوبر ٩٥ كانت هناك «١١» اتفاقية دولية مناهضة للإرهاب بينها «٤» اتفاقيات تتناول سلامة الطائرات والمطارات «وهذه الاتفاقيات تم توقيعها بعد حوادث خطف الطائرات وأمام الباقي للأخطار غير التقليدية سواء كانت أسلحة دمار شامل أو جماعات الإرهاب»[11].

وأما الولايات المتحدة فقد رفضت التوقيع على العديد من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية المتعلقة ببعض جوانب الإرهاب، منها البروتوكول الملحق باتفاقية مونتريال عام ١٩٧١ المتعلق بأمن الطائرات، كذلك اتفاقية تأمين الملاحة البحرية ضد الإرهاب الموقعة عام ١٩٨٨، واتفاقية تمييز المتفجرات البلاستيكية في الأمم المتحدة عام ١٩٨٩[12].

إن القناعة الأميركية ولاسيما بعد

انفرادها في الهيمنة على العالم، وبما يتفق أو يقترب من تكريس هذه الهيمنة وفي مخاطبتها للرأي العام الأميركي، تتخذ من مفهوم الإرهاب أحد أهم الأشكال الجديدة للصراع على المستوى الإقليمي والدولي، وتذهب إلى أن الإرهاب أصبح سائداً في عالم اليوم، لأن الدول التي تعادي واشنطن وترفض سياستها بما فيها دول شرق أوسطية لاتستطيع النيل منها عسكرياً، أو بأية وسيلة شرعية أخرى، فتلجأ إلى سلاح ممكن هو سلاح الإرهاب، إما مباشرة، أو عن طريق تمويل وتشجيع ورعاية جماعات إرهابية، تكن العداء إلى أمريكا، وهذا ثمن على الولايات المتحدة أن تتوقعه باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة التي لابد لها من أن تتحمل مسؤوليات جسمية، وهو مايعني أن «الإرهاب» تحول بصورة متصاعدة إلى شاغل رئيسي من شواغل السياسة في الولايات المتحدة، ويجب إعطاؤه الأولوية القصوى، حتى لو كان هذا الأمر على حساب المواطن الأميركي، وحقوقه التي كفلها الدستور والقانون ولو على حساب رفاهيته. وهذا بإيجاز أهم القناعات الأميركية التي تفسر وتمنطق ظاهرة الإرهاب الدولي، وهي قناعات مصلحية، ورغم أنها تضعها ضمن أنساق مختلفة تستخدم مصطلحات ومفاهيم، وتعبيرات ذرائعية، تؤول إلى المصلحة الحقيقة لما وراء هذا المفهوم.

إن الولايات المتحدة التي لم تهجر الإرهاب ولم ترفضه، تستخدم هذه الذرائع للابتعاد عن البحث في البواعث التاريخية والموضوعية التي تشكل الإرهاب، وترفده، ولو من باب البحث، لمحاولة تحليل هذه الظاهرة، وبهذا الصدد لايمكن القول أن هذه القناعات ناجمة عن عدم معرفة بالسياسة الدولية، ولكن العقل البراغماتي المغرق في النفعية، والذاتية ورعاية الأهواء، والمصالح الخاصة مازال مهيمناً على التفاعلات الدولية، وبناء عليه فإنه من غير المنتظر أن تخرج واشنطن من الدائرة المغلقة التي تتحاور داخلها وتتحرك نحوها لمقاتلة الإرهاب، حيث ليس كل من يقف معها فهو «إرهابي».

هذه الرؤية نابعة من تقاليد راسخة في التاريخ الأميركي، لاسيما في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث تشدد على ارتباط الإرهاب بهذه الرؤى والمواقف، وتكريساً لاغنى عنه للنموذج الأميركي الصهيوني، وعدم جواز المساس بهما، وعلى هذا النحو فإن المثال يدلل أن حضور الإرهاب كما اختفائه حسب المفاهيم الأميركية ماهو إلا تعبيراً عن ارتقاء العلاقات السياسية والتحالفية مع الولايات المتحدة والكيان الصهيوني ومرآة للانسجام مع أهدافها أو الاختلاف والتمايز مع المواقف الأميركية.

وللمتتبع أن يعود إلى الفترة الريغانية، والتي بذلت فيها إدارته الكثير من الجهد والوقت، والعمل السياسي والدبلوماسي والعسكري، لتوصيف العالم العربي وإيران بالإرهاب، والمحاولات المتتالية للإدارة الأميركية لضرب القوى والفصائل الحية في الأمة العربية، ودولها التقدمية، بدءًا من حصار سوريا الاقتصادي، ومحاولات تقويض أمنها الداخلي، مرورًا بالهجوم العسكري المباشر على الجماهيرية الليبية، ومحاولة قتل قائدها، إضافة إلى دعم قوات الانعزال في الساحة اللبنانية، وليس انتهاء بالتدخل العسكري المباشر لتثبيت نتائج الاجتياح الصهيوني للبنان، واحتلال العاصمة بيروت، والمشاركة الأميركية في القتال المباشر من خلال القوات الأميركية، ضد المقاومة اللبنانية والفلسطينية والجيش العربي السوري.

إن التاريخ الذي يكثر من شواهده على أن بعض من يوصف اليوم «بالمنظمات الإرهابية» كانت الولايات المتحدة وأجهزة استخباراتها، سببًا رئيسيًا في وجودها، والتغاضي عن تطرفها ودمويتها، ودعم تعصبها وانغلاقها، وقد يكون حان الوقت لجني مازرعته هي نفسها من آليات الدعم والتشجيع والرعاية لتلك المنظمات، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الولايات المتحدة هي من تولت تدريب وتمويل قوى معينة في أفغانستان، وهي التي أيقظت الأصوليين في الشرق الأوسط، وعملت على رعايتهم ودعمهم، وعملت على استثمارهم كمشروع رابح في مواجهة الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، تحت يافطة «الجهاد» والخلاص من الشيطان الذي كان يمثله آنذاك الاتحاد السوفييتي، ومن ثم انقلبت عليهم بعد تحقيق الأهداف الأميركية البحتة، كما عملت على خنق التطور الديمقراطي والعلمي في الشرق الأوسط، والوطن العربي ليبقى مجرد تابع ثانوي لأهداف ومصالح الولايات المتحدة الأميركية.

ومايزيد الهوة القائمة في تحديد تعريف دولي جامع للإرهاب هو تراكم سياسة الكيل بمكيالين، والنظر من زاويتين متناقضتين، تلك السياسة التي تشكلها وتعيد تشكيلها الولايات المتحدة بناء على المصالح الخاصة للكيان الصهيوني.

وربما كان تحديد مفهوم للإرهاب بشكل موحد يشكل «اختيارًا» فيما بين إمكانيات عدة أو بدائل مطروحة للانفكاك من أسر الهيمنة الأميركية، وما المحاولات المحمومة للإرادة الأميركية في السعي لارتهان المجتمع الدولي إلى طبيعة النظرة الاصطفائية الأميركية،إلا دلالة على بؤس الفكر النفعي الأميركي بأعرافه وتقاليده، هذا الفكر الذي ينتج بؤسه في اختزال

مضاعف، اختزال المفاهيم المتعددة والمتشعبة عن الإرهاب، وضرورة التمييز بينه وبين حركات التحرر والكفاح الوطني للشعوب، إلى مفهوم ذاتي وحيد، بل واختزال المفهوم ذاته إلى وجه مستقيم منه لايريد إلا أن يؤكد على وجود «عدو شبحي» آل بعد الهيمنة الأميركية إلى القوى والفصائل الحية في الأمة العربية، وإلى بعض الدول القومية القابضة على الجمر، والذهاب إلى تصوير المنطقة العربية كأنها منبع للشر والشياطين الدموية والقتل المجاني.

الإرهاب بين الحقيقة والذريعة:

لقد بات من المؤكد أن مفهوم «الإرهاب» الأميركي يحسم في جملة مايحسمه طبيعة الرؤية الاصطفائية نحو المنطقة العربية، بل وتحول المفهوم ذاته إلى أداة صراعية توجه نحو الداخل العربي - القطري والقومي، هذا المفهوم الذي تكرس، وتعاظم في الفكر السياسي الأميركي، وغدا سياسة قائمة في ذاتها لاسيما بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، والتي مكنت «المفهوم» من التدخل كطرف داخلي في العلاقات العربية من جهة، وفي التدخل في العلاقات بين النخب الحاكمة وشعوبها من جهة أخرى، وذهب إلى وسم فصائل المعارضة الفلسطينية، بالفصائل الإرهابية، ويشمل ذلك أيضًا المقاومة الوطنية اللبنانية وحزب الله، إضافة إلى الدول العربية القومية وعلى رأسها سوريا.

فكان هذا التطور الخطير ذروة سيرورة بدأتها المفاهيم والأفكار الأميركية، نحو المنطقة العربية، ونحو الشرق الأوسط، بحيث تدعي الولايات المتحدة أن تصورها عن المنطقة العربية هو الصيغة اليتيمة لها، وبحيث لاتتردد في شن حرب إعلامية ونفسية ودبلوماسية ليس ضد التصورات الأخرى فحسب، بل ضد جميع الأصوات وخاصة أصوات أصدقائها، التي تدافع عن ضرورة عدم التغاضي عن الإرهاب الصهيوني، وفي هذا الصدد، يجدر ملاحظة الأسلوب الذي تعتمده الولايات المتحدة الأميركية، والقائم من جهة على محاولة إظهار الكيان الصهيوني بوصفه الأكثر تضررًا من «الإرهاب» والذي رغم ذلك يقدم على سياسة «ضبط النفس» وعدم الانجرار وراء الاستفزاز، والذي يقدم أيضًا مقترحات ومبادرات جديدة «للسلام» بينما الأطراف العربية والمنطقة العربية ترد على هذه المبادرات، بالعنف واحتضان الإرهاب، وتصديره إلى «العالم الحر».

وإذا أمعنا النظر وتوقفنا أمام تفاصيل ومعطيات العمليات التي تستهدف المصالح الإمبريالية في العالم بالوقائع والأرقام سنجد أن الذريعة تخالف الحقيقة، وأن هناك تهويلاً أميركيًا يستهدف الشرق

الأوسط والأمة العربية فعلى سبيل المثال في تحليل لعمليات الإرهاب خلال عشرين عاماً مضت، يبدأ عام ١٩٨١، وهو العام الذي شهد التحرك العملياتي الأميركي لمواجهة ما يسمى بالإرهاب، تحت إدراة الرئيس الأسبق ريغان، بتسجيل ٤٨٩ عملية، وينتهي عام ٢٠٠٠ بمعدل ٤٢٣و ويتصاعد العدد في بعض السنوات فيصل إلى ٦٦٦ عملية، أي أن متوسط العمليات السنوي خلال العشرين سنة المنصرمة يقدر بحوالي ٤٠٠ عملية. ومنذ بداية حقبة التسعينات التي شهدت انهيار الاتحاد السوفييتي، وحرب الخليج الثانية. كان لدى الولايات المتحدة إحساس بالخطر، وفي التقرير الذي قدمه (البنتاجون) للكونغرس جرى حصر الأخطار المحتملة، وكان في مقدمتها، حسب إصرار التقرير وجود دول صغيرة مناوئة قادرة على امتلاك أسلحة دمار شامل، وكان على لائحة الاتهام كوريا الشمالية والعراق وحينذاك – وبعدها– كان يتم التساؤل المفرض هل تستطيع أي من الدولتين الهجوم على (أمريكا) وكانت الإدارة الأميركية تضع هذا الاحتمال وتعززه بالحديث عن الإرهاب الذي يسود العالم ويطال الولايات المتحدة، وهو ماخصصت له وزارة الخارجية الأميركية إدارة خاصة هي «مكتب منسق عمليات الإرهاب» [١٣].

وفي التسعينيات تعرضت أهداف أميركية عديدة لأعمال هجومية أسفرت عن عشرات القتلى والمصابين وذلك على النحو التالي: في عام ١٩٩١ سقط ٧ قتلى و١٦ جريحاً، بينما في عام ١٩٩٢ سقط قتيلان وجريح واحد، في عام ١٩٩٣ وقع ٧ قتلى أميركيين و ١٠٠٤ جرحى، فيما شهد عام ١٩٩٤ سقوط ٦قتلى وخمسة جرحى.

وقد استمر تعرض المصالح والأهداف الأميركية للعمليات والضربات العسكرية في النصف الثاني من العقد الأخيرللقرن العشرين ففي عام ١٩٩٥ توفي ١١٠ من الأميركيين وجرح ٦٠ شخصاً.

وقد اتسم عام ١٩٩٦بتعدد وتنوع الهجمات على المصالح الأميركية وبلغ عدد هذه العمليات ٧٣ عملية توزعت على النحو التالي:

شرق أوروبا وروسيا اعتداء واحد، آسيا اعتداءان، الشرق الأوسط ٣ اعتداءات، أميركا اللاتينية ٥٨ اعتداء، أوروبا ثمانية اعتداءات.

أمانوع الأهداف التي تعرضت لهذه الاعتداءات فتوزعت كالتالي: هدف دبلوماسي اعتداء واحد، هدف حكومي اعتداء واحد، هدف عسكري ٤ اعتداءات، أعمال تجارية ٥٠ اعتداء، أهداف أخرى ١٩ اعتداء.

وأما توزع نوع هذه الاعتداءات فكان كمايلي: اعتداءات بالضرب واحد، ثلاث هجمات مسلحة، ٦ اعتداءات باختطاف رهائن، ٧ اعتداءات تضمنت حرق مبان، ٥٦ هجومًا شملت استخدام القنابل.

وقد كان حصيلة الضحايا في هذه الهجمات لعام ١٩٩٦ قتيلاًو ٥١٠ جريحًا [١٤]. وهو نفس العام الذي شهد الجهد الأميركي المحموم لحشد قوى العالم لدعم الكيان الصهيوني من خلال مؤتمر «مكافحة الإرهاب» الذي عقد في شرم الشيخ، وبجدول أعمال تصدر رأس أولوياته إدانة أعمال المقاومة الفلسطينية واللبنانية ووصفها بالإرهابية، بعد أن أشاعت عمليات المقاومة الفلسطينية الاستشهادية في فلسطين المحتلة جوًا منقطع النظير من الرعب داخل الكيان الصهيوني، وجعلت آنذاك اتفاق أوسلو يترنح وكأنه يوشك على الانهيار..

أما في عام ١٩٩٧ فقط سقط ٦ قتلى وجرح ٢١، وفي عام ١٩٩٨ قتل ١٢ أميركيًا وجرح ١١، وعام ١٩٩٩قتل ٥ وجرح ٦، أما في عام ٢٠٠٠ قتل ١٩ وجرح ٤٣.

وإذا توقفنا أمام الهجمات على مصالح الولايات المتحدة خلال عام ٢٠٠٠ فقد شهد ٢٠٠ هجومًا توزعت كالآتي: أميركا اللاتينية (١٧٢)، (آسيا ٩)، (الشرق الأوسط ٢)، (روسيا وآسيا٤)، (أفريقيا ٦)، (أوروبا الغربية ٧) وهذا التوزيع يتضمن عمليات الهجوم على أهداف أميركية كما يتضمن الحوادث التي أصيب فيها أميركيون ونوعية الحوادث: قنابل حارقة (١)، مدفعية (٢)، أخرى (٢)، هجوم مسلح (٤)، خطف (١١)، قنابل (٧٩).

وأما الأهداف فهي كالتالي:

مرافق اقتصادية وشركات (١٧٨)، أهداف حكومية (٢)، جهات عسكرية (٦)، أخرى (٧).

إن موقع الأحداث وكما سجلته سنوات «١٩٩٥ – ٢٠٠٠» فكان غربي أوروبا أولاً، تليها أمريكا اللاتينية ثم آسيا، ثم أفريقيا، ثم الشرق الأوسط، ثم شمال أمريكا (أي أن موقع الشرق الأوسط المتهم بتصدير الإرهاب هو الخامس».

وكانت الأهداف المنتقاة هي كالتالي:

(٣٨٤) هدفًا اقتصاديًا، و(٣٠) هدفًا دبلوماسيًا، و (١٧) هدفًا من المباني الحكومية، و (١٣) هدفًا عسكريًا، إلى جوار أهداف أخرى.

ورغم أن الولايات المتحدة مستهدفة في نحو نصف العمليات، فإن عدد الضحايا لم يزد على ٧٧ قتيلاً أميركيًا في السنوات الخمس (١٩٩٥– ٢٠٠٠). حسب تقرير مكتب منسق مكافحة الإرهاب في

وزارة الخارجية الأميركية الذي عنون «بحالة الإرهاب في العالم - عام ٢٠٠٠» والذي أصدرته الخارجية الأميركية في نيسان عام ٢٠٠١ (١٥).

ويعرف التقرير المذكور الإرهاب على أنه «أعمال عنف تجري لأسباب سياسية، ولأشخاص وجهات خارج دائرة الحروب والمعارك العسكرية». وهذا التعريف لايتسع إلا لوجهة النظر الأميركية التي تعيد إنتاجها بشكل متكرر والذي يقود للهدف الأميركي «من يعادي أميركا ويختلف معها» وقد أغفل هذا التعريف مانصت عليه قرارات الأمم المتحدة، ومن ثم باتت التنظيمات الفلسطينية وبات حزب الله من وجهة نظر الولايات المتحدة ضمن جماعات الإرهاب التي تستحق الضرب، وتستحق الدول المؤمنة بعدالة قضيتها ومشروعية نضالها العقاب أيضاً؟

ويركز التقرير على الشرق الأوسط دولاً ومنظمات ويشدد عليها ويشدد باللائمة عليهما، وينحي الإرهاب الذي يقف على بوابة الولايات فمثلاً بين مئتي عملية تمت ضد الولايات المتحدة خلال عام ٢٠٠٠ وحسب التقرير نفسه، كانت هناك «١٧٢» عملية في أمريكا اللاتينية، ومن بينها «١٥٢» عملية فقط لنسف موقع بترولي واحد في كولومبيا، وقد قام بعملية النسف مجموعتان وليست مجموعة واحدة. وهكذا ارتفع مؤشر الحوادث في أميركا اللاتينية بينما انخفض إلى الثلث تقريباً في أوروبا بعد وكان عدد الضحايا في هذه الأحداث كلها «٤٠٥» قتلى و «٧٩١» جريحاً لم يكن نصيب الولايات المتحدة من القتلى سوى «١٩» أميركياً بينهم سبعة عشر بحاراً في تدمير السفينة «كول» في ميناء عدن. إن موقع الشرق الأوسط والمنطقة العربية في خريطة الإرهاب العالمي واستهداف المصالح الأميركية في العالم، وحسب المصادر الأميركية، يمثل موقعاً متأخراً جداً، ويأتي في خاتمة الترتيب ولايستدعي هذه الرواية الأميركية، التي تفتح باب التساؤلات حول حقيقة الأهداف الأميركية، وحربها مع الإرهاب.

كما إن المضمر والمسكوت عنه في بنية الخطاب الأميركي، يتغاضى وبشكل متعمد عن الإرهاب الداخلي الأميركي المتغلغل داخل البنية المجتمعيةللولايات المتحدة إذ يستعرض ديل واطسون المدير المساعد التنفيذي لمكتب التحقيقات الفيدرالي (إف. بي. أي) قسم مكافحة الإرهاب ومكافحة التجسس، في تقريره أمام مجلس لجنة مجلس الشيوخ لشؤون المخابرات، أرقاماً مهمة تحمل معنى كبيراً حول فزاعة الإرهاب التي تثيرها أميركا حوله، يقول واطسون: «إن الولايات المتحدة تواجه تحديات كبيرة تشكلها المجموعة الإرهابية

المحلية الأميركية، وحقيقة الأمر هي أن الولايات المتحدة تواجه تحديات كبيرة تشكلها هذه المجموعات، وقد شهدت الولايات المتحدة الأميركية منذ عام ١٩٨٠ حتى عام ٢٠٠٠، بموجب أرقام (إف. بي.أي) (٣٢٥) حادثًا إرهابيًا، أو يشتبه إنه إرهابي، (٢٤٧) حادثًا هي من الإرهاب الداخلي المحلي و (٨٨) حادثًا في الطابع الدولي.

وتبين أن السنوات العشر الماضية شهدت تحديات من الإرهاب اليميني المتطرف المحلي، ومن اليسار المتطرف الأميركي أيضًا، وهذا الإرهاب يعد من أخطرأنواع الإرهاب الذي تتعرض له البلاد، ومن المنظمات الأميركية على سبيل المثال: «جبهة تحرير الحيوان ALF» و «جبهة تحرير الأرض». وتقدر (إف. بي.أي) أن هاتين الجبهتين نفذتا (٦٠٠) عملية إجرامية جنائية داخل الولايات المتحدة منذ عام ١٩٩٦ وتسببت بخسائر بالغة قيمتها ٤٢ مليون دولار [١٦].

الهوامش

١- محمود عبد الرحمن - جريدة تشرين، دمشق العدد ٨٣٧٩ (٣٠ تموز ٢٠٠٢).

٢- المصدر السابق.

٣- د. عبد الله طلبة- مقترق الإرهاب، جريدة المحرر العربي عدد ٣٣٤ - آذار ٢٠٠٢

٤- د. عبد الله طلبة - مصدر سابق.

٥- محمود عبد الرحمن -المصدر السابق.

٦- محمد حسنين هيكل - مجلة وجهات نظر القاهرة عدد ٣٥ من ١١ ديسمبر ٢٠٠١.

٧- محمد حسنين هيكل - مجلة وجهات نظر القاهرة عدد ٣٥ من ١١ ديسمبر ٢٠٠١.

٨- سيد زهران- جريدة البيان- الإمارات، الملف السياسي عدد ٣٧٩ الجمعة ٢١ أغسطس ١٩٩٨.

٩- محمد عبد الرحمن- مصدر سابق.

١٠- محمد وقيع الله، مستقبل الإرهاب السياسي، الملف السياسي لجريدة البيان، سبق ذكره.

١١- محمد مراغي- الاتهامات جاهزة- مجلة وجهات نظر القاهرة عدد ٣٢ أكتوبر ٢٠٠١.

١٢- عبد الله سعد- سياسة العداء لأمريكا - جريدة البيان - مصدر سابق.

١٣- محمود مراغي - الاتهامات جاهزة / سبق ذكره.

١٤- المعطيات السابقة ورد ذكرها تحت عنوان «الإرهاب الدولي في أرقام» ملف البيان السياسي، ورد ذكره.

١٥- تقرير أميركي تحت عنوان «حالة الإرهاب عام ٢٠٠٠» صادر عن مكتب منسق مكافحة الإرهاب، نيسان ٢٠٠١، أوردته مجلة وجهات نظر - القاهرة - عدد ٣٢ - أكتوبر ٢٠٠١.

١٦ - قادة المخابرات الأميركية يرسمون للكونغرس أهداف السياسة الخارجية -جريدة المحرر العربي عدد ٣٣٤ - ١/٧ آذار ٢٠٠٢.

العولمة تتسلل إعلامياً:
نحن والآخر والثورة المعلوماتية

سعد محمد رحيم (*)

العولمة في المعنى المعجمي هو أن يتخذ شيء ما بعداً عالمياً.. إلى هنا يبدو الأمر بريئاً وشرعياً.. غير أننا عندما نذهب إلى معناها الاصطلاحي المتعارف عليه في حقول السياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام فإن هذه البراءة ستتلاشى، وستكشف تلك الشرعية عن زيفها، ولا سيما إذا أخضعناها للمعايير الإنسانية والأخلاقية العامة.

ولكن هل تستطيع عملية الإخضاع هذه المجردة إيقاف زحف العولمة وتأثيراتها الواسعة؟ الجواب بالتأكيد هو لا.. ذلك أن العولمة تتحول اليوم إلى قوة شبحية هائلة، تسيرها مصالح واستراتيجيات وأطماع..

---

* سعد محمد رحيم: باحث من القطر العراقي الشقيق. له عدة دراسات منشورة في مجلة المعرفة.

وتشتغل على الأصعدة كافة.. فهي تسعى إلى تغيير صورة العالم، والإطاحة بتوازناتها القديمة، والتأثير في دقائق حياة الأفراد والمجتمعات.. ولذلك فإن لها آلياتها العاملة في حقول الاقتصاد والسياسة والثقافة والإعلام.. فالعالم مع العولمة يتحول في علاقاته وأشكال مؤسساته، وأنساق مفاهيمه، وأنظمة قيمه واتجاهات السلوك في مجتمعاته، وهويات هذه المجتمعات. وكذلك في اهتمامات البشر وأذواقهم وحسهم الجمالي، وثقافتهم وأخلاقهم. وفي كل هذا تلجأ العولمة من خلال استثمار التطورات الحاصلة في مجالات الاتصال وتقنيات المعلوماتية والإعلام إلى تهيئة الأرضية النفسية والثقافية في المجتمعات الأخرى، ولاسيما في العالم الثالث، لقبول طروحاتها والانجذاب إلى (النموذج الحياتي) الذي ترغب في تعميمه، وبذلك فإن الخطوة الأولى في التصدي لهذا الطوفان العارم هو أن نفهم ماهية هذه العولمة واستراتيجياتها وأهدافها، والمؤسسات والحكومات التي تروج لها، وكيف تعمل؟ وماذا تريد على وجه الدقة؟ وإذ ذاك علينا أن نطرح السؤال الضروري والخطير: ما العمل؟. وفي أثناء الإجابة علينا أن نقتنع في البدء أن هذه العولمة ليست قدراً نهائياً على العالم الاستسلام له.. فهي ظاهرة تاريخية شاذة، كما الاستعمار، وإن كانت تمتلك وسائل وأساليب وآليات أكثر حذاقة وخطورة، وفاعلية.

وعلينا ثانياً أن نفهم أن هذه العولمة لا تنطوي على حلول سحرية لمشاكل العالم المتخلف والنامي، ولن تقودنا إلى الفردوس المفقود على الأرض، كما تدعي.

وعلينا ثالثاً أن نؤمن بأن الإنسانية، في جانبها الخيّر تحوي من الممكنات ما تجعلها، إذا ماتوفرت لها الإرادة والتصميم وشروط الفعل، أن تواجه هذا المقترح الإمبريالي/ الرأسمالي المرعب، وتوقفه عند حده.

وإذا كانت العولمة من خلال الشركات عابرات القارات، والمؤسسات والمنظمات المالية والتجارية الكبرى التي تسيطر عليها أميركا بخاصة قد عولمت أسواق كثيرة انفتحت أمام منتجاتها ورساميلها فإن العولمة في الجانب الآخر تروم غزو العقول وتفتيت الثقافات، وإشاعة النمط الحضاري الغربي/ الأميركي، ليسهل عليها، من ثم، إحكام سيطرتها على العالم بأسره. وفي هذا فهي تعمل على عولمة الإعلام، وجعل الإعلام في خدمة العولمة ظاهرة وإيديولوجيا.

فالعولمة هي إيديولوجيا الرأسمالية في ذروة احتكار السلطة والثروة.. هي التصور الشمولي لتلك الفئة من البشر التي تركز عناصر القوة كلها بيدها، لتجعل من العالم

رقعة شطرنج هائلة، من خلال محاولة تدجين الإرادات تحت سيطرة الرأسمالية الغربية، ولا سيما الأميركية.

❖ ❖ ❖

يستهل الدكتور مؤيد عبد الجبار الحديثي مقدمة كتابه (العولمة الإعلامية والأمن القومي العربي) بمقولة ألفين توفلر: (المعرفة هي المحور الذي ستدور حوله حروب المستقبل وثوراته الاجتماعية.. إنها القاعدة الأساسية لظاهرة العولمة -Glo balization)[1].. ففي عصرنا الراهن تغدو المعلومة هي قاعدة القوة، والمجال الحيوي للاستثمار الرأسمالي الذي يدر أكبر النسب من الأرباح.. وتكون المعرفة سلطة من نوع آخر، تتفوق في تأثيراتها على أية سلطة أخرى عرفتها الإنسانية في السابق، فتصبح تحت طائلة التغيرات المتسارعة الحادثة في حقول الاتصالات والمعلوماتية والإعلامياء في حقبة أخرى تختلف في خصائصها وموجهاتها عن الحقب السابقة.. وعندما يقول لنا الدكتور الحديثي أن العولمة (ليست ظاهرة جديدة، بل قديمة قدم التاريخ، عندما كانت تتصدر حضارة ما باقي الحضارات وتقود العالم)[2]، مستدلاً، ومعولاً على أطروحة حسن حنفي في ذلك، فمن حقنا أن نوضح أن العولمة، وإن كانت تشبه في هذا النزعات العالمية الكوزموبوليتية للحضارات والدول السابقة فإنها تختلف عنها من حيث الكيف، في وسائلها وأهدافها وادعاءاتها.. وهذا ما سيقوله لنا الدكتور الحديثي في ما بعد. فالعولمة تتخذ اللاحقة (isation) بدلا من اللاحقة (isme)والأولى تعتمد التحويل من الخارج، بينما الثانية تعتمد التغيير من الداخل اعتمادا على الدينامية الذاتية، فمع العولمة أصبحت كالتالي: لن تتغير الاقتصادات من داخلها، لذلك لا بد من نصائح وترسيمة المؤسسات الدولية من أجل تحويل هذه الاقتصادات وإدماجها في النظام العالمي)[3]. وكذا الأمر بالنسبة للأنظمة السياسية..

وحين يستعرض المؤلف مفردات من قبيل (التبعية، الاندماج، التكيف، الاعتمادية المشتركة، الهيمنة، الامبريالية، أمركة العالم.. إلخ).. يرى وهو على صواب بأن (العولمة ليست رديفاً لأي من هذه المفردات أو المصطلحات، لأن حقيقتها أكبر من تلك المفردات مجتمعة. فهي نظير لمجموع تلك المصطلحات في الأقصى، ولمعظمها في الأدنى. لذا لا ريب أن تضحي العولمة نظاماً تتكامل فيه لغة السياسة والاقتصاد والمعلوماتية. حيث يجد فيه النفوذ السياسي مداه الاقتصادي، بينما يتكئ النفوذ الاقتصادي على ظهيره

السياسي، ويتدخل عالم الثروة الاتصالية ليؤطر الظاهرة بأبعاد متداخلة..) [4].

وقبل شيوع مفهوم العولمة طرح ألفين توفلر مفهوم الموجة الثالثة التي دشنتها البشرية مع عصر المعلوماتية والحواسيب بعد الموجة الأولى الزراعية، والموجة الثانية الصناعية وهو يقول لنا إن الهم الكبير (كان في العصر الصناعي، هو صنع الأشياء. وفي الوقت الحاضر يبدأ همنا الأول بإدارة الأشياء) [5]. وكذلك يؤكد أن (المبدأ القائل بأن المعرفة هي السلطة أصبح منذ الآن عتيقاً. فلكي تُمارس السلطة تحتاج إلى معارف عن المعرفة) [6]. وبهذا نكون مع العولمة أمام ظاهرة مركبة ومعقدة.. متعددة الأوجه.. إطارها المفهومي ملتبس، ومن الصعب الإمساك بجميع آلياتها.. فهي إيديولوجية بمعنى انطوائها على منظومة من أفكار وأهداف محددة، وهي مجموعة من الاستراتيجيات المتوافقة لمؤسسات وحكومات وأشخاص تبدو مستقلة بعضها عن بعض، ولكنها تعمل بالموجهات والاتجاهات ذاتها. والسؤال المحير، ربما، هو: هل أن العولمة حالة متحققة، أو هي في طور التحقق.. أم أنها حلم حالمين أو (خدعة إمبريالية من صنع أميركي للتدخل في شؤون العالم، وإمبريالية ثقافية واقتصادية لتهجين العالم وتجريده من خصوصياته، والتحكم بمصائره) [7].

❖ ❖ ❖

تعمل أميركا على عولمة الإعلام، وتحتكر نسبة عالية من صناعة الأخبار، وبث المعلومات عبر الفضائيات وشبكة الانترنيت، ووكالات الأنباء، وهي- أي أميركا- (تصدر عبر شركات ما يقارب ثلاثة أرباع البرامج التي تبثها عبر العالم، في حين لاتتعدى نسبة ما تستورده ٢٪) [8] وتشير الدراسات (إلى أن ٩٧٪ من الأجهزة المرئية موجودة في الغرب الذي يمتلك أيضاً ٨٧٪ من الأجهزة المسموعة وأن ٩٠٪ من مصادر الأخبار في دول العالم الثالث مستوردة من الدول الغربية) [9]. والمفارقة أن أوروبا نفسها (ناهيك عن العالم الثالث) تعاني من هذا الغزو الإعلامي والثقافي الكاسح، فعلى سبيل المثال، (يتجلى العجز الأوروبي في كون هذه المجموعة قد صدرت إلى أميركا عام ١٩٩٢ ما يقدر بـ ٢٥٠ مليون دولار من الإنتاج السمعي المرئي في ما استوردت من الولايات المتحدة ما يقدر بـ ٢٧٥٠ مليون دولار) [10]. ونلمس هيمنة كاملة للغة الإنجليزية التي باتت اليوم لغة الاحتكار المعرفي والإعلامي/ المعلوماتي، لتكون بذلك أداة للثقافة الأنجلوسكسونية (ولا سيما الأميركية) في فرض نموذجها الحضاري:

(إن ٨٨٪ من معطيات ﴿الانترنيت﴾ تبث باللغة الإنجليزية مقابل ٩٪ بالألمانية و٢٪ بالفرنسية، و ١٪ يوزع على بقية اللغات الغربية) [11].

أما ما يتعلق بعدد مستخدمي الانترنيت في العام ١٩٩٧- مثلاً- (يقدر.. في ثمانية من الأقطار العربية ما مجموعه (٢١٥٠٠٢) مستخدم مقارنة بما مجموعه ٣٠ مليون مستخدم في الولايات الأميركية و ٩ ملايين في أوروبا) (١٢).

إن الثروة الاقتصادية تتركز يومًا بعد آخر في يد قلة قليلة من المليارديرية الغيلان (وفي تقدير للأمم المتحدة أن ٣٥٨ شخصًا من كبار أثرياء العالم يساوي حجم مصادر ثروتهم النقدية حجم المصادر التي يعيش منها ملياران وثلاثمئة مليون شخص من فقراء العالم) (١٣). وبالمقابل تتركز سلطة الإعلام بيد من يسمون ببارونات الصحافة (من أمثال ماكسويل وروبرت مردوخ وهيرست. ففي الولايات المتحدة هناك خمسون شركة تمتلك معظم وسائل الإعلام. وفي بريطانيا هناك ست شركات إخبارية كبرى تسيطر على ثلثي الصحف والمجلات) (١٤).

نسوق هذه الأمثلة لبيان أن قوى بعينها توّجه الوعي والمخيال للميارات من البشر- تبعًا لمصالحها الخاصة الضيقة- فهذا الإعلام يخلق الإنسان المستسلم الذي لا يعرف إلا ما يرون له أن يعرف.. يقول الدكتور الحديثي:

(إن من أهم خصائص العولمة بنيويًا، هي التحكم في آليات التفكير والتحليل والتصور والتماثل، أي ما يمكن أن نسميه، في كلمة واحدة بـ (المخيال) الذي يمكن عدّه أداة أساسية من أدوات تعبير الإنسان عن ذاته وحياته ووجوده، وحين تتم السيطرة على مخياله يصبح بذلك تعبيره عن وجوده منقوصًا ومتحكمًا فيه، ولا سيما أن العولمة الإعلامية تسعى من خلال تكنولوجيا الثورة الإتصالية إلى نشر (مبدأ التماثل) وتحميه ليصبح التماثل بذلك أمرًا واقعًا لامفر منه، وتحويل المجتمع إلى كتلة متشابهة) (١٥).

إن مأزق الثقافة المعاصرة يكمن- وهو مأزق ومفارقة في آن معًا- في أن تدفق المعلومات الحالي، والتوسع في مجال المعلوماتية، وتطور صناعة الصور لم يؤد إلا إلى خلق إنسان مدمج في دائرة تأثير الإعلام العولمي. فقد نجح هذا الإعلام في نبذ وإبعاد كلمات كثيرة من قاموس المجتمعات الغربية، ومنها الثورة، الصراع الطبقي، التمرد، حق تقرير المصير، التحرير.. إلخ- ملقيًا على هذه الكلمات ظلاً مريبًا وجد انعكاسه كذلك عند كثير من المجتمعات والحركات السياسية في العالم الثالث. وهذا الإعلام يشيع كلمات بعينها لتحل محل كلمات أخرى، وهذه العملية تصيب الإنسانية بالتشوه والارتباك. فعلى سبيل المثال باتت كلمة إرهاب تتداول عبر وسائل الإعلام بديلة

عن كلمة المقاومة والنضال من أجل التحرر، وصار الإعلام الغربي يطرح الكلمة هذه بصورة ملتبسة بحيث يكون معها اختطاف عصابة لشخص مقابل فدية مالية مثلاً، مساوياً لحالة طفل فلسطيني يقذف المحتلين الصهاينة بالحجارة. والغريب أن هذا الأمر بات ينطلي على كثيرين، وحتى في العالم الثالث، فتراهم يحاولون خلق ذرائع شتى ليبعدوا عن أنفسهم وصمة الإرهاب.. فالصناعة الإعلامية (العولمية) جعلت تغير من أنساق الأفكار والقناعات والآراء بوسائلها وطرقها البراقة الحاذقة.

وإذا كان بالإمكان المراوغة في صياغة الجمل عند التعبير عن حدث أو فكرة، والسكوت عن تفاصيل وجوانب وأشياء، فإنه في حالة الصورة أيضاً يمكن المراوغة، وربما بشكل أكبر. فاختيار صور بعينها وإخفاء أخرى وتحديد زاوية الرؤية عند تقديمها سيؤثر على وجهة نظر المتلقي. ناهيك عن أن الصور قد لا تعكس حالات العالم الداخلي/ الباطني، وما تعتمل فيها من أفكار وهواجس ومشاعر، وتكون بحاجة إلى معونة الكلمات.. هنا تغدو الكلمات في خدمة الصور المختارة، وليس العكس كما كان يجري سابقاً في مجال الإعلام.

وتهيئ ثقافة العولمة - إن جاز أن نطلق عليها اصطلاح ثقافة - مستلزمات وشروط الهروب من الواقع، أو التعامي عنه.

إن كل شيء في عصر العولمة يتحول إلى لعبة وإثارة، بما في ذلك صور المآسي والكوارث، كما حدث في حرب الخليج الثانية.. إذ عمدت القنوات التلفازية الغربية إلى إدهاش المشاهد الذي يرى ما يفعله قصف الطائرات والصواريخ كما لو أنه ألعاب إلكترونية مسلية.

❖ ❖ ❖

إن القفزة الحاصلة في الفلك الإعلامي بنتيجة ثورة الاتصالات والمعلوماتية باتت تسرع من إيقاع الحياة.. فالتحولات الهائلة والمفاجئة في ما حول الإنسان جعلته يعاني من صعوبة في التكيف، والملائمة مع ما يجري واستيعابه.. ولم يعد هناك وقت كاف للتأمل والتمحيص عند اتخاذ القرارات.

(وهكذا نجد أن وفرة المعلومات وتدفقها على جميع المستويات قد كرس صعوبات غير تقليدية بخصوص عملية انتقاء المعلومات اللازمة لعملية صنع القرار، خاصة إذا ما تذكرنا بأن هذه الوفرة تقترن بعقليات مختلفة ونماذج متباينة للتصور والإدراك ما بين المرسل والمستقبل لذات المعلومة، الأمر الذي شتت من مهمة الانتفاع من المعلومات وبالتالي عقد من مهمة المتخصص في عملية جمع وتنظيم المعلومات، ولعل هذا ما أتاح للمؤسسات العالمية في مجال إنتاج

المعلومات نفوذاً كبيراً على عملية صنع القرار ليس فقط على المستوى الوطني وإنما يتعداه إلى المستوى الدولي خاصة وأن معظم هذه المؤسسات ذات نشاطات دولية [16].

ويقيناً لن يكون الحل في صب اللعنات على هذه الثورة المعلوماتية، أو بالانكفاء على الذات، وبناء السدود حولها لدرء مخاطر تلك الثورة، وإنما في إيجاد المؤسسات الكفوءة ووضع الإستراتيجيات الناجعة لاستثمار ممكناتها خارج ما ترتئيه إستراتيجيات العولمة.. يقول برهان غليون:

(وليس للثقافات الأخرى (ويقصد غير الغربية) أي مستقبل إلا إذا أدرك أصحابها طبيعة هذا النمط الجديد من السيطرة الثقافية وآلياتها، وبلوروا الإستراتيجيات المناسبة التي تسمح لثقافاتهم أن تبقى على مستوى المشاركة العالمية الإبداعية وألا تتحول إلى مجرد ثقافات هوية، أو معبرة عن الاستمرارية والديمومة التاريخية لمجموعة بشرية. وهذا يفترض التعمق في فهم آليات هذه السيطرة الثقافية وتجديد أساليب طرح مشكلات تحول الثقافات والمهام المطروحة على أصحابها للنجاح في هذا التحول والارتفاع بثقافاتهم إلى مستوى متطلبات العصر) [17].

وإذا كانت العولمة تسعى إلى فرض النمط الحضاري الواحد فعلينا أن ندرك بأن تحقيق الذات وتأكيد الشخصية الحضارية لا يتأتى إلا من خلال الفعل الإبداعي الذي يجعل لنا مساهمة فعالة في صيرورة العالم المعاصر وتحولاته، وبهذا سنفرض منطق التنوع الثقافي والذي هو منطق أكثر فعالية وخصوبة وفائدة لمستقبل البشرية من المنطق العقيم للعولمة..

(وتأسيساً على ما تقدم فإن مستقبل العالم العربي يكمن أساساً في مستقبل صيانة الثقافة العربية، وليس هنا ما نحاول التنبؤ به بل ما نصنعه بأنفسنا وعالمنا بما ننتجه من الحقائق.. إنه عمل على إعادة خلق الواقع من جديد بالقول والعمل أو بالفكر والممارسة، فليس عالم الإنسان فكرة جاهزة ينبغي تجسيدها، أو نموذجاً أصلياً مغلقاً لا يقبل المناقشة والتفاعل، بل هو مساحة حرة من الإمكانات المفتوحة دوماً على المجهول واللامتوقع، على نحو يتيح نسج علاقات عديدة مع الواقع يتغير معها نظام المعنى ومنظومات التواصل.. أنظمة المعرفة وقواعد الممارسة.. جغرافية العقل وخارطة القوة) [18].

الهوامش

١- الدكتور مؤيد عبد الجبار الحديثي (العولمة الإعلامية والأمن القومي العربي)- الأهلية للنشر والتوزيع- عمّان.. ط١/٢٠٠٢- ص٩.

٢- المصدر نفسه.. ص٢٢.

٣- م.ن.ص٢١- ٣٢.

٤- م.ن.ص.٣٩- ٤٠.

٥- ألفين توفلر (خرائط المستقبل) ترجمة: أسعد صقر- منشورات اتحاد الكتاب العرب- سورية.. ص١٧٤.

٦- م.ن.ص١٧٥.

٧- العولمة الإعلامية- مصدر سابق.. ص٢٤.

٨- م.ن. ص٦١.

٩- م.ن. ص١١٦.

١٠- م.ن..ص٦٢.

١١- الهوية والعولمة/ ندوة الأكاديمية المغربية ١٩٩٧- مجموعة كتاب وباحثين- المغرب ص١٢٥.

١٢- مجلة آفاق عربية- العدد ٩- ١٩٩٨/١٠.. ص٣٤.

١٣- الدكتور محمد عابد الجابري (قضايا في الفكر المعاصر).. مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط١/١٩٩٧.. ص١٤٠.

١٤- مجلة آفاق عربية- ك٢/١٩٩٣.. ص٥٢.

١٥- العولمة الإعلامية- مصدر سابق- ص٦٣.

١٦- م.ن. ص١١٣- ١١٤.

١٧- الدكتور برهان غليون (ثقافة العولمة وعولمة الثقافة)- دار الفكر- دمشق.. ط٢/٢٠٠٠- ص٤٧-٤٨.

١٨- العولمة الإعلامية- مصدر سابق ص١٢٤.

أساطير الاندماج الرأسمالية

تأليف: إي.ب. فوكس
ترجمة: صخر الحاج حسين(*)

في الحين الذي ينظر فيه إلى اكتساب اللغة كمرحلة أولى في عملية الجمعنة(١)، ينتمي الأدب تاريخياً إلى القوى الفرعية للعملية ذاتها والتي تقدم الفرد لمخططات التأويل السائدة في مجتمعه. فاللغة تنتج وعياً لعالم يمكن لمسه بالكلمات. ويبدو أن الأدب يطور وينقي هذا الوعي باستخدامه الكلمات حتى يتسنى له اكتشاف الواقع الذي فض حديثاً. ويكمن المسوغ العام للأدب المعتبر كنشاط لتمضية وقت الفراغ وكجزء من النظام التعليمي، في أنه «يوسع الرؤية»، وبينما من غير المفيد أن ننكر بأن أعمالاً معينة من القص يمكنها

(*) صخر الحاج حسين باحث ومترجم من سورية. له عدة أعمال منشورة.
(١) socialization أو تنميط الاجتماعي، من علم الاجتماع. طبننة medicalisation من الطب الفيزيولوجي والنفسي.

إنجاز ذلك، أو شيئًا شبيهًا به، علينا أن نقر بأن القص قادر وعلى قدم المساواة على تقليص هذه الرؤية. لقد أثبت أدب الأطفال بأنه عامل حاسم تاريخيًّا في سيرورة الجمعنة، هذا الأدب الذي هو عبارة عن اللقاءات الأولى التي ما تزال مستغرقة عن وعي وبعمق في غالب الأحيان، في عملية اكتساب اللغة. ربما أظهرنا نوعًا من المحاباة للرؤية الطفولية المتمائلة التي تفشل في رؤية ثياب الإمبراطور الجديدة، ولكن منذ الثورة الصناعية إلى الوقت الحاضر تم إنتاج عدد لا يحصى من الأعمال للأطفال التي تقمع الفوضى الممكنة لهذه الرؤية وذلك باستجلاب وتعزيز الصيغ المرجوة من الإدراك والاستجابة (أي العوامل المؤولة)[2] لسلطة الإمبراطور.

في دراسته الثاقبة عن أدب الأطفال والأيديولوجيا البورجوازية يظهر إسحق كرامنيك Issac Kramnick كيف تمَّ تقديم أساطير الاندماج العظيمة للرأسمالية الصناعية إلى الأدب في نهاية القرن الثامن عشر. ولقد تمَّ إظهار هذه الأساطير في أعمال مثل «جاك الصغير»[3] لتوماس داي[4] Thomas Day والتي يمكن اعتبارها كسلف لحكايات القرن العشرين مثل «الآلة الصغيرة التي تفوقت»[5]. لـ مابيل.س.س براغ Mabel C. Bragg، والتي بيع منها أكثر من خمسة ملايين نسخة منذ ظهورها الأول عام ١٩٢٦. وتوضح الحكايتان النجاح الذي تلا قبول الروح الفردانية، والإيمان بأن العمل الجاد وإرادة الإنجاز والسعي وراء الاستقلال سوف تأتي بالعطايا المادية. ويتأسس جزء من فرضية كرامنيك على أن الثورة الصناعية، بتهيئتها الأساس الاقتصادي (العائلة نواتية خاصة)[6]، قدمت تصورات جديدة عن الطفولة والأمومة. فقد فصلت النساء والأطفال عن سيرورات الإنتاج. وخلق هذا ساعات فراغ يمكن أن تملأها قراءة الأعمال -بصوت مرتفع- تلك الأعمال التي تمجد الثورة الصناعية والمهندسين البورجوازيين والعلماء الذين جعلت جهودهم من هذه الثورة ممكنة. إن الكتب التي استجابت لبنية هذه العائلة الجديدة كانت في البداية

(٢) يقول -بيرس- أن هناك ثلاثة مكونات مترابطة وهي العلامةsign والشيء Object الذي تمثله هذه العلامة والعامل المؤول لهذه العلامة interpretant.

(٣) Little Jack.

(٤) كتبت عام ١٧٨٦.

(٥) Little engine that could.

(٦) كرامنيك ١٩٨٠ الصفحة ٢١٠ .Private nuclear Family وهي العائلة التي تضم الزوج والزوجة والأطفال دون الجد أو الجدة أو الأعمام والأخوال.

تعليمية في إطار نشط وعلني. وفي غالب الأمر ابتكرت هذه الكتب مشاهد خيالية قادرة على توجيه رسائل مباشرة إلى الوطن شأن ما حض عليه عمل جوسياويدغوود Josiah Wedgwood (رسالة للصغار القاطنين في مصنع الفخار)[٧] والذي امتدح فيه فضائل حسن التدبير والاقتصاد في الإنفاق واحترام الآلات والإنتاجية والاعتدال وما إلى ذلك. لقد كانت المواقف تجاه اكتساب الثروة متضاربة، فمن جهة أولى ستقابل الفضيلة وهذا أمر حتمي بالنجاح المادي، ومن جهة أخرى لن يسمح للبطل أو البطلة أن تنويهما الثروة[٨]. بكلمات أخرى كان على البورجوازية التي كانت تتحدى موقع الرأسمالية المهيمن أن تؤسس تفوقها الأخلاقي على هذه الأرستقراطية. وهناك واحد من الموضوعات العديدة التي طرحها كرامنيك للنقاش -موضوع ما يزال يعاود الظهور بانتظام في الأفلام الجماهيرية- وهو قوة البورجوازيتين الأميركية والإنكليزية التي تكافئ فضائلها عندما تلتقيها هاتان القوتان في أماكن غير متوقعة (مثلاً في الخارج).

وتروي حكاية «التجار الصغار»[٩] لماريا إيدغورث Maria Edgeworth دهشة مجموعة من السياح الإنكليز عندما يلتقون أحد الباعة الجوالين الشرفاء في نابولي. تظهر هذه المجموعة لفرانشيسكو الصغير أقصى ما تستطيع من احترام وتمنحه بركاتها «فلتبارك أيها الولد الطيب فلتك إنكليزيًا من طريقة تعاملك»[١٠]. يؤخذ فرانشيسكو إلى انكلترة حيث يكسب مكافأته، ويمكننا أن نضيف، أن تكريسه تمّ من أجل تحيّز إنكليزي آخر وذلك عندما يصبح فرانشيسكو فنانًا. ربما كانت أكثر الأعمال طرافة التي يناقشها كرامنيك هو «هاري ولوسي»[١١] لماريا إيدغورث[١٢] هذا العمل الذي يصفه على أنه «ترنيمة العلم والصناعة، والأشخاص الذين يشبهون الآلهة الذين جعلوا انكلترة ما كانت عليه في العقد الأخير من القرن الثامن عشر، مصنعًا للعالم»[١٣]. لا يعتبر هذا العمل قيمًا فقط بسبب التفاصيل التي قدمت بها

(٧) An Add rcess te le yonng Inhab tants of thepotIriy Newcasle 1758.
(٨) المثال هنا هو The history of little goody two-shoes.
(٩) Little Merchants.
(١٠) كرامنيك ١٩٨٠ الصفحة ٢٢٢.
(١١) Harry and Lucy.
(١٢) جزءان ١٨٢٥.
(١٣) كرامنيك الصفحة ٢٢٢.

الثـــورة الصناعـــيـــة وثمنت آثارها الإجـتـصـادية[١٤]، ولكن أيضًـا بسـبب التضمينات المتعلقة بالطبقة والفروق الجنسية. فعندما يؤخذ هاري ولوسي في رحلة، وهنا لا تعتبر القلاع والكاتدرائيات من ضمن المشاهد السياحية (رمز الماضي)، يتم التركيز على مصانع الفخار ومصانع الفولاذ ومحركات البخار إلخ. ويتم تصوير الزيارة إلى طاحونة الفولاذ كالتالي:

«كومات من الفحم نصف محترقة، سـحب من الدخـان من كل الألوان، من المداخن والمسابك، وكير الحدّادين. وقد تغطت أيدي ووجوه كل البشر بالسخام. لقد قالت لوسي بأنه البلد الأكثر رعبًا الذي رأته في حياتها. كان هاري يعرف أن لا شيء جميل هنا كي يراه المرء، لكن الأمر كان مدهشًا، كان هناك نوع من الرفعة. لم يستطع هاري إلا أن يشعر باحترام كبير للمكان حيث بدت محركات البخار وكأنها تغزو المكان، وفي الحقيقة، بدت وكأنها تنتحل العالم لنفسها»[١٥].

إن إحـسـاس لوسي بالذعـر يناسب بالطبع دورًا مستقبليًا محليًا سيعزلها عن وسائل الإنتاج. ولكن ماذا عن زوجات وأسر أصحاب تلك الأيدي والوجوه «المغطاة بالسخام»؟ إن الفضول المحتمل للقارئ يتم استباقه وإحباطه بعد عدة صفحات في مشهد يصف مدير المصنع وهو يأخذ كلاً من هاري ولوسي إلى بيت أحد العمال. وفي اللحظة التي يصلان فيها، يشاهدان الرجل وهو يضرب زوجته، وبعد ذلك مباشرة يريان بأن المرأة وأطفالها يقومون على خدمة العامل بذل وخنوع كبيرين. وعندما يسأل الطفلان الزائران مدير المصنع عن عدم تدخله، يشرح لهما أن ليس له الحق بأن يفعل ذلك إذ «لكل إنسان الحرية أن يفعل ما يحلو له في بيته وفي شؤونه الخاصة» ويكتب كرامنيك عن المقطع:

«هذه حرية ليبرالية، وهي تتوج البيت البورجوازي الجديد وبنية العائلة بقدسية أيديولوجيـا عدم التدخل»[١٦] إن منهج كرامنيك النقدي والذي يحلل المضمون الأيديولوجي للقص بربطه بالأساس التاريخي والمواد الوثائقية، يقدم تبصرات هائلة في الطريقة التي استخدمت فيها الرأسمالية الصناعية الأدب كوسيلة لنشر العوامل المؤولة الضرورية لبقائها. ومن منظور الدعاية، نحتاج لتقري هذه السيرورة ليس باعتبارها عملية لمضاعفة

(١٤) الاجتماعية الاقتصادية.
(١٥) كرامنيك ١٩٨٠ الصفحة ٢٢٣.
(١٦) كرامنيك ١٩٨٠ الصفحة ٢٢٥.

الأساطير النموذجية الثابتة، بل باعتبارها مصدرًا ديناميكيًا متحولاً من عملية الإقناع القادرة على تكييف نفسها مع أي موقع تدافع عنه الرأسمالية. إن تاريخيتنا كقراء، والتي تسمح لنا إلى حد بعيد أن نفهم النقاط التي أشار إليها كرامنيك، يجب أن تدمج في المنهج والذي نقترب معه إلى النصوص المعاصرة بالإضافة إلى الماضية منها. فالصراعات والتناقضات التي نراها في النصوص الأولى، يجب أن ترى كعوامل بنيوية دائمة للرأسمالية وليس فقط كأمثلة قيدها الزمن لوجه الرأسمالية المرفوض. إن مشهد الزوجة التي يضربها زوجها في (هاري ولوسي) على سبيل المثال، يكشف عن أحد التناقضات المستمرة للأيديولوجيا البورجوازية أثناء محاولة إخفاءها. ومثل الأبواب التي تنفتح على مصاريعها في قصص فرانز كافكا للسماح بدخول لمحة مريكة لواقع مرعب يتعايش إلى حد ما مع «الحياة الطبيعية»، إن الستائر في (هاري ولوسي) تنفتح قليلاً لتسمح لقارئ متلهف آثم أن يرصد العالم السفلي البروليتاري الذي يقف بالمقارنة مع القيم التي تحتفي بها الرواية. لكن هذا العالم السفلي ما هو إلا محاكاة غرائبية ساخرة لتلك القيم، والتي ترى كما هي بمصطلحات المبدأ المهيمن الذي يعلن بأن «لكل شخص حريته بأن يفعل ما يحلو له في بيته».

أما أدب الأطفال اللاحق والذي يخدم متطلبات معظم الفترات ما بعد الثورية، فقد تخلى عن النبرة الوعظية لصالح أدب قدم النظام الاجتماعي الجديد كأسلوب طبيعي ودائم لتنظيم المجتمع الصناعي. وأظهرت متطلبات الرأسمالية الصناعية والتي تشتمل على تقسيم العمل والتفاوت الاقتصادي والتقديس المطلق للملكية الفردية، نفسها كملامح ثابتة للوجود الإنساني. لقد صورت الأسطورة، التي تقول بأن الفرد الطموح لا يزال يمتلك القدرة على وضع نفسه ضمن البنية المحددة للسلطة والثروة، النظام الطبقي الذي أنتجته الرأسمالية نظامًا رحيمًا. وبالرغم من عدد القوانين التعليمية والإصلاحات الصناعية التي هيأت أساسًا متناميًا من معرفة القراءة والكتابة بين أطفال العمال، فإن الكتب والمجلات المتاحة لهم لم يكن لها أن تساهم في تعميق فهم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. إن النظام التعليمي الذي تم تأويله على نطاق واسع كسلم للحراك باتجاه الأعلى الذي يهيئه المجتمع الخير، يقدم الأطفال إلى القيم الاجتماعية والأخلاقية التي تعتبر مرغوبة من قبل الطبقة المتسيدة، بينما يصور تنوع مكتبة أدب الأولاد والفتيات الشعبي عالمًا يرى فيه أطفال هذه الطبقة يعملون ويلعبون. يمكن أن تبدو زخارف هذا العالم الخيالي -العمات الثريات، الإجازات

المثيرة، بيوتات الريف، الهدايا الساحرة، المدارس الخاصة الخ.- على أنها التعبير البريء للبورجوازية التي تطلق العنان لنفسها بعد ثورتها الناجحة. ومع ذلك وعلى المستوى الأعمق فإن هذه الأوساط والدوافع المتواترة كانت قادرة على أن تستغل شأن عوامل اندماجية قوية. لم يكمن الجانب الماكر الذي أعد لطفل الطبقة العاملة الذي يقرأ مثل هذه الأدب، في أنه يصور عالمًا كان قد أقصي عنه، ولكنه كان يكمن في أن مواقع هذا العالم وحالاته الخاصة، تلك التي تماثل مواقع وحالات عالم الأرستقراطية الخيالي الذي استبدله، توحي بأن الشعور الأصيل والحرية الحقيقية ربما كانا ممكنين فقط ضمن هذا الموقع. إن الرغبة في دخول هذه الطبقة وبالتالي أن يصبح الطفل «شخصا حقيقيًا» تمت تلبيتها بأساطير سندريلية[١٧] متنوعة حيث ينفى فيها الأمير غريب الأطوار لصالح مستكشفي الموهبة البورجوازيين. إن الملمح المتكرر والمثير في أدب الاندماج الرأسمالي، حيث يبدو في بعض الأحيان بأنه يصبح مدركًا لنفسه كعامل اندماجي يكمن في الدور الذي يعزوه إلى اللغة. وكبنية شديدة التعقيد للاتفاق الاجتماعي الذي يعنى بالاستخدام والمعنى والصوت، يمكن للغة أن تصير مجازًا للقواعد المعقدة والعلاقات المتحدة التي تحدد موقع الفرد وجهًا لوجه مع المجتمع. إن «التخاطب الصحيح» كمؤشر على الوضع الاجتماعي كان قد حاكاه (شو) George B.Show في وصفه المشهور لإلزا دووليتل في مسرحية (بيغماليون)[١٨]. كما أن القدر الكبير من التسلية كان قد استقي من إمكانية الخداع الصوتي الذي تدور حوله حبكة المسرحية. إن القوة المجمعنة[١٩] للغة يمكن لها في كل الأحوال أن تظهر على المستوى الأكثر عمقًا، وتستطيع أن تُستغل حتى في أعمال أعدت لأطفال صغار كأسطورة ثانوية فعالة وقادرة على تعزيز الأسطورة الرأسمالية الأساسية. والمثال هنا تقدمه بياتريس بوترBeatrix Potter في حكايتها المصورة الساحرة «حكاية السنجاب نوتكين»[٢٠] التي تصف كيف أن مجتمع السناجب يبدأ كل يوم بجمع الجوز في إحدى الجزر. وبما أن البوم السيد براون العجوز يملك الجزيرة، فإن على السناجب أن يأخذوا الإذن قبل أن يشرعوا بجمع الطعام على ممتلكاته. وهكذا ففي كل صباح وقبل أن

(١٧) سندريللا. المترجم.
(١٨) عام ١٩١٤.
(١٩) Socialising.
(٢٠) Tale of Squirrel Nutkin.

يبدؤوا بحثهم عن الطعام يدبرون الأطعمة الشهية للبوم على شكل «فئران سمينة»، و«خلد سمين ممتاز» وسبع سمكات منوة[٢١] سمينات» و«عسل بري مسروق من عش النحل الطنان» وما إلى ذلك. تسلم هذه العطايا باحترام فائق، ويؤدي كل سنجاب انحناءة صغيرة قائلاً بكل أدب: «أيها السيد براون هل تمنحنا الإذن بجمع الجوز من جزيرتك؟ أما البوم والذي يقضي معظم وقته في النوم فيقبل الطعام. ويعترض بطل الحكاية السنجاب الوقح نوتكين على ذلك. ويتم توصيفه بناء على ذلك بأن «ليس لديه أدنى احترام» أو «أخلاقيات جيدة» فهو لا يرفض فقط أن يجمع الجوز، لكنه بدأ يرقص ويتهور حول السيد براون العجوز مضايقاً إياه بأحجيات بارعة ومداعباً إياه بالقراص[٢٢].

ويتمادى السنجاب في شذوذاته مما حدا بالبوم لأن يمسك به «ويرفعه من ذيله عازماً على أن يسلخ جلده». مضحياً بنصف ذيله ينجح نوتكين في الهرب، وللمرء أن يتوقع أن السنجاب نوتكين والقارئ الصغير وحتى هذه اللحظة سيكونان قد أفلحا في تعلم قبول طبيعية مجتمع ينام فيه البوم المالك بينما يشتغل مجتمع السناجب لأجل قوته ولأجل البوم. وفي الواقع، تتعدى القصة حدود أسطورة اندماج، وتبقى صامتة حول مسألة فيما إذا كان نوتكين قد أصبح «سنجاباً جيداً»، لأن لا «احترام» ولا «الأخلاقيات الجيدة» يمكن أن تلغي القدر المتربص به. ففي الصفحة الأخيرة تنسحب الأسطورة الرأسمالية لتفسح مكاناً لاقتراح أكثر تهويلاً، ذلك أن نوتكين باستخدامه لمهاراته مترافقة مع كلمات هدامة لغوية، فقد حقه في الإندماج في مجتمع اللغة. وأخيراً يبدو السنجاب الذي كان بالأمس ألمعياً بالكلمات والأحجيات، قادراً فقط على الصراخ: «كوك كوك كوك كررر. كوك ك ك» وبمعنى ما، يمكن أن ترى حكاية السنجاب نوتكين كنسخة معكوسة لحكاية هانز كريستيان أندرسون Hans Christian Anderson «ثياب الإمبراطور الجديدة»[٢٣] إذا أنها تستثير وعياً متماثلاً ما قبل لغوي وذلك كتجسيد لحالة من العزلة يقحم فيها الفرد إذا ما رفض هو أو هي استخدام اللغة الشكل الأساسي للإدراك، على أنها وسيلة للتعبير عن الإدراكات الثانوية الصحيحة للمجتمع.

يتعلم مورغان إيفانز البطل الويلزي

---

(٢١) Minnow نوع من الأسماك الفاخرة.

(٢٢) القراص نبات ذو وبر شائك.

(٢٣) The Emperors new clothes.

الشاب في مسرحية إيميلين ويليامزEmlyn Williams (القمح أخضر)[٢٤] درسه اللغوي بشكل جيد ويكافأ بمنحة إلى أوكسفورد. أما عرابته الجنية الآنسة موفات «فهي امرأة إنكليزية تنضج حيوية بوجه مطمئن وعينين جميلتين رائقتين»[٢٥] وتسكن قرية بعيدة في ويلز حتى يتسنى لها أن تفتح مدرسة.

يكتب إيفانز والذي تصفه الآنسة موفات «بفرسها الصغير»[٢٦]، مقالة تكشف عن موهبة متميزة في التعبير الشعري ويتم اختياره لنبوغه الفردي. هذا النبوع الذي تتحول مراحله المختلفة إلى رموز تثبت وجود المدرسة. يتم تصوير سيرورة تعليمه، التي تبدأ بالتعنيف ومن ثم ببعض القواعد اللغوية[٢٧]، علانية شأن سيرورة جمعنة. ففي الفصل الأول يظهر إيفانز قذرًا «وشرسًا»[٢٨]: وبعد مضي سنتين يتحول إلى «تلميذ خاضع»[٢٩] عندما ينحني مرتين أمام كبير المنطقة قائلاً:

«عذرًا يا سيدي.. مساء الخير يا سيدي» حتى أن الناس بدؤوا يظنون بأنه قريب الآنسة موفات[٣٠]. وفي الفصل الثالث تكون عملية التحول قد اكتملت تقريبًا، وبدا بأن إيفانز قادر على أن يمضي نصف ساعة في نقاش مع رئيس كلية أوكسفورد وهو«سيد عجوز عظيم يجلس في غرفة المكتب بحجم بناء بينلان تاون هال[٣١].

يتم وصف تأثير أوكسفورد على إيفانز ببوح من قبله هو في مشهد تقدمه الكلمات:

«لغته الإنكليزية تحسنت بشكل كبير، وبات يعبر عن نفسه بسهولة»[٣٢]. ويشرح هو ذلك:

«لقد ذهبت إلى أكسفورد وعدت..... لقد عدت-من العالم! منذ اليوم الذي خلقت فيه، كنت سجينًا خلف جدار حجري، أما الآن فقد ساعدوني كي أنظر إلى الناحية الأخرى.. (متحمسًا)..... لا يمكن لهم أن

(٢٤) Com is greenمثلت لأول مرة عام ١٩٣٨.
(٢٥) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٨.
(٢٦) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٥٦.
(٢٧) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٤-٣٠.
(٢٨) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٣٠.
(٢٩) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٤١.
(٣٠) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٥٢.
(٣١) ويليامز ١٩٨١ الصفحة Penlan Town Hall.
(٣٢) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٧٩.

يرجعوني إلى الخلف، لا يستطيعون، عليهم أن يدفعوني ويرسلوا بي إلى الأمام.»[٣٣].

إن العلاقة بين الحوار الويلزي والحوار الإنكليزي في المسرحية حوار معقد، وذلك لأن اللغتين تشتغلان بشكل أبعد من مجموعة شيفرات ملائمة تستخدم للإشارة إلى الفروق الاجتماعية. فعندما يعبر إيفانز عن امتنانه للآنسة موفات في نهاية المقطع، ينظر إلى الخلف إلى وضعه ما قبل التعليم ويزعم بأنه كان يعرف «مفردة من عشرين كلمة»[٣٤]. ربما بدا غريبًا أن معرفته للغة الويلزية قد تم تجاهلها لأن المقالة والتي لفتت الانتباه إلى ذكاء الخلاق كانت عبارة عن ترجمة ناقصة عن الويلزية. وفي واقع الأمر وخلال المسرحية تم توظيف اللغة الويلزية كرمز لوعي ما قبل فردي. لقد مثلت عالمًا فوضويًا غامضًا يمكن تنظيمه والسيطرة عليه فقط من خلال وسيلة اللغة الإنكليزية. فهي تظهر كلغة أغنية، و(بالنسبة للجمهور الإنكليزي) كتخاطب غير مفهوم لجماعة ما. عندما يتم عقاب إيفانز يعبر الصف عن استغرابه وذلك بانقسامه إلى «نزاع سريع في اللغة الويلزية» و«فوضى عارمة» هذا الاستغراب الذي تم التعبير عنه «بسيل من اللعنات الويلزية»[٣٥]. بعد ذلك وعندما يفقد إيفانز سيطرته على نفسه ويشرع في مقاومة سلطة الآنسة موفات، يتم وصف تخاطبه على أنه «وابل متصاعد من المذمات، تتحول إلى ويلزية أكثر كلما استمر فيها»[٣٦]. وعندما تسرع سارة إلى المدرسة في أحد الأيام مرتدية «ملابس فلاحية ويلزية تقليدية وقبعة كنسية» تشوش الإحساس بالاستقرار وذلك عندما تخاطب والدها باللغة الويلزية ولكن سرعان ما يلومها «توم المجوز» (مهتاجًا): «بالإنكليزية، ابنتي، نحن في الصف»[٣٧]. وفي اللحظة الحاسمة في المسرحية، يتم تهديد مهنة إيفانز من قبل بيسي واتي، وهي فتاة انكليزية تعمل والدتها لدى الآنسة موفات. وما يشكل دلالة، تبدأ بيسي في تعلم اللغة الويلزية عندما يتقن إيفانز لغته الإنكليزية. وفي مشهد الإغواء، تصور بيسي كمخلوق شبيهة بالسيرانة[٣٨] يستثير سحرها المهلك

(٣٣) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٨٠.
(٣٤) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٨١.
(٣٥) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ١٨.
(٣٦) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٨١.
(٣٧) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٧٥.
(٣٨) siren مخلوقات اسطورية عند الأغريق لها رؤوس نسوة وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك. المترجم.

الغموض والعاطفة السائبة لشعور إيفانز ما قبل الإنكليزي:

«تتجول صعوداً باتجاه المشربية وتشرع في الغناء باللغة الويلزية بصوت رائق ومبهج لدرجة تثير الدهشة كان اللحن هو "Iiw Cwyn rhosyny haf"[39]. يرفع إيفانز رأسه ويصغي مأخوذاً. تتكئ على إحدى حواف فجوة النافذة، وتتطلع باتجاه الشمس الآفلة؛ وينتهي صوتها بنعومة بمقطع موسيقي»[40].

تقدم بيسي عموماً على أنها شخص ماكر أحمق «من النوع الزقاقي»[41] وغير جديرة أبداً بمورغان إيفانز. لكن عندما تعود إلى القرية بطفل إيفانز، يصبح من الضروري أن تتبنى الآنسة موفات الطفل الوليد حتى لا يجبر مورغان من الزواج من بيسي وحتى يتسنى له البقاء في غلانسارنو «عبقري القرية الشمل الفظ»[42].

يرسل مورغان إلى أكسفورد، على أمل أن يصبح «رجل دولة عظيم» وتخبره الآنسة موفات أن «ليس هناك من سبب للعودة إلى غلانسارنو ثانية»[43]. إذا كانت بيسي فتاة ويلزية بسيطة، فإن التناقضات المحيطة بتطور الذات «الحقيقية» لمورغان إيفانز لايمكن أن تحل بمثل تلك البراعة المقنعة. وحتى لو كان الأمر كذلك، فإن الأدوار المنسوبة للغة الإنكليزية والويلزية في المسرحية تجبرها على أن تكشف بعض تناقضاتها حتى عندما تحاول إخفاء هذه التناقضات. والمثال على هذا يقدمه كبير القرية، الذي يفترض خطأ بأن التعليم الجماهيري يمكن أن يؤدي إلى الدمار:

«إنهم يهذرمون بتلك اللغة الغريبة المضحكة. فليبارك الله قلوبهم، إنها بلاد حرة! ولكن أن تجعلوهم يقرؤون الإنكليزية، تحولوهم إلى علاقات للأواني، وتزرعوا فيهم الأفكار، فلا - إذا تزايد البشر وباتوا على شاكلتكم، كما تعرفين، ستصبح انكلترة بلداً مرحاً وخطيراً ولا يمكن العيش فيه!»[44].

بدت الآنسة موفات فيما مضى بأنها كانت تؤيد تفسير كبير القرية، لكن وعندما أدركت أنه أفلح في منعها من الحصول على بناء للمدرسة، جابهته بسخط قائلة:

---

(٣٩) المقطع أساساً باللغة الويلزية. المترجم.
(٤٠) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٦٢.
(٤١) الآنسة موفات ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٤٦.
(٤٢) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٩٣-٩٤.
(٤٣) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٩٤.
(٤٤) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٢٧.

«يجب أن أشير بأن هناك الكثير من القذارة، والجهل والبؤس والسخط في العالم، والكثير من كل هذا يعود إلى أشخاص مثلك فأنت غبي مغرور وجشع ومشوش الذهن ومغفل ولا تصلح لشيء»[٤٥].

تظهر الآنسة موفات «خطرة» لأن الأزمة التي عجل بها كبير القرية جعلها تتحول إلى دعاية الإهاجة والتي عقلنت بها البورجوازية استبدالها للأرستقراطية كطبقة متسيدة. إن هجومها على طبقة الملاك، واقتراحها بأن مورغان إيفانز يجب أن يحمي ويحرس من قبل أناس يشبهونها، يحول الانتباه عن العلاقة الاستغلالية القائمة بين العمال والطبقة التي تنتمي إليها. إن دورها كعامل في سيرورة الجمعنة لصالح هذه الطبقة متناقض. على أية حال، تخون الآنسة موفات إدراكها أن تعليم مورغان إيفانز قد صمم للحد من تفكيره أكثر مما صمم لتحريره.

غارقة في آمال المنحة الدراسية، تصرح أن: «ذلك يعتمد على مقدار تقدير الممتحنين للذكاء الفطري العالي» ولكن ومن جهة أخرى تصرح أنه» إذا ما اختبر نفسه، ولم يبدأ بإخبارهم ما يجب أن تكون نظرتهم إلى ميلتون[٤٦]، عندها فقط ربما يمنحه الحظ الجيد، الأمل»[٤٧] لقد تعلم إيفانز «أن يختبر نفسه» كما سوف نسمع فيما بعد من تقريره هو عن الإمتحان:

«بارنيل.. نعم-كنت سأدافع عن ذلك العجوز، لكن وعندما بدءوا بذلك الرجل بارنيل حكيت حكاية ضده لنصف ساعة، فأنا لم أولد وبلزيًا لأجل لا شيء»[٤٨]. ولكن ربما لم يكن الأمر كذلك.

المراجع باللغة الإنكليزية

1- Kramnic, Issac "Children literature and Bourgeois ideology: observations on cultutre and industrial capitalism in later eighteenth century, in Perez Zagorin (ed), culture and politics from puritanism to the Enlightenment (Berkelely, Calif), 203-40.

2- Williams, Emlyn (1981) The corn is green (London, first performed 1938).

(٤٥) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٢٧.

(٤٦) Milton الشاعر الإنكليزي المشهور.

(٤٧) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٦٥.

(٤٨) ويليامز ١٩٨١ الصفحة ٧٩.

الإبــداع

من مآثر «الأسد» الخالد

شعر : محمد منذر لطفي(*)

إلى بطل «حرب تشرين».. وصانع «الحركة التصحيحية» المغفور له.. القائد الخالد «حافظ الأسد».

-١-

لكَ العُلا.. وليَ الشعرُ الذي اتَّقَدا

يا قائداً.. صَدَقَ الأمجادَ ما وَعَدا

يا فارسَاً.. زحم الجُلَّى.وروَّعَها

قولاً.. وفعلاً.. وكان البحرَ إنْ رَفَدا

أكبرتُ فيكَ خطابًا[1]..أنتَ قائلُهُ

يوم الوغى.. وسلاحُ البغي قد حُشِدا

(*) محمد منذر لطفي: أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر.

الحُسْنَيانِ.. وما أشهى لقاؤهُما..!
نصرٌ من اللّه..أو نعمى من الشُّهَدا
«أبا الباسلِ» .هاتِ الفتحَ أروَعَهُ
وسلسلِ العزُّ أكوابًا.. لمن وَرَدا
أتيتُ أرشُفُ خمرَ الثائرين هُدى
واقطفُ المجدَ من كرم الصمود فِدى
أتيتُ.. يَحملُني شوقٌ.. وأُغنيةٌ
وخافقٌ.. يعشقُ الإقدامَ .. والغَيَدا
حملتُ في شعريَ «العاصي» وموسمَهُ
لِجَنَّةٍ.. عاش فيها السحرُ مُنْفَرِدا
يا «لاذقيَّةُ».. يا مهدَ الجمال.. ويا
ملاعبَ المجد والتاريخ.. مُذْ وُجِدا
يا موسمَ الزهر.. لونًا آسرًا.. وشذًا
يا طلعةَ البدر.. ضوءًا غامرًا .. وندى
هذي عطاياكِ بحرٌ.. لا نَفادَ لهُ
هذي مغانيكِ حُسْنٌ.. ادهشَ الحَسَدا
هذي مياهكِ.. أهدت «جول»(٢) فارسها
هذا ترابكِ.. أهدى القائدَ «الأسدا»
هذي «أغاريتُ» وجهٌ مُشرقٌ أبدًا
وللحضارات وجهٌ مُشرقٌ أبدا
أتيتُ من بلدٍ شادٍ.. وأطلَعَني
نهرٌ.. تفرَّدَ حُسنًا.. وانتشى صَيَدا

نهـــرٌ.. كـــريمٌ.. عطاءُ الحـــسن.. خَلَّدَهُ
وأروعُ الحـــسن.. مـــا أعطى... ومـــا خَلدا
وافـــيتُ أحـــملُ من «عـــاصي حـــماةَ» هوى
أندى من الروض عطرًا.. والصِّـــبـــا مَلَدا
مـــلاعبُ الســـحـــر.. لو «هاروتُ» باكَـــرَها
يومًـــا.. لَصَلَّى على الأعـــتـــاب.. أو سَـــجَـــدا
جـــاءتْ تُصـــافحُ في ودٍ شـــقـــيـــقـــتَـــهـــا
حـــتى تُصـــافحَ يومًـــا مُـــشـــرقًـــا.. وغَـــدًا
خُـــطْنا «الجـــلاءَ» بشـــعبٍ.. عـــاشَ مُـــتَّـــحِـــداً
وســـوف يبـــقى - على الأيام - مُـــتَّـــحِـــدا

- ٢ -

قـــالوا أتى اليـــوم «تشـــرينٌ» بموكـــبـــه
فَـــقلتُ: «تشـــرينُ» أضـــحى عـــيـــدَنا الفـــرِدا
مـــاذا أُحـــدِّثُ عن تشـــرينَ يا وطني..؟
الغـــارُ والنورُ في أعـــلامـــه انْعَـــقَـــدا
أكـــبـــرتُهُ.. وبنفـــســـي لو أُقَـــبِّلُهُ
ورحتُ أُلبِسُ من أمـــجـــاده بُـــرَدا
«السَّـــدُّ» بعضُ عطاياهُ.. وأجـــمَـــلُهُ
أنْ يورقَ الخـــصبُ في صـــحـــرائنا أبدا
«والعـــلْمُ» بعضُ عطاياهُ.. وأروعُـــــــهُ
أنْ تَهـــزمَ الشُّـــهُبُ الليلَ الذي احـــتَـــشَـــدا

«والفِكْرُ» بعضُ عطاياهُ.. وأصدَقُهُ
أنَّ الحضارةَ بنتُ الفكر.. ماوُجِدا
«والنصرُ» بعضُ عطاياهُ.. التي غَمرتْ
«شامَ» الصُّمود.. فكان العزُّ والرَّغَدا
يومَ التقى في الضحى الجيشان والتَّهبتْ
ساحاتُنا.. فَمَحَوْنا الليلَ.. والعُدَدا
بالأمس قد زرعَ العُدوانَ في وطني
واليومَ.. غيرَ الهوان المُرّ ماحَصَدا
كُنَّا من الموج أعتاهُ.. وأقدَرَهُ
بأسًا.. وكانوا بساحاتِ الوغى زَبَدا
الدهرُ يومان.. يومٌ عابسٌ حَرِدٌ
ويومُ عزٍّ.. أضاءَ الكونَ.. والأبَدا

- ٣ -

«تِشرينُ» أيقظتَ فينا ذكرياتِ عُلا
عاشتْ - على الدهر- نِبراسًا ومُعتَقَدا
انتَ الذي رَدَّ للساحاتِ هَيْبَتَها
أنتَ الذي منحَ الجُلّى يَدًا.. ويَدا
أنتَ الذي عَطَّرَتْ أنفاسُهُ «بَرَدى»
وسَلْسَلَتْ للضِّفاف الخمرَ.. والشَّهَدا
كُنْتَ الرَّبيعَيْنِ.. «تَصحيحًا» نُباركُهُ
على المدى.. و«صُمودًا» نَوَّرَ البَلَدا

أطْلَعْتَ - رُغم الليـــالي - قـــائدًا.. بطلاً

صـــانَ العــرينَ.. فكان «الحــافظَ الأسَــدا»

- ٤ -

«تشــرينُ».. يا فـــارسًـــا.. هامَ الصّــدامُ به

أسْــرِجْ خُـيــولَكَ.. فـالإقــدامُ مــا نَفِــدا

لا يُرجِعُ «القُـــدسَ» إلا السَّـــاحُ يا وطني

فـــهـــاتِه فِكَرًا ثوريَّةً.. جُــــدُدا

وهاتِه من سنى «تشـــرينَ» ملحـــمـــةً

وجَــرِّدِ الماضِــيَ يَــنْ.. السـيفَ.. والعَــضُــدا

وهاتِه مـــاردًا عـــمـــلاقَ.. يُخــرجُــهُ

من قُـــمْــقم الوهم جــيشٌ.. لا يَهــابُ عِــدا

جـــيشٌ.. تَألَّقَ في الظلمـــاءِ كـــوكــبــةً

فكان ســيــفًــا على الغـــازي.. وكـــان ردى

في «الطُّورِ» في «جـــبل الشَّـــيخ» الأشَمّ.. وفي

«الجَـــولانِ».. في كل أرض قَـــدَّمَ الشُّـــهَـــدا

مـــضى ليـــركُـــزَ فـــوق النجم رايتَـــهُ

وراح يَقـطـفُ وجــــهَ الشــــمس.. والرَّأدا

هَتــفتُ للجـــيش.. يُعلي صَـــرْحَ أمـــتنا

ويهــــزمُ الليـلَ، يَذرو حُـلْمَـــــهُ بِدَدا

هتــفتُ للجـــيش إعــصــارًا وصــاعـقــةً

يُزلزلُ «اللاتَ»، «العُـــزَّى» ومن عَـــبَـــدا

هتفتُ للوحدة الكُبرى تُجمّعُنا
يُعانِقُ «النّيلُ» في أعراسها «بَردى»

- ٥ -

«تشرينُ».. يا مَشعلَ النصر الذي عَقَدَتْ
له السماءُ لواءً.. والثُّرى عَقَدا
جَرِّدْ حُسامَكَ.. يُرْدِ البغيَ ثانيةً
أطلِقْ شهابَكَ.. يَمْحُ الماردَ الرَّصَدا
فلا يُخيفكَ «بقدس» العُرْبِ مُغتصِبٌ
ولا يُرَوِّعكَ ما أخفى.. وما حَشَدا
فهذه «ثورةُ الأحجار» شاهدةٌ
أنَّ «الطفولةَ» أمضى هِمَّةً.. ويَدا
لا يُرجِعُ «القُدسَ» إلا فارسٌ.. بطلٌ
حُرٌّ.. يُعيدُ لنا «الأقصى» منارَ هُدى

- ٦ -

يا أيُّها «الرَّاحلُ» المنصورُ.. عاوَدَني
شوقٌ إلى السّاحِ.. بُرْكاناهُ ما خَمَدا
أنْشدتُ في مجد «تشرينِكَ» مُرْقِصةً
فكُنْتُ في الحَلَباتِ الشاعرَ الغَرِدا
وَدَّعْتَنا الأمسَ - يا بدرَ الحمى - عَجِلاً
وقد عهدناكَ - إمَّا أظلَمَتْ - رَشَدا

إنْ غـبتَ عنا .. فـمـا غـابَ النضـال.. ولا
خَـفَّتْ مـوازينُهُ.. أسـتـغـفـرُ «الصَّـمـدا»
إنا نُريدُ سـلامًـا.. يَحـفظُ البَلَدا
ولا نُريدُ سـلامًـا.. يورثُ النَّكَدا
فَنحنُ أكـرمُ شـعبٍ.. ضَـمَّـهُ وطنٌ
شـعبٌ.. لغـيـر الإلـه الحَقِّ مـا سَـجَـدا
شـعبٌ.. تَمـخَّضَ في الظّلمـاء عن بَطَلٍ
حُـرٍّ.. وأطْلَعَ «بشَّـارَ» «العُـلا» أسَـدا»

- ٧ -

يا أيهـا «الأسـد الثـاني» .. الذي نَهَـدَتْ
لهُ نجـومُ العُـلا.. والبـدر قـد نَهَـدا
مـلأتَ بالعِلم أرضَ«الشـام» مـعـرفـةً
فـغـابَ عنهـا الدُّجى.. وازيَّنتْ بُرُدا
أعِـدْ لأُمـتكَ الوجـهَ الذي ابتَـعـدا
أعِـدْ لهـا «القـدسَ» و «الجـولانَ» والرَّغَـدا
فـأنتَ من يصنعُ التـاريخ في وطني
وأنتَ من يرفعُ الأمـجـادَ.. مُنْفَـرِدا
مَـدَّتْ لكَ «الشـامُ» أيديهـا مُـبـايعـةً
فكنتـمـا خـيـرَ من في حُـبِّـهِ اتَّحَـدا

❖ ❖ ❖

شَرُفَتْ بِكَ الدُّنيا

شعر : فيصل علي صقر (*)

« في ذكرى رحيل القائد الخالد
الرئيس حافظ الأسد »

ماذا يَقُولُ بِفَقْدِكَ الشُّعَراءُ ؟!
يا قائداً.. باهَى بِكَ الفُصَحاءُ
يا أيُّها الأسَدُ الذي أرضى العُلا
مَجْداً.. فَتاهَتْ عِنْدَهُ الخُيَلاءُ
شَرُفَتْ بِكَ الدُّنيا، فأشْرَقَ عَصْرُنا
وبِطِيْبِ نَفْحِكَ تَزْهِرُ الجَوْزاءُ

(*) فيصل علي صقر: أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر.

غادرْتَنا.. مِنْ بَعْدِ سِفْرِ مَكارِمٍ
شَعَّتْ بِهَا الأكْوانُ وَالأمْداءُ

أحْرَزْتَ أمجادًا، وَحُزْتَ فَضائِلاً
لا الشِّعْرُ أدْرَكَها.. وَلا الشُّعَراءُ

قَدَرُ العُرُوبَةِ أنْ تَغَيَّبَ «حَافِظٌ»
فَبَكَتْهُ هذي الأمَّةُ العَرْبَاءُ

«قَسْيُونُ» جَلَّلَهُ السَّوادُ وَجلَّقٌ
ثَكْلى تَنُوحُ.. كَذلِكَ الشَّهْباءُ

«لُبنانُ» يا رَمْزَ البُطولَةِ وَالفِدَا
فَجِراحُ «قانا» ثَوْرَةٌ حَمْراءُ

لُبنانُ أوْفى بِالمَوَدَّةِ وَالهَوَى
فَالأرْزُ حُبٌّ خالِصٌ وَوَفاءُ

يا أيُّها المِقْدَامُ والفَذُّ الَّذِي
دَانَتْ لَهُ الحُكَّامُ وَالأمَراءُ

قُدْتَ السَّفِينَةَ لِلسَّلامِ بِحِكْمَةٍ
غَرَّاءَ.. فَانْبَهَرَتْ بِهَا الحُكَماءُ

أسَدُ الزَّمانِ.. وَعَبْقَرِيٌّ سِيَاسَةٍ
في العَالَمِينَ.. فَما لَهُ نُظَراءُ

بَطَلُ التَّشارِينِ الَّتي مِنْ وَحْيِها
يَزْهو الزَّمانُ، وتُخْصِبُ البَيْداءُ

بَطَلٌ تُقاسُ بِأَلْفِ أَلْفِ مُناضِلٍ
وَكَذا تُقاسُ النُّخْبَةُ العُظَماءُ

كُنْتَ الأمينَ على قَضِيَّةِ شَعْبِنا
نِعْمَ الأمينُ القائِدُ المِعْطاءُ!

خَلَّفْتَ لِلتّاريخِ فَيْضَ مَآثِرٍ
ضاقَتْ بِها الأَنْحاءُ وَالأَرْجاءُ

ما ماتَ مَنْ زَفَّ الحَياةَ مَكارِمًا
فَلأَنْتَ حَيٌّ.. والخُلودُ بَقاءُ

❖ ❖ ❖

يَالِلشَّهادَةِ كَمْ رَفَعْتَ صُروحَها!
فَتَقَدَّسَتْ بِظِلالِها الشُّهَداءُ

قَدَرٌ يَقُلُّكَ لِلسَّماءِ بِلَحْظَةٍ
فَوقَ البُراقِ.. كَأَنَّهُ الإسْراءُ

ذِكْراكَ في سِفْرِ الخُلودِ قَصيدَةٌ
يَحْلُو بِها الإِصْباحُ والإِمْساءُ

ذِكْراكَ ما طَلَعَ الصَّباحُ وَأَشْرَقَتْ
شَمْسُ الحَياةِ، وَغَرَّدَتْ وَرْقاءُ

«بَشَّارُ» يا فَرَحَ المَواسِمِ أقْبَلَتْ
فَدنَا القِطَافُ لَنَا، وَطَابَ جَنَاءُ

في نُورِ وَجْهِكَ رَوْعَةٌ وَبَهَاءُ
هَلْ غَيْرُ وَجْهِكَ فَجْرُنا الوضَّاءُ؟!

«بَشَّارُ» يَقْظَةُ نَخْوةٍ عَرَبِيَّةٍ
فكْرٌ يَشِعُّ، وَهِمَّةٌ شَمَّاءُ

شِبْلٌ تَرَعْرَعَ في العَرِينِ كَمَا اشْتَهى
أسَدُ العَرِينِ، وَشَاءَتِ الآباءُ

غَذَّاهُ مِنْ لَبَنِ الأُسُودِ شَجَاعَةً
فَزَكَتْ، وَطَابَ حَلِيبُهَا الأصَلاءُ

أجْمِلْ بِهِ!.. يَجْلُو مَلامِحَ وَالِدٍ
تَسْمُو بِهِ الأخْلاقُ وَالآلاءُ

يُضْفِي على صَدْرِ العَرِينِ سَكِينَةً
هِيَ لِلْعَرِينِ تَجَلُّدٌ وَعَزَاءُ

مَنْ مِشْعَلُ الآمَالِ في أحْلامِنا؟!
مَنْ للشَّبَابِ رِسَالَةٌ سَمْحَاءُ؟!

مَنْ لِلضَّمِيرِ الحُرِّ صَوْتُ عَدَالةٍ
مَنْ لِلْمَكارِمِ دَفْقَةٌ وَسَخَاءُ؟!

«بشّارُ» يا أملَ الحياةِ ووعدَها
فالعينُ أفقٌ والرؤى بيضاءُ
وجهٌ لطيفٌ مِنْ تباشيرِ العُلا
هِبَةُ السماءِ.. وِلادةٌ زهراءُ
فرعٌ تسلسلَ عن أصولِ أبوّةٍ
كرُمَتْ بطيبِ فُروعِها الكُرَماءُ
الشعبُ يهتِفُ باسمِهِ.. وبفعلِهِ..
تزهو البلادُ، وتُورِقُ الفيحاءُ
يا بْنَ الأماجدِ من عرينِ قيادةٍ
تزكو.. ويحسُدُ نُبْلَها النُّبلاءُ
أظهرتَ في كُلِّ العلومِ تألُّقاً
فتعطّرَتْ بنُبوغِكَ الأرجاءُ
أنتَ الأمينُ على مسيرةِ قائدٍ
عهداً لِحافظَ: إنّنا الأُمَناءُ
لبّيكَ، يا شِبلَ العرينِ فكُلُّنا
جُندُ الفقيدِ.. وكلُّنا أبناءُ
يا مَنْ تصدّى للفسادِ بحملةٍ
مُضَرِيّةٍ.. فإذا الفسادُ هَباءُ

أمُقَلِّبَ الماضي بِريشَةِ مُبْدِعٍ

وَمُبَرْمِجَ الآتي.. فَيَشْفى الداءُ

بِالأمسِ بِإيعْناكَ أفضَلَ قائِدٍ

لِلشَّعْبِ، وَالبَعْثِ العَظيم سَواءُ

أنْتَ الطَّبيبُ، وَأنْتَ بَلْسَمُ جُرْحِنا

وَلِكُلِّ جُرْحٍ بَلْسَمٌ وَدَواءُ

* * *

متابعات

نافذة على الوطن العربي

أحمد الحسين(*)

◆ آفاق الترجمة في عصر العولمة:[1]

تعتبر العولمة كما يرى الباحث حفناوي بعلي دعوة إلى المزيد من الانفتاح والتحرر داخلياً، وتبني نظام السوق داخل الدولة، وفي معاملتها مع الدول الأخرى، وهي بالتالي تعني مزيداً من التحكم الرأسمالي الذي شهد انتصارات عدة على مستوى العالم، جعل فوكوياما يزعم أن التاريخ انتهى، لأن التاريخ كان دائمًا صراعًا بين قوتين أو مذهبين،والآن ومن وجهة نظره دانت السيادة للنظام الرأسمالي الإمبريالي، وقد أصبحت العولمة الموضوع الرئيسي الذي يشغل بال الهيئات الدولية، بحيث يمكن القول، هناك عولمات عديدة وليست عولمة واحدة، كالقول، بعولمة المعلومات والأوبئة، والبيئة والمال، والأعمال والاقتصاد، وغيرها من الميادين والمجالات الأخرى.

* أحمد الحسين : باحث من سورية . ينشر في الدوريات المحلية والعربية .

وبين الباحث أن الخريطة اللغوية الراهنة للعالم تعطينا ثلاث حقائق مهمة تشير الحقيقة الأولى منها إلى اجتياح الثقافة الأمريكية للعالم المعاصر بما في ذلك أوروبة، وفق إطار عام توحده ثقافيًا الصور والرسائل الأمريكية التي تذاع وتنتشر عبر الأقمار الصناعية، وسائر وسائل الإعلام السمعية والبصرية، أما الحقيقة الثانية فتشير إلى التنافس بين الثقافتين الأنكلو- أمريكية والثقافة الفرنسية للسيطرة ومد النفوذ على العالم من جهة، والدفاع عن الخصوصية الثقافية في مواجهة البرامج والمسلسلات الناطقة بالإنكليزية من جهة ثانية، أما الحقيقة الثالثة فتشير إلى أن القضايا الثقافية أصبحت بالتدرج مجالاً للنقاش والحسم في إطار المنظمة العالمية للتجارة، وليس ضمن منظمة اليونسكو، وقد نتج عن ذلك ما يسمى بإعلان «ماكبر أيد» عن النظام العالمي الجديد للمعلومات والاتصالات، ورغم أن شعارات هذا الإعلان تدعو إلى تشكل الثقافة العالمية على أسس التعددية الثقافية إلا أن النظام الحالي يمارس نقيض ذلك عبر الهيمنة والاستعلاء الثقافي، وخاصة من جانب الثقافة الأمريكية التي تقوم بنفي وتهميش الثقافات الأخرى وطردها من الأسواق العالمية، وبمعنى آخر إقصاء مساهمات الشعوب الثقافية وتحويلها، أي تلك الشعوب إلى قطيع مستهلك للثقافة الأمريكية، وبهذا أصبحت الثقافة جزءًا من العملية الاقتصادية التجارية الجديدة، وأصبحت قابلة للتداول على نطاق واسع في السوق العالمية، وتخضع للأحكام والإجراءات المفروضة على سواها من السلع المادية الأخرى.

ومما ساعد على هذا التفوق امتلاك القوة المسيطرة لتكنولوجيا الاتصالات، وصناعة المعلومات وتشكيل العقول، وأنماط التفكير والسلوك، ووفق هذا المنحى أصبح التبادل الثقافي العالمي الجاري حاليًا، تبادلاً سلبيًا يسير في ركاب التجارة الحرة، وهو بلا شك تبادل غير متكافئ بين ثقافات مسلحة بتكنولوجيا الاتصالات والمعلوماتية، وأخرى مجردة منها مما يحول دون إمكانية التفاعل المتوازن بين الثقافات والشعوب والمجتمعات، ومن هنا يبرز الوجه الحقيقي لما يسمى ثقافة العولمة التي لا تعني في جوهرها سوى سيطرة الثقافة الأمريكية على وجه الخصوص على سائر الثقافات، حيث يتجلى ذلك من خلال: هيمنة شركات الإعلام الأمريكية على التسويق العالمي، مما ساعد على قولبة الأذواق والأزياء وصبغها بالطابع الأمريكي والحياة الأمريكية، سواء في مجال الموسيقى والمسلسلات والأفلام، والوجبات السريعة وملابس الجينز والكوكا كولا، وسائر السلع الاستهلاكية الأمريكية.

وقد ساعد على ترويج ذلك انتشار البث التلفزيوني والقنوات الفضائية عبر الأقمار الصناعية، رغم أن ما تصدره الولايات

المتحدة إلى الأسواق الخارجية يعد أردأ ما تنتجه ثقافيًا، وذلك لضمان تحقيق الأرباح الهائلة من تصدير المواد الإعلامية التي تحظى بالرواج الاقتصادي، وبهذا يبدو مشهد العولمة في وجهه الأنكلو- أمريكي كفعل عنف ثقافي وهجمة قوية على الثقافات القومية والوطنية، وكأننا نشهد حربًا ثقافية صامتة بين ثقافات غير متكافئة.

❖ الترجمة في المحافل الدولية:

وسواء كانت العولمة وفاقًا أم صراعًا فإن للغة في كلتا الحالتين شأنًا خطيرًا،لاسيما عندما ينظر إلى العولمة كصراع يجب أن يفضي بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافة ما، ورواج قيمها الخاصة، وتهميش اللغات والثقافات الأخرى، واحتوائها واستيعابها اقتصاديًا وثقافيًا، ويترتب على ذلك أنها ستحتوي الترجمة بدورها، والتي ستكون ترجمة من اللغة المهيمنة إلى بقية اللغات الأخرى، وليس العكس، مما دفع إلى ظهور نشاطات متزايدة لإحياء التحالفات اللغوية مثل الأنكلوفية والفرانكفونية والإسبانوفية بوصفها روابط يمكن أن تعطي القوة لثقافة ما، وتسمح بمواجهة لغات وثقافات أخرى، أو تحد من تأثيرها في إطار عملية من التوازن والدفاع عن الخصوصية القومية والمحلية.

ولقد كرس الغرب دلالة واسعة للترجمة عبر ما يسميه بالعالمية، بوصفها سمة يطلقها على ما يصدر عنه أو يصل إليه، ويلاحظ مدى الانحياز الواضح في تحديد ماهو عالمي،لما يصدر عن الغرب من آداب، قياسًا بما يصدر عن ثقافات الشرق وآسيا وأفريقيا، مما يثير مشكلة ثقافية حقيقة تعكس طبيعة العلاقات المتبادلة بين الشرق والغرب من جهة، وبين الثقافة الأنكلو- أمريكية، وثقافات العالم من جهة ثانية، في ظل ترسيخ تصورات غير مبررة تؤكد هيمنة الغرب، وسيطرة المركزية الغربية.

وهنا لابد من العمل على صعيد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بصفتها الجهة المؤهلة للعناية بحركة الترجمة، والاهتمام بقضاياها على صعيد التنسيق والتخطيط على المستوى القومي، وهو بالفعل ما عملت المنظمة منذ نشأتها على القيام به في إطار خطة قومية للترجمة، ترسم الخطوط الرئيسية لحركة الترجمة وجعلها حركة فاعلة إيجابية بناءة، تغني الثقافة العربية المعاصرة، وقد تمثلت اهتماماتها بعدة نواح من بينها:

❖ الدعوة إلى عقد حلقة للترجمة في الوطن العربي في أكثر من لقاء عربي نوقشت خلالها قضايا الترجمة في عدد من المؤتمرات، ووضعت برنامجًا عربيًا على صعيد نطاق عملها لترجمة أبرز الكتب الأجنبية في مختلف العلوم والمعارف، مما يسهم في تعريب التعليم، وتشجيع التأليف

باللغة العربية.

❖ الاهتمام الشديد بأمور الترجمة، والتركيز على الترجمة الآلية من اللغات الأجنبية إلى العربية، دون إغفال الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية، لضمان نشر الثقافة العربية والإسلامية.

❖ التوسع في الدراسات اللغوية والترجمة المقارنة والتقابلية، لاسيما أن اللغة العربية تتسم بخاصية التوازن والتوسط بين اللغات العالمية، ويمكن الاستعانة في ذلك بالدراسات العديدة المصاحبة لظاهرة العولمة فيما يخص المشهد اللغوي العالمي.

وفي نهاية مقالته يرى المؤلف أن الترجمات التي حفل بها الأدب العربي المعاصر عن الروائع العالمية تعد مظهرًا من مظاهر العولمة، كما يرى أن مشاريع الترجمة تجسدت في عمل هيئات ومجالس مثل: المجلس الوطني للثقافة والفنون في الكويت، والهيئة المصرية العامة للكتاب، ولجنة الترجمة للمجلس الأعلى للثقافة، والمؤسسة العربية للترجمة ببيروت، ثم يستعرض بشكل سريع مجالات الترجمة وميادينها والموضوعات التي استأثرت باهتمام المترجمين العرب منذ الخمسينات والستينات في القرن الماضي، ويورد قائمة بأشهر الأسماء التي ترجمت إلى العربية في الفلسفة والفكر والرواية والشعر والقصة.

ثم يختتم مقالته بالقول: إن الترجمة دخلت العولمة شأنها في ذلك شأن الاقتصاد والسياسة والتجارة والإعلام، حسب ما آلت إليه المعالجات الترجمية لمشكلة العلاقات الدولية واللغوية والأدبية والثقافية، والتداخل الحضاري بين الشعوب والأمم، وتعايش الهويات عبر المحافل الدولية، وانتهاء بالمؤتمرات والهيئات الدولية التي جمعت بين مئات الألسن بلحمة الترجمة، وحققت التواصل فيما بين ثقافاتها وكل ذلك بفضل الترجمة، والترجمة فقط.

ولعل مما يصب في هذا المنحى الإشارة إلى ندوة «الترجمة سبيل المثاقفة والرقي الثقافي» التي انعقدت بدمشق في أواخر كانون الثاني عام ٢٠٠٣، والتي أقيمت بالتعاون بين اتحاد المترجمين العرب ووزارة الثقافة السورية وبدعم منها.

حيث نشير إلى التوصيات التي انتهت إليها الندوة استنادًا إلى ما قدم فيها من بحوث، ومداخلات ومناقشات، وهي تكمل وتغني ما دعا إليها الباحث حفناوي بعلي، من خلال التوصيات التي تدعو الحكومات والمؤسسات العربية إلى:

- الاهتمام بالترجمة بوصفها سبيلا إلى إعداد الإنسان العربي لمواكبة تطورات العصر، وزيادة معرفته العامة وخبرته في مجال اختصاصه وعمله.

- وضع خطط للترجمة تتكامل مع

الخطط القومية التي وصفتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٩٥، ودعوة المنظمة العربية إلى تحديث خططها كل عشر سنوات.

- إصدار التشريعات الناظمة لأمور الترجمة بكل أصنافها الكتابية والشفهية، وبكل ميادينها: ترجمة الكتب والمراجع، والترجمة القضائية والإدارية والإعلامية والاقتصادية، وإصدار قوانين حماية حقوق المؤلف والمترجم، وقانون الإيداع القانوني، ورفع أجور الترجمة ومكافآتها.

- تعريب جميع مجالات النشاط الفكري والاجتماعي، ولاسيما تعريب التدريس في كل مراحله، وبالأخص تدريس العلوم في المعاهد والجامعات، والاهتمام بتعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية في مراحل التعليم الأول.

- زيادة نشاطات التعاون فيما بينها على صعيد زيادة عدد الكتب المترجمة، ورفع مستواها اللغوي، وحسن اختيار الكتب المراد ترجمتها.

- الاهتمام بترجمة روائع الفكر العربي قديمه وحديثه إلى اللغات الحية واسعة الانتشار تدعيمًا للمثاقفة المتبادلة، وإظهارًا لدور العرب في الماضي والحاضر في إثراء الثقافة، ورفد الحضارة الإنسانية.

- الاهتمام بالبحوث النظرية والعلمية المتصلة بتطوير المعالجة الحاسوبية للغة العربية وباللسانيات المقارنة، والاهتمام بتطوير الترجمة الآلية.

- الاستفادة في الترجمة من المصطلحات التي تقرها مجامع اللغة العربية في الوطن العربي، ومن المعجمات الموحدة التي تقرها المؤتمرات التي يعقدها مكتب تنسيق التعريب بالرباط.

- دعوة المترجمين إلى التجمع في جمعيات أو روابط وفق التشريعات القانونية وتوسيع قاعدة الانتساب إلى اتحاد المترجمين العرب بما يعزز دوره ومكانته.

- تخصيص يوم ٣٠ من شهر كانون الثاني من كل عام، وهو يوم تأسيس اتحاد المترجمين العرب، يومًا للاحتفال بيوم المترجم العربي.

• استراتيجية قومية للتعاون العربي في مجال التعليم العالي:(٢)

يملي التقدم العلمي والتطور التكنولوجي الذي يشهده العالم اليوم على الدول والشعوب واجبات وتحديات كبيرة تدفعها إلى المبادرة في سد الفجوة التكنولوجية، بما يؤدي إلى تحقيق اكتفائها الذاتي من جهة وتطوير أساليب التعليم من جهة ثانية مسايرة لروح العصر، الذي صار العلم والتكنولوجيا يشكلان الركيزة الأساسية وعصب الحياة العصرية، ومعيار تقدم الشعوب والأمم.

ومن هذا المنطلق لم تعد النظرة إلى

الجامعة تقتصر على كونها مؤسسة تعليمية تربوية، ذات نشاطات أكاديمية محصورة في إطارها، بل أصبحت تسهم بشكل فعال في عملية البناء والتنمية، ونقل المجتمعات من التخلف والتبعية الفكرية إلى مرحلة النهوض والاستقلال، والقيام بأدوار أخرى عن طريق كوادرها وقياداتها الإدارية والعلمية، بما يرفد المجتمع بالكفاءات والخبرات والكوادر الفنية المؤهلة علمياً للمساهمة في حركة التنمية والتحديث.

وقد أصبحت الجامعات ملزمة بوضع الاستراتيجيات المستقبلية التي تستجيب لمتطلبات المجتمع الأساسية والمتطورة، ولا سيما المتطلبات التي تفرضها قضايا البحث والتكنولوجيا، وإذا كان تحقيق ذلك على مستوى الدولة الواحدة مطلوباً، فإن التعاون العربي في مجال التعليم العلمي والجامعي لا يمكن أن تؤسس أركانه الأساسية، وتتوطد مساراته العلمية والأكاديمية من خلال دولة واحدة، وإنما يتطلب ذلك تضافر جهود الأمة العربية كلها بوحداتها السياسية وتنظيماتها الفرعية الموظفة للكم الهائل من الإمكانيات المادية والبشرية تحت إطار جامعتها العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مستفيدة من خبرات اتحاد مجالس البحث العلمي العربي واتحاد الجامعات العربية، وبالتعاون مع اليونسكو والهيئات الدولية الأخرى.

وهكذا فالدول العربية مطالبة بوضع استراتيجية جديدة في مجال التعليم العالي والجامعي تلبي طموحات الإنسان العربي في التنمية البشرية، وتشكل في جوهرها مرتكزات أساسية للدخول في عالم العصر، وتجاوز المفاهيم والأساليب التي جعلت التعليم العربي يقف في نهاية سلم التطوير التعليمي في العالم، وتجاوز النظرات الإقليمية والقيود الإيديولوجية والفكرية والنزاعات السياسية والحدودية التي أفرزت حواجز ومعوقات ووسعت الفجوات بين الأقطار العربية.

وهكذا فإن دراسة الباحث ناظم عبد الواحد الجاسور تهدف إلى إطلاق الحوار القومي الجاد البناء، الذي يمكن أن يفضي بأفكاره ومناقشاته إلى وضع الأسس، وبناء الأرضية التي من شأنها تشييد صرح علمي يحقق بعض طموحات الأمة وتطلعات أبنائها، وذلك من خلال مناقشة الجوانب التي تقتضيها هذه الفكرة، وتتمثل في النقاط المحددة التالية: أولوية الحريات الأكاديمية، أسس استراتيجية العمل القومي، تأسيس الجامعة القومية، توحيد المناهج والاختصاصات، إيجاد سياسة قومية عربية للبحث العلمي.

في البداية يؤكد الجاسور أن أية خطوة فعالة على صعيد إصلاح التعليم العالي والجامعي لا يمكن أن تحقق غايتها، إلا إذا توفرت للجامعات الحرية الأكاديمية، وما تتطلبه على مستوى البحث، والنقاش والتطبيق العلمي، وذلك دون التدخلات

السياسية المحلية أو العربية في شؤونها، لأن الحرية الأكاديمية عدا عن كونها حقًا من حقوق الإنسان «تعني حرية أعضاء المجتمع الأكاديمي فرديًا أو اجتماعيًا في متابعة المعرفة والتدريس وإلقاء المحاضرات والكتابة».

وقد أكد تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٧ الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي أن أكثر المجتمعات احترافًا للحريات هي أكثرها تقدمًا وتحضرًا واستقرارًا، وفي ضوء ذلك فإن الحرية الأكاديمية أصبحت ضرورة مطلوبة إذا أريد للجامعات أن تقوم بوظائفها التنموية الأساسية، وتتمثل هذه الحرية في عدة دلالات منها: ما يتعلق بحرية العلم والبحث العلمي، وكل ما له علاقة بالنشاطات العلمية والبحثية، وكذلك حرية الأفراد المشتغلين بهذه المجالات، ويضاف إلى ذلك حصول الجامعات على الاستقلالية الداخلية والخارجية، وبمعنى أشمل فإن الحرية الأكاديمية حق من الحقوق المشروعة للأستاذ الأكاديمي، والباحث والمفكر والمثقف، دون الاستناد إلى الانتماء الإيديولوجي والتعصب الديني، والتمييز الطائفي والعرقي والمعرفي.

وعلى هذا الأساس فإن الإقرار بالحرية الأكاديمية يعدُّ جوهر استراتيجية العمل القومي، وبدونها يصبح العمل في هذا المجال مجرد كلام فارغ، وشعار براق لا يلبي الطموحات والآمال المعقودة، التي يمكن أن تحققها الجامعة القومية، والتي يمكن من خلالها إرساء تعاون عربي ذي نتائج مثمرة تنصهر فيه كل الطاقات والإمكانيات العربية المادية والبشرية من أجل استراتيجية العمل القومي المشترك، والتي تتحدد في تأسيس الجامعة القومية التي تنشأ في إطار عام ترعاه وتموله جامعة الدول العربية ومنظماتها والاتحادات العلمية العربية، تكون قادرة على جذب واستيعاب الكفاءات والخبرات العلمية والعربية، وكسر الاحتكار التكنولوجي والعلمي الغربي، وردم الفجوة التكنولوجية بين الأمة العربية والدول المتطورة، وخلق البيئة المشتركة، وإزالة الحواجز، وتوفير الكوادر القادرة على استثمار قدرات الأزمة، وتوظيفها بما يؤدي إلى زيادة التنمية الوطنية العربية، وتحقيق الهدف القومي الأسمى.

ولعل توحيد المناهج والاختصاص عامل أساسي في وحدة الجامعة القومية، وخلق الوعي القومي حيث يجب أن تنطلق تلك الجامعة من فلسفة قومية واحدة في برامجها ومناهجها وأساليب تدريسها، وتكون بعيدة عن كل تسييس يفرض عليها غطاء خاصًا في القبول أو التدريس.

ولا شك أن إنجاز هذه المهمة لا يقتصر على طرف واحد، أو جهة معينة، بل يفترض تكاتف الجهود، وتعاون مختلف الهيئات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية العربية.

ويمكن أن يكون ذلك عبر مسح عام لمناهج واختصاصات الجامعات العربية يستخلص منه المشترك بما يغني بعضه بعضًا، وتستدرك فيه الثغرات والنواقص، وتوفير فرص البحث والاختصاصات التي قد لا تتوفر في بلد ما، بسبب إمكانياته وظروفه المادية والعلمية، ويحول دون نزيف هجرة الأدمغة التي تبحث لها عن اختصاصات وفرص عمل لا تتوفر في بلدانها، فتكون خسارتها كبيرة بكل المقاييس والاعتبارات.

ولعل مما يعزز هذا النهج الأكاديمي المقترح هو إيجاد سياسة قومية عربية للبحث العلمي نظرًا للرابطة الوشيجة، التي تقوم بين عمل الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية العربية، ذلك أن سياسة الأبحاث العلمية العربية في الوقت الحاضر تفتقر إلى التنسيق فيما بينها، كما تفتقر إلى التعاون المشترك، والرؤية القومية المتكاملة مما يجعلها مجرد محاولات فردية غير قادرة على تحقيق وظيفتها التطورية، سواء على صعيد الدولة الواحدة أو على صعيد الأمة العربية، ولذلك فإن إرساء منهج موحد للبحث العلمي بين الجامعات العربية، ومراكز الأبحاث العلمية يجب أن ينطلق من اتحاد مجالس البحث العلمي العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومن خطط مدروسة ومنسقة تلبي حاجات الأمة العربية، سواء في المجال العلمي التكنولوجي أو الإنساني باتجاهاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية والإدارية والثقافية وسائر فنون المعارف والثقافات الأخرى.

❖ خدمات الإعارة في المكتبة الحديثة:(٣)

يعرف الباحث سعود الحزيمي المكتبة بأنها مؤسسة ثقافية تتوجه إلى تحقيق أهدافها عبر العديد من النشاطات والوظائف التي من أهمها: استخدام مصادر المعلومات، وإتاحتها لأكبر عدد من المستفيدين، واستخدام جميع الوسائل التقليدية والتقنية الحديثة في تحقيق ذلك.

وتعد الإعارة إحدى القنوات الهامة في توسيع مجال استخدام المصادر، وإيصال المعلومات للمستفيدين وتشكل مؤشرًا على قياس مدى فاعلية الخدمات الثقافية التي تقدمها المكتبات لجمهور القراء والمستفيدين.

وقد أطلق الباحثون والمختصون العرب في مجال المكتبات والمعلومات مصطلح إعارة على العملية التي يطلب بها القارئ كتابًا من المكتبة العامة بموجب صك يذيله بتوقيعه بكون سندًا عليه.

والأصل في الإعارة أن تكون خارجية، أما الإعارة الداخلية فهي نوع من تقييد الاستخدام، وفقًا لضوابط معينة تتعلق باستخدام بعض المخطوطات والمصورات والوثائق تلافيًا للكثير من السلبيات المصاحبة لاستخدامها.

والإعارة ولا سيما في المكتبات الكبيرة أصبحت علماً له أصوله وشروطه، ومستلزماته الفنية والتقنية، وأدواته ونظامه وإجراءاته، بحيث يمكن أنْ نقول في ضوء ذلك إن الإعارة تشمل مجموعة من الخدمات والإجراءات يمكن للمكتبة من خلالها إتاحة الفرصة لمستفيد استخدام المصادر المكتبية خارج مبنى المكتبة، وفقاً لضوابط معينة تكفل المحافظة على تلك المصادر، وإعادتها في الوقت المحدد، وذلك بهدف تحقيق الأهداف العامة الثقافية والاجتماعية لإنشاء المكتبات، ونشر الوعي الثقافي والفكري، وتنشيط استخدام المصادر، ومراعاة الظروف العملية الخاصة للمستفيدين، إضافة إلى تعزيز التعاون على صعيد إعارة المكتبات الوطنية فيما بينها ضمن ما يسمى بالمشاركة في استخدام المصادر ، وذلك طبعاً وفق شروط وقواعد تنظيم عملية الإعارة من حيث تحديد شروط الحصول على بطاقة الإعارة، وفئات المستعيرين، ونوعية المواد القابلة للإعارة، وعدد الكتب التي يمكن إعارتها في كل مرة، ومدة الإعارة، وتجديد إعارة المواد، ثم غرامات وجزاءات التأخير، إضافة إلى الإعارة بين المكتبات، وحجز المواد التي يشتد الطلب عليها، وإحصاءات الإعارة وغيرها من الشروط الأخرى.

❖ أنظمة الإعارة:

ونظام الإعارة شيء أساسي في عمل المكتبات وهو في التعريف مجموعة السجلات والإجراءات التي يتم أداؤها لإتمام عمليات الإعارة وضبط حركة الكتب.

وتحرص إدارة المكتبة عادة على اختيار الأنظمة التي تحقق أكبر قدر من الخدمات لتتمكن من الإحاطة بجميع فعاليات الإعارة والمخالفات التي تصاحب ذلك.

ويلاحظ أن أنظمة الإعارة العربية قد تطورت بشكل تدريجي من السجلات الدفترية إلى النظم التي تستخدم البطاقات أو التي تستخدم البطاقات مع بعض الأجهزة والمعدات، وأخيراً تطبيق تقنيات الحاسبات وذلك بهدف توفير الوقت والجهد وسرعة الأداء، ودقة العمل وتنظيمه.

وثمة عوامل عديدة يرتبط بها اختيار أنظمة الإعارة من أهمها مراعاة : تطور حجم حركة الإعارة تبعاً للتطور الطبيعي للمكتبة، وعملياتها المختلفة، ومواكبة الأساليب والتقنيات الجديدة، إضافة إلى الإمكانات المالية التي تساعد على استخدام تقنيات ووسائل حديثة أو تحول دون ذلك.

ويبيّن المؤلف الحزيمي أن أنواع أنظمة الإعارة تنحصر حالياً في ثلاثة أنواع هي:

- الأنظمة اليدوية التي تعتمد على السجل الدفتري أو البطاقات بأشكالها وتعميماتها المختلفة، والمعلومات المدونة عليها.

- الأنظمة التي تستخدم آلات مساعدة ومن بينها: نظام جيلورد، ونظام الإعارة التصويرية ونظام الإعارة السمعية، ومن الطبيعي أن تكون لكل نظام إيجابياته وسلبياته، وهي تتفاوت من مكان إلى آخر، ولكنها بالمحصلة تهدف إلى اختصار الوقت والجهد، والتقليل من الأخطاء في عمليات التسجيل وضبط الإعارات وسهولة تدقيقها، ومراجعتها باستمرار.

- نظام الإعارة المحسبة، التي تعتمد على الاستفادة من خدمات الحاسوب في عمليات التصنيف والفهرسة، والتزويد وضبط الدوريات، وأخيرًا الإعارة وخدمات المستفيدين ، وقد يؤدي استخدام الحاسوب في عمليات الإعارة الى زيادة سرعة وأداء عمليات الإعارة ودقة إعداد السجلات الخاصة بها، ومراجعة ما يتعلق بالتغيير ومدة الإعارة ..الخ، وقد طوّرت الشركات والمؤسسات التجارية والمنظمات والمعاهد الدولية البرامج والأنظمة الخاصة باستخدامات الحاسوب في المكتبات، حسب خصائص وطبيعة كل مكتبة، وشروط الإعارة فيها، ومن ذلك أنظمة: إيزيس، دويس ليبس، وينيباجو، ابن النديم، وانج، دانيكس، نوتيس، نظام الأفق وهو نظام متكامل يحتوي على برامج تغطي كافة العمليات الإدارية والفنية في المكتبات، والتي تشمل: التزويد والفهرسة، والدوريات والبحث والاعارة، ويمتاز هذا النظام بعدة خصائص أبرزها: إمكانية العمل على مختلف الأجهزة والتشكيلات، وإمكانية ربط المكتبات من خلال شبكة المعلومات، وبدون جهد إضافي، وإمكانية قراءة التسجيلات وكتابتها للتصنيف، كما يعمل النظام تحت برنامج ويندوز، ويقدم برنامجًا احتياطيًا للإعارة يستخدم في حالة توقف نظام الإعارة الأصلي.

❖ الإعارة بين المكتبات:

ويرى المؤلف أن الإعارة بين المكتبات أو ما يسمى أحيانًا الإعارة التبادلية أو الإعارة التعاونية، هي إجراء تعاوني يتيح للمكتبات المختلفة استعارة المواد المكتبية من بعضها البعض من أجل استعمال أعضائها وروادها، كما يتيح لها الحصول على نسخ مصورة كبدائل للمواد المطلوب استعارتها.

وكما هو الشأن في قواعد الإعارة للأفراد، هنالك قواعد تنظم الإعارة بين المكتبات، ومن أهمها: تحديد المكتبات التي يجوز لها الاستفادة من خدمات مشروع الإعارة التبادلية، وتحديد مسؤوليات كل من المكتبة المعيرة والمكتبة المستعيرة من حيث تكاليف خدمة الإعارة، وتحديد أنواع المصادر المكتبية التي يجوز استعارتها، والقواعد الناظمة لتصوير الوثائق، بما لايتعارض مع حقوق التأليف والأحكام القانونيةالأخرى.

ويذكر المؤلف أهم الأسس والنواظم التي تستند إليها إعارة المكتبات ومنها:

وجود هيئة تقوم بالإشراف على نشاطات الإعارة المتبادلة، والتنسيق بين المكتبات المشتركة، وحل الصعوبات والمشكلات التي تطرأ أثناء العمل وتطوير النظام بما يكفل تحقيق أهدافه.

إضافة إلى وجود فهرس موحد، يحتوي مقتنيات المكتبات المشاركة في النظام التعاوني، وتحديد شكل وتسلسل الإجراءات وتصميم النماذج الموحدة التي تستخدم في تنفيذ خدمات الإعارة التبادلية.

وعملية الإعارة التبادلية بين المكتبات لا تسير وفق مستوى واحد، وإنما تتم وفق أربع مستويات هي:

- المستوى الداخلي: ويتم التعاون على أساسه بين مكتبات مدينة معينة، تكون عادة متماثلة في التخصص الموضوعي.

- المستوى الوطني: ويقوم على وضع نظام وطني للإعارة التبادلية يضم جميع المكتبات الوطنية في دولة ما.

- المستوى الإقليمي: ويقوم على وضع نظام للتعاون بين عدة دول، تقوم بينها روابط ومصالح قومية أو سياسية أو اقتصادية، مثل: دول الاتحاد الأوروبي، أو الدول العربية، أو مجموعة الدول الناطقة بالفرنسية، أو الدول الإسلامية..... وهكذا.

- المستوى الدولي: ويشمل التعاون في مجالات الإعارة التي تقوم برعايتها أو الإشراف عليها منظمات، ومؤسسات دولية كاليونسكو، ومنظمة جمعيات المكتبات (إفلا) وغيرهما، بهدف التعجيل بنقل الوثائق داخل الدول أو فيما بينها، وقد عقدت في هذا المجال عدة ندوات ومؤتمرات دولية تركزت نشاطاتها على صعيد تحسين السياسات والإجراءات، وإعداد قواعد ومبادئ تهدف إلى التعجيل بنقل الوثائق داخل الدول أو فيما بينها، وقد عقدت في هذا المجال.

❖ المؤتمر الشعبي العربي للمقاطعة(٤)

المقاطعة سلاح هام استخدمته دول العالم في حروبها وصراعاتها على مر العصور، واليوم تستخدم الولايات المتحدة الأمريكية هذا السلاح من أجل تحقيق أهدافها، وفرض شروطها على الدول الأخرى التي لا تستجيب لها، ولا تنصاع لرغباتها، وهذا السلاح يأتي مكملاً لأسلحة المواجهة الأخرى، حيث في مثل هذه الحالات لا ينظر إلى كل وسيلة دفاع بمعزل عن سواها من الوسائل الأخرى، وعندما تتضافر كل الوسائل تظهر آثارها مجتمعة وتتراكم نتائجها الإيجابية، ومن هنا جاءت أهمية انعقاد المؤتمر الشعبي العربي لمقاطعة إسرائيل والشركات والمؤسسات المتعاملة معها، الذي احتضنته دمشق قبل فترة قريبة، وذلك بحضور ومشاركة أكثر من ١٩٠ شخصية تمثل قطاعات وفعاليات حزبية وثقافية ونقابية واجتماعية وفكرية في الدول العربية ومهاجر المغتربين.

ويأتي انعقاد هذا المؤتمر دعمًا لنضال الشعب الفلسطيني وانتفاضته الباسلة وسندًا لكفاحه البطولي في مواجهة آلة الإرهاب الصهيونية المدعومة أمريكيًا، لأن المقاطعة العربية سلاح يدعم النضال السياسي ويقوّيه.

وقد شملت فعاليات هذا المؤتمر استعراض ١٤ تقريرًا عن حالة المقاطعة العربية في واقعها، ومنجزاتها ومقوماتها وآفاقها.

كما شملت أيضًا عددًا من المحاضرات والدراسات والبحوث التي تناولت جوانب المقاطعة، وسبل تعزيزها واستمرارية تطورها.

وقد انتهى المؤتمر في ضوء المداولات التي تمت إلى استخلاص تصورات أساسية تدعم المقاطعة الشعبية، وتعزز صمود الأمة العربية في وجه الأطماع الصهيونية والمخططات الأمريكية التي تهدف إلى مد نفوذها على المنطقة، وبسط سيطرتها، والتدخل في شؤونها الداخلية والسياسية واختراق منظومتها الفكرية والثقافية، وهويتها التراثية والحضارية.

ورأى المؤتمر أنه إلى جانب أشكال المقاومة المختلفة التي تتصدى للتطبيع تكون كذلك مقاطعته ثقافيًا واقتصاديًا، فالمقاطعة بالمحصلة تجسد ثقافة رفض التعامل مع المعتدي وعدم قبول نتائج العدوان.

وقد خلص المؤتمر بعد مداولات لجانه الاقتصادية والثقافية والتربوية والإعلامية إلى صياغة عدد من المقترحات والتوصيات التي ترسم ملامح خطة العمل على صعيد مقاومة التطبيع، وتعزيز دور المقاطعة الشعبية وتفعيل نشاطاتها، وتوسيع دائرة تأثيرها بين أوساط الجماهير العربية، على مختلف الصعد والمستويات الثقافية والتربوية والإعلامية والاقتصادية.

ففي المجال الاقتصادي أكد المؤتمر على مقاطعة البضائع الأمريكية وتحريم البضائع الإسرائيلية تحريمًا مطلقًا، وإعداد كشف موحد بالسلع والبضائع المطلوب مقاطعتها، وآخر بالهيئات والشركات والوكالات الأمريكية، وغير الأمريكية التي تتعامل مع الكيان الصهيوني، والعمل على إيجاد بنية إنتاجية وسلعية لمختلف المواد والحاجات كبدائل وطنية عن السلع الأمريكية، إضافة إلى مطالبة الحكومات العربية بأهمية تطبيق اتفاقية السوق العربية المشتركة، واتخاذ الخطوات الكفيلة بوضع بنودها موضع التطبيق والتنفيذ.

وعلى صعيد المجال الثقافي والتربوي دعا المؤتمر إلى حشد الطاقات الفكرية والثقافية العربية، وتعزيز حضور ثقافة المقاطعة، ومقاومة التطبيع، ورفض السياسات الأمريكية الرامية إلى التداخل في الشؤون الثقافية العربية، والمناهج التربوية والتدريسية، وتنمية الموارد الفكرية

والثقافية العربية، والاهتمام بالتعليم وتطوير الأبحاث العلمية، ومقاطعة النتاج الثقافي الأمريكي بأشكاله المختلفة، ولاسيما الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، وعروض الفيديو وغيرها، مما يروج للقيم الأمريكية، ويشوه صورة العرب والمسلمين، ويمجد الشخصية الأمريكية والإسرائيلية.

أما على الصعيد الإعلامي فإن أهم التوصيات والمقترحات التي تبناها المؤتمرون تتمثل: بإنشاء موقع خاص لهيئة المقاطعة على الإنترنت يعرف بنشاطاتها، ويتيح لها نشر خططها وبرامجها على مستوى واسع عربيًا ودوليًا، والطلب إلى الفنانين العرب تصميم لوحات وجداريات وملصقات تدعو إلى تعزيز مقاطعة البضائع الأمريكية والصهيونية، إضافة إلى التأكيد على وسائل الإعلام العربية بالتصدي لحملات التشويه. ومظاهر الغزو الثقافي والإعلامي الذي يستهدف العرب والمسلمين، وتعزيز روح المقاومة، والإسهام بتربية الأجيال تربية وطنية وقومية، ومد الجسور، وتمتين العلاقات مع الإعلام المناهض للسياسة الأمريكية بتوجهاتها العدائية، والطلب إلى المؤسسات الثقافية والأدبية والإعلامية بإصدار النشرات والكتب والوثائق، والصور التي من شأنها أن تكشف عن انحياز أمريكا ضد قضايا العرب والمسلمين، ودعمها لإسرائيل في عدوانها المستمر على الشعب الفلسطيني، وما تمارسه من أشكال الإرهاب بحق الأطفال والنساء والشيوخ، والعزل من السلاح والأبرياء.

وإلى جانب ذلك فقد اتخذ المؤتمر عددًا آخر من التوصيات على صعيد المقاطعة العربية الرسمية، وبعض التوصيات العامة، التي تؤكد على تفعيل دور مكتب المقاطعة العربية، وإحياء مكاتب المقاطعة في جميع الأقطار العربية، والتنسيق معها بما يحقق تكامل الجهود الرسمية والشعبية.

الخطاب النسوي المضاد(٦)

برزت في الآونة الأخيرة ضمن حيّز التنظير الأدبي عدة آراء حول ظاهرة الأدب النسائي، وبعض تلك الآراء يرى أنه لا يجوز على صعيد المصطلح القول بأدب ذكوري وآخر نسائي لمجرد أن من يكتبه رجل أو امرأة، فالأدب واحد وهو يصدر عن مقومات وعناصر حددت أجناسه وماهيته، وليس اعتبارات الذكورة أو الأنوثة.

ورغم ذلك فثمة من يقول بين الأدباء والنقاد بخصوصية الأدب النسائي، ويبني أصحاب هذا الرأي مقولتهم على أساس مضمون الخطاب النسائي، الذي يشكل مع خطاب الرجل نقيضًا وعلاقة ضدية.

ولا شك أن تساؤلات الاختلاف بين الرجل والمرأة، ما تزال تثير تباين الآراء واختلاف وجهات النظر التي تعبر في جوهرها عن إشكالية هذه العلاقة في

إطارها التاريخي والاجتماعي.

وفي هذا المنحى تقدم الباحثة الدكتورة يمنى العيد مساهمة متميزة وإضاءة كاشفة في تحليل دلالة تلك الإشكالية الضدية في سياقها الثقافي والأدبي لتؤكد أن الطابع الإنساني للأدب يجعل منه لغة من لغات اتصال الإنسان بالآخرين، يعبر المبدع من خلالها عن عالم متخيل، وبالتالي لايمكن أن يقف المرء ضد هذا الإبداع الإنساني التخيلي انطلاقًا من جنس المبدع، وإن حصل ذلك فهو في الحقيقة نتاج تربية اجتماعية، تعبر عن سلطة ثقافية تفرض ذاتها على وعي هذا الإنسان.

وهي تلاحظ عبر وقفات في تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة بدءًا من العصر الجاهلي، وحتى اليوم أن المرأة المبدعة شاعرة كانت أو كاتبة حظيت بالتقدير والتكريم، ولم تؤثر أنوثتها في تحديد قيمة إبداعها، أو النيل من مكانتها، إذ كانت الخنساء صاحبة مكانة رفيعة أشارت إليها كتب الأدب، والتراجم والأخبار، وشهد لها الرسول ﷺ بالتفوق فجعلها «أشعر الناس» كما اعترف لها بهذه المكانة الشعراء أنفسهم، فذكروا أن جرير سئل عن أشعر الناس فقال: «أنا لولا هذه الخبيثة» يعني الخنساء، ونعتها بالخباثة، ما هو إلا تأكيد لمكانتها وتفوقها، وليس ذمًا أو رفضًا لها.

وترى الباحثة أن المعايير الاجتماعية السائدة في الموروث العربي حين أعطت الفحولة مكانة هامة، فإنها انطلقت من قيمة القوة التي كانت عنصرًا هامًا من عناصر حياة العرب التي قامت على غنائم الحروب والغزوات، أكثر مما اعتمدت على العمل والإنتاج الذاتي، سواء كان زراعيًا أو صناعيًا.

وبالتالي فإن بعض المفاهيم التي نطالعها في هذا المجال تعكس تلك التصورات التي أملتها حياة البادية وطبيعة الصراعات التي تنشأ بين القبائل بحثًا عن الكلأ والماء، تكريسًا لسلطة القوة التي كانت الأساس والمعيار في تنظيم العلاقة بين المحكومين في آن واحد.

وتوضح الباحثة العيد أن المرأة العربية وانطلاقًا من العلاقة بين السياسي والثقافي - الأدبي أدركت أن تحررها رهن بتحرر الوعي الجمعي للإرث القيمي الذي كرس عزلتها ودونيتها، وذلك ما أدركه الرجل أيضًا عندما اكتشف أن التحرر الوطني، ونهوض المجتمع، منوطان بتحرير المرأة وخروجها من عزلتها إلى رحاب المجتمع، والمشاركة في بنائه وتطويره، وقد شكلت رؤية المرأة كما رؤية الرجل خطابًا تنويريًا في عصر النهضة، يبدو أن نقطة الالتقاء المشتركة فيه هي العمل على تغيير الوعي الجمعي السائد والموروث، ورؤية الإنسان إلى ذاته وإلى العالم الذي يعيش فيه، وهذا ما تجلى في الخطاب الأدبي - الثقافي لرائدات عصر النهضة وروادها

على مختلف الصعد والمستويات.

فعلى صعيد الموقف ركز ذلك الخطاب على ضرورة تحرير المرأة، ودعا إلى تعليمها، وبين فوائد التعليم وآثاره على حياتها الأسرية والاجتماعية، وأبرز كفاءاتها وقدراتها الذهنية والفكرية، وأنها في ذلك ند للرجل، وليست أقل منه، وهذا ما حملته أعمال زينب فواز (١٨٤٦ – ١٩١٤) وبطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣) وقاسم أمين (١٨٦٣ – ١٩١٤) وملك حفني ناصف (١٨٨٦ – ١٩١٨) ومي زيادة (١٨٤٦ – ١٩١٤).

وقد كشفت كتابات هؤلاء الرواد أن الظلم الواقع على المرأة، والضدية التي تعاني من آثارها تندرج في الإطار العام لثنائية العلاقة في المجتمع بين رجاله وطبقاته وفئاته، وما تتحكم فيها من علاقات السيادة والتبعية، والغنى والفقر، والتسلط والقمع والحرية والاستبداد.

وعلى هذا الأساس فإن ضدية خطاب المرأة نحو سلطة الرجل لا يجوز أن تتحول إلى صراع ذكوري أنثوي ناجم عن الفروقات الفيزيولوجية بين الرجل والمرأة، وإنما يجب أن تقرأ في إطار العلاقة أو الصراع بين مركز القوة والسيطرة، ومركز الضعف والتبعية في سياقها الاجتماعي العام، الذي ينسحب على مجالات مختلفة ومن بينها وضع المرأة.

وفي ذلك تقدم الدكتورة العيد قراءة دلالية جديدة لمعنى الضدية في خطاب المرأة، حين تستخلص من خلال المعنى اللغوي للكلمة أن الضدية لا تعني دائمًا النقيض، فقد تعني أيضًا المثيل أو الند، أي أن خطاب المرأة هو الموازي أو المثيل أو القرين لخطاب الرجل، وكما أعلن خطاب الرجل عن وجوده، فإن خطاب المرأة يسعى إلى إعلان وجودها، وليس في ذلك ما يشكل علاقة خلافية أو ضدية بين الخطابين.

وترى الناقدة العيد من جهة أخرى أن التقاطع والالتقاء بين الرجل والمرأة في خطابهما الأدبي – الثقافي يتجلى على مستوى قوانين الكتابة الأدبية بأجناسها المختلفة التي تحددها المذاهب والتيارات وإطارها الزمني والتاريخي.

فقوانين القصة أو عناصر القصيدة، ومكونات الراوية، أو المسرحية هي ذاتها في النص الأدبي، سواء كان كاتبه رجلاً أو إمرأة، وليست هنالك عناصر خاصة لكل لون اعتمادًا على جنس الكاتب، لأن هذه القوانين عامة ومشتركة، ولا سيما بين كتاب لغة واحدة ومرحلة زمنية واحدة، وهذا ما يثبت لنا عندما نقارن بين قصص وروايات لبيبة هاشم (١٩٠٤) ومحمد حسين هيكل، وجبران خليل جبران، ووداد سكاكيني، ومحمود تيمور الذين تكشف أعمالهم، وأعمال من جاء بعدهم أنها بنيت وفق قواعد مشتركة لم يحدها منطلق الذكورة أو الأنوثة بل منطلق الحكاية

الشعبية وقواعدها في الاستهلاك والحبكة، والحدث والشخصيات.

وهذا ما يتجلى في مختلف عصور الأدب فالخنساء، وليلى الأخيلية، وولادة بنت المستكفي لم ينشدن الشعر أو ينظمنه بقواعد أنثوية، ونازك الملائكة التي انتقلت بالشعر إلى قصيدة التفعيلة لم يكن ذلك انتقالاً على مستوى أنوثة أو ذكورة من كتب وأبدع، لا سيما أن عدداً كبيراً من الشعراء ساروا في هذا المنحى ولم يشر أحد من النقاد إلى الاختلاف من هذه الزاوية بين ما كتبته نازك الملائكة أو السياب وفدوى طوقان والبياتي.

وتشكل لغة الأدب عامل التلاقي والتقاطع الذي يلتقي به إبداع الرجل أو المرأة أو يتقاطعان من خلاله، فمن الصعب على سبيل تأكيد الحقيقة أن يعرف القارئ أن المؤلف أنثى أو ذكر من دون العودة إلى الاسم، ذلك أنهما يمتحان من اللغة ذاتها، ولا يمكن أن يعزى بعض ذلك إلى القول بأن المرأة تكتب بلغة الرجل أي تستعير لغته أو تقلدها.

ذلك أن ما اصطلح على تسميته بالندية في خطاب المرأة لا يعني سوى الكتابة من اللغة ذاتها، مع ضرورة الاعتراف أن ما حدد طبيعة تلك اللغة وأنماطها الدلالية ليس ذكورة الرجل، بل مجموعة القيم الثقافية السائدة التي كرست سلطة القوة والهيمنة، ولا شك أن عملية تجديد اللغة بما يستجيب الى الرؤية التقدمية واكتشاف العالم الذي يحيط بالكاتب لا يرتهن الى الذكورة أو الأنوثة، بل بسياقات ثقافية تتجاوز علامات تأنيث الأفعال والضمائر، واستخدام ضمير المتكلم وجنسه، وأن المنظومة الدلالية لا تتولد من فعل ذاتي بل من انتظام له استراتيجياته البنائية الخاصة.

وللتدليل على المعنى الذي ترى من خلاله د يمنى العيد أن الخطاب النسوي ليس خطابًا تضاديًا إلا بقدر ما يفسح المجال لحضور المرأة في كتابتها على مساحة الخطاب الأدنى العام تقدم نموذجين تطبيقيين في روايتين نسائيتين اختلف منظورهما الى علاقة الأنوثة بالذكورة، رغم تطابق رؤيتهما المشتركة ضد الوعي الجمعي والثقافي السائد، وحضور المرأة في الزمن والحياة.

فهي ترى من خلال قراءتها في رواية «أنا أحيا» للروائية ليلى بعلبكي أن بطلة الرواية «لينا فياض» تنطلق عن منظور متقدم لعلاقة المرأة الراوية بما ترويه، وبمعنى آخر تتبوأ الذات الأنثوية سلطة الكلام، لتتحدث عن ذاتها ومحيطها، وبالتالي فإن فعل الحكي ما هو إلا فعل كتابة وإعلان عن الوجود، تهدف من خلاله إلى التعبير عن الظلم الذي يقع على المرأة، وممارسة حريتها في الإرادة والفعل والاختيار.

أما رواية «حجر الضحك» لهدى بركات فهي تطرح علاقة تبدو ذات إشكالية معقدة متشابكة يتداخل فيها الفيزيولوجي بالثقافي، فالرجل في الرواية عقل، ولما كانت شخصية خليل مبنية على خلفية الحرب الأهلية اللبنانية، وما تفرضه الحرب عادة من منظور يربط بين العنف والذكورة، مما يضع الذكورة في ناحية السلبية والإدانة كنقيض للأنوثة في هدوئها وإيجابيتها.

وتصل المؤلفة عبر تحليل الأحداث والمواقف والشخصيات إلى أن الضدية في روايتي بعلبكي وبركات تطرح علاقة الأنثى بالذكر من منظور مختلف بين الكاتبتين، فالعلاقة في رواية ليلى بعلبكي هي بين اثنين: أنثى وذكر، بينما هي في رواية بركات داخل الواحد الذكر، وفي حين تتحرك هذه العلاقة إلى مجال خارجي اجتماعي تسعى فيه الأنثى إلى التشبه بالعام، الذي هو حسب السائد في الرواية الأولى، فإن هذه العلاقة تتحرك في الرواية الثانية في حيز بيولوجي داخلي، يحاور فيه الذكر تكوُّنه ساعيًا إلى قبول اختلافه عن الذكر كما هو سائد.

ومما سبق تخلص الدكتورة يمنى العيد إلى استجلاء ملامح وجهة نظرها حول مفهوم الضدية في الخطاب النسائي، لتؤكد أن هذه الصفة لا تكتسب معناها الحقيقي إلا في إطار الثنائية العامة لعلاقات وقيم المجتمع، وبالتالي وضع هذه الضدية في إطار ثنائية التحرر والقمع، أما في حال وضع هذه الضدية في إطار أنوثي- ذكوري فإن خطاب المرأة لا يمكن أن يكون مضادًا بالمعنى الخلافي التناقضي، الذي يعني أن حضور هذا الطرف يلغي الآخر، ويزيله وينحيه، وبالتالي تغدو القضية وكأن المرأة تريد أن تأخذ دور الرجل، وتحتل مكانه.

إن خطاب المرأة كما تقول د. يمنى العيد ليس خطابًا مضادًا إلا بالقدر الذي فسح مجالاً لحضور كتابتها في مساحة الخطاب العام الأدبي، ولحضورها في الزمان والمكان والحياة، وبالتالي فإن كتابتها مشاركة لا إلغاء، مشاركة من منظورها ورؤيتها في المنطوق والمكتوب وصنع الحياة.

إحـالات

١- الفكر العربي المعاصر عدد ١٢٤-١٢٥.
٢- شؤون عربية عدد ١١٣.
٣- خدمات الإعارة في المكتبة الحديثة: سعود بن عبد الله الحزيمي- الرياض ٢٠٠٢.
٤- المستقبل العربي عدد ٢٩٠.
٥- الآداب عدد ٣-٤.

كتاب الشهر

فلسطين في فكر القائد الخالد حافظ الأسد

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن(*)

في هذا العدد من مجلة المعرفة، نخصص كتاب الشهر، لذكرى، طالما كان علّمها، الأب، والأخ، والقائد، والمفكر، الذي قدّم لنا جلّ حياته، وعصارة فكره. من أجل أن تبقى أمته، أمة العرب. ومن أجل أن يبقى الفكر قومية العرب.ومن أجل أن نبقى نحن أهل الرسالة التي وضعها بين أيدينا. أن نحمل مشعل العروبة والقومية، في زمن، باتت العروبة والقومية فيه، محط مخالب العديد ممن يفتقدونها، أو يرون فيها تهديداً لمصالحهم، وخطراً على حياتهم.

---

* محمد سليمان حسن: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو اتحاد الصحفيين. من مؤلفاته: (الاحزاب الصهيونية وعملية السلام).

في الذكرى الثالثة لرحيل قائد الأمة الرفيق الخالد المناضل حافظ الأسد، نقدم عرضًا مسهبًا، لمعلم فكري هام، لطالما اعتبره القائد الخالد (مقياس وجود ما يوجد من هذه الأمة، في وجوده تجد الأمة وحدتها، وفي عدمه تفتقر الأم مقوم وجودها). لقد أولى القائد الخالد: فلسطين والقضية الفلسطينية، منذ أن كان على مقاعد الدراسة، إلى اليوم الأخير في حياته، الأهمية الأساس، لأنه رأى وحدة الوطن سورية في وحدة أمته من المحيط إلى الخليج.

الكتاب مدار العرض والتقديم (فلسطين في فكر القائد الخالد حافظ الأسد) من تأليف الباحث د.صالح موسى) وإصدار دار المسبار، لعام/٢٠٠٢/، يقع الكتاب في /١٥٨/ صفحة من القطع الكبير، نقدم عرضًا له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

الفصل الأول: حافظ الأسد...

النشأة والتكوين

يتناول الباحث في الفصل الأول من الكتاب، دراسة حياة الرفيق الخالد المناضل حافظ الأسد، مؤكدًا على مجموعة من الثوابت في مسار حياته منذ البدايات. تلك الثوابت التي أول ما نرى فيها المنبت الطبقي الريفي الكادح للرفيق القائد. والعلاقات الأسرية المتماسكة بين أفراد الأسرة، مع التأكيد على أولوية التعليم في ذهنية الجد والأب ومن ثم القائد الراحل في أولادهم. وهو ما كان السبب الأساس في تكوين شخصية وحياة القائد الراحل.

المعلم الثاني: من الثوابت، ظهور بذور الفكر القومي العربي في ذهنية القائد الراحل منذ بداياته كطالب في المدرسة وهو ما عبر عنه فكرًا وممارسة من خلال انتمائه إلى حزب البعث حتى اليوم الأخير من حياته دون حياد أو محاولة للتجاوز أو التغيير. هذا الحزب الذي أكد منذ بداياته وما زال على أولوية القومي على الوطني وعلى رؤية الوطني من خلال القومي.

المعلم الثالث: من الثوابت كان العمل الدؤوب والتثقيف الدائم في حياة الرفيق القائد، وهو ما نلمسه في مرحلة انتسابه إلى الكلية العسكرية، والدورات التدريبية التي اتبعها والمهمات التي أوكلت إليه بعد التخرج، الأمر الذي خلق منه شخصية قيادية تستحق الوقوف والدراسة بتعمق.

المعلم الرابع: إدراكه أن التطور هو بداية تختتم بثورة، وهو ما أكده خلال حياته في مرحلتين هامتين هما: ثورة الثامن من آذار والحركة التصحيحية.

المعلم الخامس: إدراكه ضرورة السير في خط السياسةوالدفاع بموازاة مع بعضهما. وهو ما عمل عليه في السياستين الداخلية

والخارجية. في الدفاع عن وطنه سورية وفي الدفاع عن مكتسبات شعبه في الداخل، دفاعًا كان مثار إعجاب القاصي والداني ممن أتيح لهم أن يلتقوا القائد الخالد.

المعلم السادس: النظرة الشمولية الكلية لمستقبل سورية والأمة العربية ككل في ربطه الجزئي بالكلي. ورؤيته الكل من خلال مجموع أجزائه. إن فكرًا قوميًا إنسانيًا لا بد وأن يرى مستقبل هذه الأمة وحياتها من خلال جدل العلاقة بين الوطني والقومي والإنساني. وهو ما عمل عليه القائد الخالد حتى اليوم الأخير من حياته، عندما كان على اتصال هاتفي مع الرئيس اللبناني أميل لحود، يتدارس معه مستقبل العلاقة بين لبنان وسورية ومستقبل الشعبين السوري واللبناني.

هذه مفاصل من حياة الرفيق الخالد حافظ الأسد، نستطيع أن نلمسها في حياته وأعماله على مدى نصف قرن من الزمن.

الفصل الثاني: الصراع العربي الصهيوني في فكر السيد الرئيس حافظ الأسد

أ - الصهيونية

وعى الرئيس المناضل حافظ الأسد مبكرًا خطر الصهيونية على الأمة العربية وهو المشبع بالفكر القومي، وكان لوعيه الأثر الكبير في مسار حركته وعمله طيلة حياته السياسية وحتى ماقبل أن يصبح رئيسًا للجمهورية العربية السورية. ويمتاز السيد الرئيس حافظ الأسد بوضوح الرؤية تجاه الصهيونية. يوضح رؤيته بشكل دقيق حين يقول: **«والحق أن الصهيونية شر للبشرية كلها، من حيث أنها أولاً تزييف للمبادىء السماوية، فهي تستخدم اليهودية لما هو في الحقيقة ظاهرة شوفينية مصطنعة عبرت عن نفسها في أيديولوجية استعمار استيطاني قائمة على اغتصاب الأرض العربية والتوسع الإقليمي فيها».**

وإذا كانت الحركة الصهيونية تسعى إلى تهديم المجتمع العربي عبر اغتصاب الأرض العربية، فهي أيضًا: **«معول هدام للمجتمعات القائمة في العديد من بلدان العالم، وتتضح شرورها أكثر ما تتضح في رفضها مقومات المجتمعات الوطنية والقومية في العالم وسعيها لتفتيت هذه المجتمعات إذ أنها بتحريضها اليهود المندمجين في كل مجتمع قومي على الانسلاخ من مجتمعهم وهجر أوطانهم إنما تعمل على فصل شريحة من الشرائح المكونة لتلك المجتمعات.. لتخرج بهم في أرض لاتربطهم بها رابطة».**

وحتى تنجح الصهيونية في تحقيق أهدافها لا بد من أن تنجز اقتلاع اليهود

من المجتمعات الوطنية، وتنفيذ الاستيطان: «إن الصهيونية تقوم على أساس النخبة الممتازة والعنصر المتفوق، ومن هنا تنظر إلى الشعوب على أساس تصنيف ثابت ومستمر، منها القوي أبداً ومنها الضعيف أبداً، منها الغني أبداً ومنها الفقير أبداً، منها من يصلح سيداً ومنها من يصلح للحياة مسوداً، ومن هنا ومن هذه النظرية المتعالية، تنطلق في عدوانها المستمر واعتداءاتها المتكررة».

وينفي القائد الأسد تاريخية الحركة الصهيونية فيقول: «الصهيونية ليست تياراً تاريخياً كما يزعم دعاتها، بل هي ظاهرة مخالفة لمنطق التاريخ، وهي ليست اطلاقاً تياراً تقدمياً كما يحلو لبعض المفكرين أن يصورها. فما هي إذن؟ «هي قطعاً حركة رجعية مغرقة في الرجعية، تمثل تمسكاً بأبشع ماتناضل البشرية نفسها للتخلص منه».

وتتكشف خطورة الصهيونية على العالم العربي في أنها تستهدف الأراضي العربية. فنحن كما يقول القائد الأسد: «نواجه في المنطقة العربية مخططاً صهيونياً امبريالياً، يستهدف السيطرة على المنطقة، وفي إطار هذا المخطط تتابع إسرائيل اعتداءاتها على الأراضي العربية، وتواصل سياساتها التوسعية سعياً وراء تحقيق هدف إنشاء إسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات».

لقد جاءت الصهيونية في سياق المشروع الامبريالي الاستعماري، وشكلت إحدى أدواته: «إنما هي من نتائج الاستعمار والامبريالية، للهيمنة على هذه المنطقة ومن توافق هذا النمط في مراميه مع مخطط الصهيونية، لإقامة دولة عنصرية استعمارية استيطانية، تمتد من النيل إلى الفرات»، وبالتالي «إن الغزو الاستعماري الاستيطاني، الواقع في فلسطين، يهدد العالم العربي كله. فأطماع الصهيونية، لا تقف عند حدود فلسطين، وإنما تتعداها إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، عن طريق التوسع والمزيد من التوسع في أراضي دولة عربية مستقلة».

وإذا كان الأمر كذلك، فالخيار هو الصمود: «لما داموا الآن في فلسطين، أليس من الأفضل أن نصمد ونعمق الصمود عند هذا الموقع المتقدم، من أن نتخاذل، ونتراجع إلى أن يصبح الإسرائيليون على شواطئ النيل والفرات».

٢ - إسرائيل

في وجود إسرائيل في المنطقة العربية، وأسباب ذلك، ومستقبلها، وكيفية التعامل مع هذا الكيان الدخيل على الأمة، نقتطف الرؤى التالية:

- إن إسرائيل هي تجسيد للصهيونية العالمية، وهي بأيديولوجيتها وسياساتها وأعمالها، وبأهدافها التوسعية في الوطن

العربي تؤدي دور الاستعمار الاستيطاني البغيض معتمدة على الإمكانيات الذاتية للحركة الصهيونية وعلى الدعم الذي تتلقاه من الامبريالية.

- إن إسرائيل ليست إلا صورة مشوهة ممسوخة لتلك الغزوات التي تعرض لها شعبنا وأمتنا عبر تاريخنا الطويل.

-إن إسرائيل تؤكد في كل وقت أنها كيان عدواني توسعي وأنها تسير على خط معادٍ للتاريخ، وهي حريصة دائمًا على أن تمثل القاعدة الفكرية والعقائدية للفاشية رغم أن قواعد الفاشية تتحطم في كل مكان.

تحاول إسرائيل أن تستخدم وتسخر كل دول العالم إن استطاعت لمصلحة أحلامها وخططها التوسعية، ولا شك في أن إسرائيل استطاعت أن تسخر الولايات المتحدة الأمريكية لمصلحتها، كما لم تستطع أي دولة أخرى من دول الأرض...

-إسرائيل مستودع كبير للسلاح المتنوع والمتطور بفضل الترسانة الأمريكية.

- لا أمل في وضع حد للتطلع التوسعي الإسرائيلي مادامت تشعر أنها دولة كبرى في المنطقة.

- إن أطماع إسرائيل في بلادنا ووطننا العربي عمومًا، لا توقفها التمنيات، ولا يضع حدًا لها إلا النضال العنيف الدؤوب الفعال البعيد المدى.

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث: فلسطين في فكر القائد الخالد حافظ الأسد

اكتشف حافظ الأسد مبكرًا أهمية فلسطين، وخطورة استهداف فلسطين من قبل القوى الاستعمارية، وآمن بأهمية فلسطين في رسم مستقبل الأمة العربية جمعاء. لذلك لم تغب فلسطين عن فكر القائد الأسد وهمه واهتمامه، وبها ولها حكم المسار وحدد الخطأ.

- فلسطين وشعبها في فكر الأسد:

إذا كنا اليوم وبعد رحيل القائد الفذ حافظ الأسد، نريد الحديث عن فلسطين وشعبها ورؤيته لهما، فإننا نتحدث عن مسيرة مناضل عاش مع قضية فلسطين يومًا بيوم، ونستذكر تاريخًا مشرفًا.

ولأن حافظ الأسد بعثي بامتياز، فقد كانت تصرفاته تجاه فلسطين وموقفه من فلسطين وشعب فلسطين ومحدداته الفكرية لها تلخص موقف الحزب والثورة. ولم تكن يومًا فلسطين بالنسبة له حاجة من حاجات العمل السياسي، فهو القومي المؤمن بضرورة وحدة الأمة العربية ووحدة كيانها أرضًا وشعبًا.

لقد عمل دومًا من أجل الوحدة العربية. ويذكر خالد الفاهوم، السياسي الفلسطيني البارز أنه ذهب يومًا إلى مكتب العقيد

حافظ الأسد في قيادة القوى الجوية ليتعرف على مكانة فلسطين عند القيادة السورية الجديدة، فوجد ضابطًا «لا يفرق بين سوري وفلسطيني، بل يبدو قوميًا عربيًا ملتزمًا» .

وكثيرًا قال: «الشعب الفلسطيني، شعبنا أيضًا، وكلنا شعب واحد» . ويمضي أكثر تحديداً في المسألة وتعبيرًا فيقول:«شعب فلسطين هو شعبنا، إنهم إخوتنا وأبناؤنا، حقوقهم حقوقنا، مظالمهم مظالمنا، وستفشل كل المحاولات، ستتحطم كل المؤامرات التي تستهدف إضعاف شعب فلسطين وإضعاف كفاح شعب فلسطين».

دومًا كان القائد الأسد يعبر عن شعوره بمرارة الظلم الذي أصاب شعب فلسطين:«الظلم الفادح الذي حل بشعب فلسطين منذ بدء التخطيط الاستعماري لاغتصاب أرض فلسطين» .

لهذا حدد الأسد بفكر واضح ذكي أن ما أصاب الفلسطينيين ناتج عن محاولات الاستعمار السيطرة على الوطن والأمة، وبذلك يدفع الشعب الفلسطيني الثمن بالنيابة «عندما نأتي على ذكر الشعب العربي الفلسطيني تبرز أمامنا صورة الظلم الفادح الذي حل به نتيجة المؤامرة التي حبكت في عواصم الاستعمار بالتواطؤ مع الصهيونية العالمية. إن الشعب الفلسطيني الذي عانى ولا يزال يعاني من عدوان قلّ أن عرفت البشرية مثيلاً، هو الضحية السياسية الاستعمارية الرامية إلى السيطرة على الوطن العربي والتي التقت أهدافها، وأهداف الصهيونية في تجزئة الوطن العربي، و إقامة إسرائيل في وسطه، قاعدة استعمارية متقدمة وأداة توسع وعدوان» .

من هنا يؤكد القائد الأسد أن ما حل بالفلسطينيين لا يخصهم وحدهم . فهم أولاً جزء من الأمة، والاعتداء على الكل «الفلسطينيون جزء من أمتنا والقضية الفلسطينية قضية العرب جمعاء» .

فأي خلل يصيب هذا الجسد ستعم آثاره الجسد كله:«لا يمكن أن نتخلى عن حقوق الشعب الفلسطيني مقابل أي شيء، فقضية الشعب العربي الفلسطيني هي قضيتنا بكل ما تعنيه هذه الكلمة،ونضالنا لا يمكن أن يكون من أجل الجولان إلا بقدر ما هو من أجل حقوق الشعب العربي الفلسطيني» .

كذلك كانت سورية بكل شعبها، كما قائدها الكبير، فقد قاسمت الشعب الفلسطيني الألم والمرارة ورغيف الخبز: «ستبقى سورية مع قضية فلسطين وإلى جانب الشعب العربي الفلسطيني إلى أن يسترجع أرضه ويقيم دولته وينال حريته» .

إن فلسطين في رؤية حزبنا العظيم

حزب البعث العربي الاشتراكي وقائدها المناضل حافظ الأسد القائد القومي: «**ليست جزءاً من الوطن العربي وحسب، وإنما هي الجزء الأساسي من جنوب سورية، ونحن أيضًا نرى أن من حقنا ومن واجبنا ولا نستطيع أن نتنازل عن الحق ولا نتخلى عن الواجب، نرى من حقنا ومن واجبنا أن نصمم على أن تبقى فلسطين جزءاً محرراً من وطننا العربي ومن قطرنا العربي السوري**».

دائمًا كان الفلسطيني في نظر القائد **الأسد** مناضلاً صلبًا في سبيل كرامته وأرضه وحقوقه، وآمن دائمًا بأن هذا الشعب سيبقى يناضل لتبقى قضية فلسطين حية حتى يتحقق له عزته وكرامته: «**لا يظنن أحداً** أن شعب فلسطين سينحني للانحراف والاستسلام. إن المناضلين الفلسطينيين **لن يسمحوا لأحد** بتصفية قضيتهم». إن الشعب الفلسطيني سيبقى كما يقول القائد الأسد: «متلهفاً إلى الطريق الثوري والأساليب الثورية، من أجل أن يسترد أرضه وحقوقه».

* * *

الفصل الرابع: القضية الفلسطينية في فكر القائد حافظ الأسد

تميز السيد الرئيس حافظ الأسد بانتمائه الشديد للنهج القومي، وتعلقه الكبير بعروبته. ومنذ أن وقع الاحتلال على أرض فلسطين، كانت قضية فلسطين قضية سورية والشعب السوري، وكانت بمثابة قضية شخصية للقائد الأسد بحيث أنها لم تغب يومًا عن فكره وممارسته السياسية على مدى عمره السياسي.

قبل أن تنشأ قضية فلسطين بسبب استهدافها في المشروع الاستعماري كانت فلسطين جزءًا من سورية الطبيعية، وذلك منذ اكتشاف الحياة الأولى، وما عرف حتى الآن من تاريخ إنساني.

ولذلك لم يكن غريبًا في يوم من الأيام موقف سورية وشعب سورية تجاه ما أصاب فلسطين... وهذا الأمر جاء القائد الأسد ليحوله من أفكار إلى واقع يعيشه الناس يوميًا فيقول: «إن القضية الفلسطينية كانت قضية الشعب العربي السوري بكامله، قبل أن تكون قضية أي منظمة فلسطينية، وقبل أن تظهر على الوجود أية منظمة من منظمات الثور الفلسطينية، وعلى هذا الأساس نرى أن علاقة استراتيجية تربط بين سورية وبين الثورة الفلسطينية منذ أن أطلقت هذه الثورة رصاصتها الأولى».

ومواقف حزب البعث العربي الاشتراكي كحزب قومي رائد، كانت فلسطين عبر تاريخه مواقفًا مشرفة، حتى ليمكن القول إن فلسطين كانت بشكل دائم على جدول أعمال الحزب اليومية، وفي مؤتمراته، وازدادت هذه المواقف أصالة منذ أن أصبح القائد الأسد أمينًا عامًا للحزب حيث قرر هذه الحقيقة بالقول والعمل: «فلسطين،

قضية فلسطين، كانت محور نضالنا كحزب وكقطر منذ كانت قضية فلسطين، وكانت محـور النقـاش في كل مـوتمراتنا بدون استثناء، الأمر الذي يصح معه أن نقول: إن كل مؤتمر من مؤتمرات الحزب، حزب البعث العربي الاشتراكي يمكن أن نقول أنه موتمر فلسطين» .

ولم يتغير أو يتراجع هذا الالتزام تجاه فلسطين وقضيتها فهو يقول: «شعبنا صمد أمـام كل الذين أرادوا أن يعـاقـبـوه بسـبـب دفاعه عن قضية فلسطين، ورفعنا في هذا البلد راية فلسطين منذ نشوء قضيتها، بدافع من التـزامنا القـومي، وبقيت هذه الراية مـرفوعـة، وستبقى مرفوعة، حتى يسـتـرد شعـب فلسطين العـربي حـقوقه كـاملة، وسنظل نؤكـد أن حـقـوق شـعـب فلسطين في أرضـه ووطنه تحـتل من اهتمامنا ونضالنا المرتبة الأولى، ونؤكد ما قلنا سابقًا، من أن حقوق شعب فلسطين العربي أولاً، وأرضنا في الجولان ثانيًا» .

ولأن قوى العـدوان كبيرة، وهجمتهـا شـرسة، فقد أكد القائد الأسد بإدراكه العميق وفكره الثاقب أن شمولية الهجمة الاستعمارية، يحتاج شمولية المواجهة، وحشد كل مقدرات الأمة.

«إذا كـانت المحن التي تمر بهـا أمـة من الأمم تحـرك في أبنائهـا أعـمق المشـاعـر النبـيلة، وتفـجـر فـيـهم أعظم الطاقـات الدفـينة، وتتـولد لديهم أكـبـر قـوة اندفـاع نحو قضاياهم الكبرى، فإنني أرى أن قضية فلسطين بقدر ما هي محنة عربية يجب أن تفجـر فـينا مـشـاعـرنا القـومـيـة النبـيلة وتوقظ في أعماقنا الوجدانية ما يجب أن يشكل طاقـة كـبـرى للاندفاع نحـو أخطر قضايانا وأفضلها وأكثرها إلحاحًا قضية الوحدة العربية» .

بهذه الرؤية، أصبحت قضية فلسطين الناظم الذي تحدد سورية وقائدها العظيم حافظ الأسد عـلاقـاتهـا مع كافـة القوى السـيـاسـيـة فـي العـالم أجـمع: «نحن في عـلاقـاتـنـا مع دول العـالم نحـدد هذه العلاقات على أساس مواقف هذه الدول من القضايا العـربيـة وعلى راسـهـا قـضـيـة فلسطين وعلى أسـاس تفـهـمـهـا للحق العربي» .

والقـائد القـومي الكبـيــر يؤكــد أنه: «انطلاقًا من وحدة قضيتنا، وانطلاقًا من أن القضية الفلسطينية هي القضية الأم، لن نمكن اسـتـراتيجـيـة اسـرائيل من النجـاح، ولن نمكن أحـد مـن عــزل هـذه القضية، فهي قضيتنا، من أجلها حاربنا فيما مضى، ومن أجلها حاربنا في تشرين، وحـول هذه القـضـيـة يدور نضالنـا في هذا القطر، بل إن المسـألة أكـبـر مـن ذلك لأن ضـيـاع فلسطين ضـيـاع الأمـة، وتحـريرها تحـريـر الإرادة، «إن قـضـيـة فلسطين ومـا ترتب عليها من احتلال أراضي دول عربية مـجـاورة لفلسطين، تشكل مـحـور نضـال الشعب العـربي السـوري الذي يعـيش هذه المنطقة في وجـدانه وحـيـاته اليـومـيـة، فمايربط شعبنا بقضية فلسطين أعمق من

مجرد التضامن، إنه رابطة المصير، لأن فلسطين جزء من وطننا العربي وشعبها جزء من الأمة العربية».

ولأن فلسطين جزء من الوطن العربي، وشعب فلسطين جزء من الشعب العربي، فقد كانت قضية فلسطين في مركز الاهتمام للشعب السوري، وقيادته..: «أؤكد لكم أن أبناء القطر العربي السوري الذين كانوا دائماً أمناء على قضيتهم، قضية فلسطين، سيظلون على الدرب نفسه، ولن يستطيع أحد أن يحول دون استمرارهم في الوفاء لهذه الأمانة والعطاء المستمر من أجلها مهما تطلب ذلك من بذل ومهما اقتضى ذلك من تضحيات». بل أنه لأمر: «لايحتاج إلى تأكيد أن قضية فلسطين هي قضية العرب المركزية، وأنها تشغل بال سائر المسلمين وقضية فلسطين بالنسبة لنا في سورية هي الهاجس الأول والقضية التي نوليها الاهتمام الأكبر».

أجل هي الهاجس والقضية المركزية وحقيقة في الفهم القومي لقائد سورية الكبير حافظ الأسد ولشعب سورية ولحزبها القائد حزب البعث العربي الاشتراكي، مهما اعترى هذا الطريق من تعرجات ومصاعب ومهما بلغ التلاعب والتضليل: «لن يعمينا التضليل الاعلامي، ولن يعمينا عن هذه الحقيقة... المشكلة التي يريدوننا أن نتخلى عنها هي قضيتنا الفلسطينية».

لقد حاول الأعداء، بكل ما يملكون من سبل، إرباك سورية وخلق المشكلات الداخلية والخارجية في طريقها، كل ذلك سيفشل هجمة الأعداء، ويزيد من عمق التلاحم الوطني القومي ودعم القضية الفلسطينية. ها هو القائد الأسد يخاطب أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني: «عندما لم يستطيعوا أن يحرفوا سورية عن خطها المستقيم بالنسبة لقضية فلسطين... بحثوا ورسموا لخلق المتاعب ولتفجير المتاعب أمام سورية، بطبيعة الحال كمقدمة لضرب وتصفية الثورة الفلسطينية».

عندما فشلت كل أساليب الضغط. غيرت الدول الاستعمارية سياستها تجاه سورية، فلا بأس من تجريب الترغيب وتقديم المغريات، في محاولة للالتفاف على سورية، كي تتخلى عن قضية فلسطين. لقد جاءهم الرد من القائد حافظ الأسد: «نحن لن نتخلى عن القضية الفلسطينية ... لأننا ننظر إلى المواطن العربي الفلسطيني كما ننظر إلى المواطن العربي السوري في الجولان».

لم تكن فلسطين يوماً موضوع مساومة: «إننا تاريخياً حريصون على القضية الفلسطينية، لأننا في سورية تعتبرها قضيتنا تماماً كما هي قضية كل فلسطيني، ولولا هذا لما كنا على استعداد كمواطنين سوريين لأن نضحي بدمائنا من أجل هذه القضية».

نعم إنه قائد سورية الذي لم يبتعد يوماً

عن الهم الفلسطيني بالقول والعمل: **«سيظل موقفنا من فلسطين موقفاً مبدئياً ثابتاً صامداً، لا يساوم ولا يفرط...»**.

وقد آمن القائد الأسد أن من حق الشعب الفلسطيني أن يناضل ويجاهد، وعلى العرب جميعاً يقع ذات العبء، لهذا يقول: **«هؤلاء المشردون يناضلون من أجل أن يكون لهم وطن، وأن يشعروا أنهم كبقية شعوب العالم...»**.

ثم أن الخطر لا يحدق بالفلسطينيين وحدهم بل بالأمة جمعاء، ولذلك فإن مصير العرب مرتبط بمصير فلسطين. ويبادر القائد الأسد لتأكيد حقيقة ذلك للجميع، فيقول: «إن السلام والحرب في **منطقتنا مرتبطان بقضية الشعب الفلسطيني ارتباطاً لا انفصام له، وأية محاولة أو جهد لا يأخذ هذه القضية بعين الاعتبار ويوليها حقها الكامل من الاهتمام سيكون في أمس الحالات جهداً ناقصاً إذا لم نقل إنه محاولة متعمدة لإطالة أمد الصراع وتثبيت عدوان إسرائيل ولاستمرار حالة التوتر المسيطرة على هذا الجزء الهام من العالم»**.

وما دام الفلسطينيون في الموقع النضالي الأول، فالقائد الأسد يؤكد أنه معهم، وأن سورية معهم.

خاتمة

نتحدث دوماً عن الشعوب، ومصير الشعوب، وإرادة الشعوب، وعبر تاريخ الإنسانية، وفي كل الشعوب برز أشخاص لهم تأثير كبير في تحديد مسارات الشعوب، وحتى في طرق وآليات نموها.

عاش حافظ الأسد على امتداد ثلثي القرن العشرين حيث ولد في نهاية ثلثه الأول / ١٩٣٠م/ وانتقل إلى جوار ربه في نهاية القرن في منتصف العام /٢٠٠٠م/. عمر من النضال، وهب خمسين عاماً منه للعمل في سبيل الوطن العربي والأمة العربية.

حافظ الأسد احتضن عبر حياته القضية الفلسطينية، والثورة الفلسطينية، وقدم لها كل ما يمكن أن يقدم، ساهم بشكل كبير في إبراز الشخصية الفلسطينية والحفاظ على ألق القضية الفلسطينية.

كان حافظ الأسد حقاً مدرسة في النضال والصمود والحوار والمحاورة والمناورة. قاد الأمة ببراعة الطيار وبدقة نظر النسر وبفكر الحكماء.

عاش الأسد مناضلاً.. وغادرنا بطلاً شامخاً..

ستذكره الأجيال مدرسة في البطولة والعزة والكرامة.